محمد سعيد رمضان البوطي

عفا الله عنه



كشف لأباطيل يختلقها ويلصقها بعضهم بكتاب الله عز وجل



آفاق معرفة متجددة
www.fikr.com



الرقم الاصطلاحي: ١٩٧٥,٠١١
الرقم الدولي: ISBN: 1-59239-599-6
الرقم الموضوعي: ٢١٠ - ٢٢٠
الموضوع: دراسات إسلامية-القرآن وعلومه
العنوان: لا يأتيه الباطل
كشف لأباطيل يختلقها، ويلصقها بعضهم بكتاب الله عزّ وجلّ
التأليف: د. محمد سعيد رمضان البوطي
التنفيذ الطباعي: دار الفكر - دمشق
عدد الصفحات: ٢٤٠ ص
قياس الصفحة: ١٧×٢٥ سم
عدد النسخ: ٣٠٠٠ نسخة

دار الفكر بدمشق
برامكة مقابل مركز الانطلاق الموحد
ص.ب: (٩٦٢) دمشق-سورية
فاكس: ٢٢٣٩٧١٦
هاتف: ٢٢٣٩٧١٧ - ٢٢١١١٦٦
Http://www.fikr.com
e-mail: info@fikr.com

2007
50 عاماً
نحو فكر إنساني مشترك

الطبعة الأولى
المحرم ١٤٢٨هـ
كانون الثاني (يناير) ٢٠٠٧م



المحتوى

بِسۡمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحۡمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

الحمد لله وليّ كل نعمة، المتكفل بنصرة دينه، وحماية كتابه، وتأييد الصالحين من عباده.

والصلاة والسلام على من بعثه الله شمس هداية لعباده أجمعين، وعلى آله وصحبه والتابعين صلاة وسلاماً دائمين إلى يوم الدين.



مُقَدِّمَة

ثمة حقيقة تزداد جلاء مع الزمن... هي أنه كلما ازدادت النفوس البعيدة عن الإسلام استئناساً به، وازدادت العقول الشاردة عن حقائقه إقبالاً وإصغاء إليه، ورغبة في دراسته والوقوف على جملة عقائده وتعاليمه، ازدادت عداوة أعدائه التقليديين له شراسة، وفاح منها المزيد من رائحة الضغينة والحقد، واتخذت عداوتهم له مظهر الهياج العشوائي، تراهم ينالون منه على غير هدى، ويكيدون له بدون بصيرة، ويتحركون للهجوم عليه حركة مذبوح.

والأمر المضحك في ذلك كله أنهم لا يطيلون ألسنتهم للنيل منه، إلا داخل جدران مغلقة، ليس معهم فيه أحد، فهم كمن يصارعون الهواء المحيط بهم، أو كمن يجادلون أشباحهم المرئيّة داخل المرآة المثبتة أمامهم !..

عندما تصادفهم المواجهات، يخلعون أقنعة العداوة والبغضاء، ويستبدلون بها مظاهر التقدير ورغائب المسالمةِ والتعاون ابتغاء إحقاق الحق أينما لاح.. فإذا خلا بعضهم إلى بعض، قال

قائلهم: إنا معكم، إنما نحن مستهزؤون - وجددوا العزم فيما بينهم على ممارسة الكيد، وتزييف الحق، واختلاق الأكاذيب ولصق الافتراءات بكتاب الله، باعتباره ينبوع الدين والحاوي للجامع المشترك لما بعث به سائر الرسل والأنبياء.

وبوسعك أن تعلم أن الكيد الذي يمارسه هؤلاء الناس إنما هو للرسالة التي بعث بها سائر الرسل والأنبياء، وليس انتصاراً لبعضهم على حساب بعض. وهل في الدنيا عاقل يرى أن أنبياء الله تعالى بعثوا بعقائد متناقضة، وأن بعضهم خصوم لبعض؟!..

فما من ريب أن من أعلن الحرب على القرآن، فقد أعلن بذلك الحرب على الكتب السماوية كلها، وأعلن بذلك الحرب على الدين من حيث هو، وإن هو تظاهر أمام الناس بالدين، وإن هو رفع فيما بينهم شعار: نؤمن ببعض ونكفر ببعض..

* * *

وإن العالم ليشهد اليوم حرباً معلنة مستمرة على الدين من حيث هو، وقد استقر في أذهان المعلنين لها، أن أقصر طريق لاكتساحه وإزاحته عن طريق الحضارات، إنما هو التوجه بهذه الحرب إلى الإسلام، إذ هو العمود الفقري لرسالات الرسل والأنبياء، وهو الخاتم لها والجامع المشترك لمضموناتها.

وإنما يتم تقويض الإسلام (فيما يراه المعلنون لهذه الحرب) بتقويض دعامته وطمس ينبوعه ومصدره، وقد علم الناس جميعاً أنه القرآن.

فمن أجل ذلك يهبّ اليوم أئمة هذه الحرب ودعاتها، في

تحركات عشوائية يائسة، تمطر القرآن بترهات وأكاذيب مختلقة باطلة، من خلال أقنية فضائية متخصصة، وعن طريق إذاعات موجهة، وبواسطة صحف ومجلات شائعة.. وعن طريق ما استطاعوا أن يصلوا إليه أخيراً من تجنيد «الفاتيكان» نفسه للاشتراك في الحرب ذاتها. أما الميزانية بل الميزانيات، المرصودة لإنجاح هذه الحرب اليائسة، فهي - فيما يؤكده كثير من مواقع الإنترنيت - أرقام من الكثرة عجيبة ومذهلة، تنوء عنها الدول الحضارية العظمى، إلا تلك التي تمسك بزمام القيادة في إلهاب هذه الحرب وتوجيهها.

وليس في الناس اليوم من لا يعلم أن القرآن لو كان افتئاتاً على الله مِن قِبل محمد صلى الله عليه وسلم أو أيّ من الناس، لقضي عليه ولأصبح أثراً بعد عين ومجرد تاريخ يُروى، بمعشار هذه الجهود اليائسة، وبأدنى من قدر الفائدة الربويّة التي تُجنَى من هذه الميزانيات المالية كلها.

ولكن ها هوذا القرآن يعلن عن وجوده متألقاً صافياً عن الشوائب كلها، لم يتماسك على صفحة إشراقه شيء من غيوم الشبهات والتقولات الباطلة التي تُلصق به، يتحدى العصور والأجيال المتطاولة أن تنال منه أي منال، وهاهم أولاء الناس الذين تحرروا من سلطان الرعونات والعصبيات والأسبقيات، لم تمنعهم غربتهم عنه واستغرابهم له وجهلهم به، أن يُقبلوا فينصتوا إليه، ويضعوه من الاهتمام والاعتبار في موازين عقولهم، دون أي تأثر بالسحب الداكنة التي عكف على نسجها قادة هذه الحرب ودعاتها... وإنها لكثرة لا تحصى تلك التي تعتنق الإسلام

عن طريق كلام الله وبيانه، في تلك المجتمعات الغريبة عن القرآن والإسلام، وإن الذين يعتنقونه ويمارسونه سراً هناك أضعاف الذين أعلنوا اعتناقهم له وتمسكهم به.

فمن أجل هذا أُعلِنُ وأؤكد أن هذه الحرب على الرغم من شراستها وضخامة الأموال والجهود المرصودة لها حرب يائسة حقاً، وأن حركة قادتها وجنودها ليست إلا حركة مذبوح.

ذلك هو قرار القرآن الذي لا يُقهر ولا يُغلب ولا يتسامى عليه شيء.. ذلك هو قرار القرآن القائل: ﴿لَّا يَأْتِيهِ ٱلْبَٰطِلُ مِنۢ بَيْنِ يَدَيْهِ وَلَا مِنْ خَلْفِهِۦ ۖ تَنزِيلٌ مِّنْ حَكِيمٍ حَمِيدٍ ﴿٤٢﴾﴾ [فصلت: ٤١/٤٢]، والقائل: ﴿يُرِيدُونَ لِيُطْفِـُٔوا۟ نُورَ ٱللَّهِ بِأَفْوَٰهِهِمْ وَٱللَّهُ مُتِمُّ نُورِهِۦ وَلَوْ كَرِهَ ٱلْكَٰفِرُونَ ﴿٨﴾﴾ [الصف: ٦١/٨].

* * *

ولكن هل يعني هذا القرار، بل هذا الإعلان القرآني، الذي نصدِّقه ونستيقنه، أن نركن إلى الراحة، ونتخذ من الأحداث التي تجري أمامنا موقع الناظر إليها والمتسليّ بها؟

معاذ الله أن نجني من هذا القرار القرآني الذي لا يمكن أن يلحقه خلف، ثمارَ الكسل والتقاعس عن النهوض بالواجب الذي شرفنا الله به، إذ قال ﴿ٱدْعُ إِلَىٰ سَبِيلِ رَبِّكَ بِٱلْحِكْمَةِ وَٱلْمَوْعِظَةِ ٱلْحَسَنَةِ ۖ وَجَٰدِلْهُم بِٱلَّتِى هِىَ أَحْسَنُ﴾ [النحل: ١٦/١٢٥].

وهل معنى هذا القرار القرآني الذي هو ملء عقولنا يقيناً وتصديقاً، إلا أن الله قضى بأن يجند لحماية دينه وقرآنه من يحفظه بواسطتهم من كيد الكائدين ولغو المفترين.

على أن هذا الذي قضى به الله جل جلاله، ليس عن احتياج منه إلى من يحفظ دينه ويرعى كتابه، فهو الإله الغني عن عباده، وهم عباده الفقراء إليه، ولكنه شرف يسمو إليه من عهد الله إليهم بالنهوض إلى التعريف بدينه والدعوة إلى شريعته والتبصير بكتابه. وهو الموفق لهم والباعث على التأثر بهم عندما ينهضون بهذا الواجب الأقدس الذي كلفهم به وأنهضهم إليه.. يكلفهم، ثم يوفقهم، ثم يبعث التأثر بهم في أفئدة من شاء من التائهين، ثم يثيب كلا الطرفين بالآخر.. ولا يخرج أخيراً عن ساحة هذه الرحمة الإلهية إلا المستكبرون الذين عرفوا الحق وجحدوا به عتواً واستكباراً.

لذا فإني مع يقيني التام بأن الله متم نوره الذي يتلألأ في قرآنه، ولو كره الكافرون، لا بدّ أن أنهض بالواجب الذي شرفني الله به، فأرد البطلان إلى أصحابه، وأكشف عن لغو اللاغين وزيف المدجلين، بمصباح من موازين العلم ومنهجه، صاف من الأسبقيات والعصبيات المذهبية والطائفية أياً كانت.. مستضيئاً ومنضبطاً بقول الله تعالى: ﴿وَلَا تَقْفُ مَا لَيْسَ لَكَ بِهِۦ عِلْمٌ إِنَّ ٱلسَّمْعَ وَٱلْبَصَرَ وَٱلْفُؤَادَ كُلُّ أُوْلَٰٓئِكَ كَانَ عَنْهُ مَسْـُٔولًا ﴿٣٦﴾﴾ [الإسراء: ١٧/٣٦] وسائراً تحت الشعار القرآني القائل: ﴿وَإِنَّآ أَوْ إِيَّاكُمْ لَعَلَىٰ هُدًى أَوْ فِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ﴾ [سبأ: ٣٤/٢٤] وذلك كي أوضح للناس جميعاً مصداق قول الله تعالى: ﴿لَّا يَأْتِيهِ ٱلْبَٰطِلُ مِنۢ بَيْنِ يَدَيْهِ وَلَا مِنْ خَلْفِهِۦ ۖ تَنزِيلٌ مِّنْ حَكِيمٍ حَمِيدٍ ﴿٤٢﴾﴾ [فصلت: ٤١/٤٢] وأكشف عن ديمومة قراره هذا مخترقاً القرون والعصور إلى أن يقوم الناس لرب العالمين.

ولسوف أتتبع سائر الشبهات والأوهام والافتراضات الباطلة

التي يحاول أن يلحقها بعضهم بكتاب الله عز وجل، أضعها جميعاً تحت مجهر النظر العلمي مصغياً بتجرد إلى ما يقرره العلم والمنطق بشأنها. ولسوف تتحول هذه الشبهات على أعقاب ذلك إلى أدلة ناطقة بأكاذيب المختلقين لها، وزيف المفتئتين بها على الله وكتابه ورسوله.

ولَتمنيتُ لو أشفق هؤلاء الناس على أنفسهم فخرجوا من سجونهم المغلقة عليهم والقابعين في داخلها، مؤثرين أن لا يكلموا إلا أنفسهم، ولا يناقشوا إلّا أصداءهم.

لَتمنيت لو خرجوا إلى الهواء الطلق، فتلاقينا وجهاً لوجه، ودار الحديث بيننا حول هذه الشبهات وغيرها، في الهواء، وعلى الهواء، وعلى مسمع ومرأى من ملايين الناس، إذن لكان هو السبيل الأجدى إلى كشف الحقائق، وتعرية الأوهام، وفضح الخفايا وكشف اللثام.

وعلى كلٍ فإن ديننا الذي شرفنا الله به ربانا على الحوار وتقديس الحوار، وأن لا نفرّ من الحوار، وأن لا نبغي عنه بديلاً، وأن نتخذه السلّم الذي لا بديل عنه للصعود إلى الحقائق والتعالي عن الزيف..

فمن أبى إلا فراراً منه وانزواءً عنه، أرسلْنا إليه خطابنا خلال الأثير وعبر هذه الصفحات، وعن طريق ما أمكن من المحطات الفضائية.. فإن لم يترك أثره في أفئدة الهاربين، فلن يعدم تأثيراً في أفئدة الملايين.. أولئك الذين يبحثون عن الحق أينما لاح، لا يصدون أنفسهم عنه إيثاراً لعصبية أو استكبار - والله الهادي والموفق وإليه المرجع والمآب. وهو أحكم الحاكمين.

الغيب والعلم الحديث

يقول قائلهم :

إن القرآن يقول: ﴿قُل لَّا يَعْلَمُ مَن فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ٱلْغَيْبَ إِلَّا ٱللَّهُ ۚ وَمَا يَشْعُرُونَ أَيَّانَ يُبْعَثُونَ﴾ [النمل: ٢٧/٦٥] والعلم الحديث مزق حجب الغيب أمام الإنسان، فأصبح بإمكانه أن يعلم غيوب الماضي والمستقبل كلها، كالأجنة في الأرحام، وما تأتي به قادمات الأيام من كسوف وخسوف وحرّ وبرد وأمطار. وهذا دليل على أن القرآن كلام محمد الذي كان يحكم على الدنيا كلها بما يعرفه من حال الجزيرة العربية في عصره !..

وأقول لهذا المتبجح بكلمات العلم والفقير إلى مضمونه : إن الإنسان مهما أوتي من القدرات والمهارات العلمية الحديثة، لن يصل إلى يقين علمي بالمغيبات أياً كانت. وسبب ذلك أن مفاتيح المغيبات ليست بيده، وليس له من سلطان عليها.

فما الفرق بين الغيب ومفاتيح الغيب ؟

الغيب كل ما يتوقعه الإنسان مما لم يحدث بعد، بناء على دلائل اعتمدها :

- توقع الإنسان هبوط درجة الحرارة بواسطة كتلة هوائية رآها كيف تسير، من الغيب.

- توقع هطول الأمطار في مكان ما، بناء على دلائل اطلع عليها، من الغيب.

- توقع الطبيب أن يولد الجنين ذكراً بناء على مؤشرات رآها في الصبغيات، من الغيب.

- توقع الشفاء بعد تناول الدواء، والموتِ بعد تجرع السم، من الغيب.

- توقع احتراق الهشيم بعد وضعه في النار، من الغيب.

فهذه الأمور وأمثالها غيوب نفترض أنها وإن لم تقع بعد، ولكنها متوقعة، والشيء الذي يجعلنا نتوقعها بصيرة علمية أدركناها فاعتمدناها. والبصائر العلمية مبثوثة في كون الله عز وجل، والذي يجعلنا نعتمد عليها في توقعاتنا إنما هو التجارب الكثيرة المتكررة.

هذا هو الغيب. فما المراد بمفاتيح الغيب؟

إن المراد بمفاتيح الغيب دساتيره.. أي الفاعلية الكامنة وراء الأحداث المتوقعة. الفاعلية الكامنة وراء سير الكتلة الهوائية من مكان إلى مكان.. نحن نرى الكتلة، ولكن لا نرى الدستور، أي اليد الكامنة وراء تحركها أو تبددها أو وقوفها حيث هي ؟. نحن نرى مؤشرات الذكورة في الصبغيات، ولكن لا نعلم من أين جاءت ضرورة العلاقة بين مؤشرات الذكورة فيها وبين النتيجة

التي نتوقعها... نحن نتوقع الشفاء بعد تناول الدواء، ونتوقع الهلاك بعد تجرع السم ؛ ولكن ما مصدر الفاعلية الكامنة بين الدواء وأثره، أو السم وأثره ؟ هذا ما لا نعمله

إننا لا نملك العلم بأي علاقة بين هذه المقدمات ونتائجها، اللهم إلاّ علاقة التجربة المتكررة التي من شأنها أن تورث الإنسان طمأنينة كبيرة إلى النتائج ذاتها في المرات المقبلة.

ولكن ما هو الدستور الخفي الذي يبعث الفاعلية في المقدمات لتحقيق نتائجها ؟

هذا ما لا يصل علم العلماء إليه قط.. لأنه ليس عائداً إلى الإنسان، إذ ليس هو الذي عقد الرابطة الحتمية بين المقدمات ونتائجها، وإن شئت قل : بين الأسباب ومسبباتها.. كل ما استطاع الإنسان أن يصل إليه إنما هو تجاربه المتكررة. والذي يمكن أن يورثك العلم اليقيني بالمغيبات المتوقعة، إنما هو العلم بدساتيرها لا مجرد التجارب المتكررة لأحداثها.

والقرآن يسمي هذه الدساتير الكامنة وراء الأحداث الغيبية بالمفاتيح، إنها مفاتيح الغيب !.. اسمع كلام الله عز وجل :

﴿وَعِندَهُۥ مَفَاتِحُ ٱلْغَيْبِ لَا يَعْلَمُهَآ إِلَّا هُوَ﴾ [الأنعام: ٦/٥٩] تأمل كيف حصر البيان الإلهي العلم بمفاتيح الغيب في ذاته عز وجل، ثم كيف أكد هذا الحصر بقوله : لا يعلمها إلا هو. وإذا كانت مفاتيح الغيب ليست بيدك، فإن التجارب المستمرة وحدها لن تملك قراراً علمياً بضرورة العلاقة بين المقدمات ونتائجها. إذ

الذي بيده مفاتيحها (أي دساتيرها) يملك أن يفصل الاقتران القائم بينهما عندما يشاء، ومن ثم فإن من لم يملك التحكم بمفاتيح الغيب، هيهات أن يحيط علماً يقينياً بحتمية العلاقة المستقبلية بين ما نحسبه من طول الاقتران أسباباً ومسببات.

إن البيان الإلهي القائل ﴿وَعِندَهُۥ مَفَاتِحُ ٱلْغَيْبِ لَا يَعْلَمُهَآ إِلَّا هُوَۚ﴾ خطاب منبهٌ لكل من سجن نفسه في سجن الطبيعة. رأى ظواهر المادة فأعطاها الفاعلية، أعطى الدواء فاعلية الشفاء.. أعطى النار فاعلية الإحراق.. أعطى الصبغيات فاعلية الذكورة والأنوثة.. إنه ينبههم إلى الحقيقة قائلاً :

لكم أن تشاهدوا هذه الغيوب، وما أيسر أن تتوقعوها، فَتَقَع كما توقعتم. ولكن لا تنسوا أن هذه الغيوب التي تتوقعونها، ليست فاعليتها كامنة في ذاتها. إنها آتية من عندي، ومن ثم فأنا أعلم كيف أصرّفها.

هذه الكتلة الهوائية من حقكم أن تتوقعوا توجهها يميناً أو شمالاً، وبلوغها بناء على ذلك في ساعة محددة إلى مكان ما، ولكن لا تنسوا أن مقادة هذه الكتلة بيدي، فأنا الذي أسيرها ذات اليمين أو ذات الشمال إن شئت، أو أوقفها حيث هي أو أبدّدها إن شئت.

مؤشرات الذكورة أو الأنوثة من حقكم أن تتوقعوا نتائجها التي بصّركم بها طول التجارب التي أورثتكم الطمأنينة وغلبة الظن، وربما تَوَهُّمَ اليقين.. ولكن لا تنسوا أن الدستور الذي

على أساسه تبين لكم دليل الذكورة ودليل الأنوثة، أنا الذي وضعته وأنا الذي أغيره وألغيه عندما أشاء.

والنتيجة العلمية هي أن على الإنسان أن لا يُخدع باستمرار النتائج ذاتها على أثر التجارب المتكررة الكثيرة، فيستولد منها قرار الضرورة والحتمية في المستقبل.. ذلك لأن التجارب مهما تكررت نتائجها لا تورث اليقين إلا بمخزونها الماضي، أما المستقبل الذي لم يولد من رحم الغيب بعد، فليس لنتائج التجارب الماضية سلطان عليها قط. ولذا فأنت لا تملك أن تقطف من نتائج تجاربك مهما كثرت وتطاولت إلا ثمرة الظن فقط.

وهذا ما يعنيه دافيدهيوم إذ يقول : لو أني رأيت احتراق الهشيم في النار آلاف المرات، لن أستطيع أن أدلي بقرار علمي قاطع، بأنه سيحترق مرة أخرى لدى تكرار التجربة إلا بعد أن أجرب ذلك فعلاً وأعود فألقي الهشيم في النار.

ومن المعلوم أن هيوم لا ينطلق إلى قراره هذا، من رؤية دينية، وإنما يعتمد في ذلك على الموازين العلمية التي هو موقن بها.

بوسعك الآن أن ترى بعين بصيرتك ووعيك العلمي، كيف يسجد العلم لقول الله عز وجل ﴿قُل لَّا يَعْلَمُ مَن فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ٱلْغَيْبَ إِلَّا ٱللَّهُ﴾ [النمل: ٢٧/٦٥] إذ إن مفاتيح الغيب بيده عز وجل لا بيد الإنسان المخلوق ولا بيد تجاربه التي يكررها ويعكف عليها .

ولكن لعل مجادلاً يقول : فإذا صح هذا الذي تقول، فإنا سنجد أنفسنا في وضع لا نستطيع أن نتعامل فيه مع الحياة، لأن الثقة التي بيننا وبين عالم الأسباب والمسببات تنقطع عندئذ وتؤول إلى زوال.

لن نأخذ أنفسنا يومئذ بعلاج، فلعل الدواء تنقطع سببيته عن الداء.. لن ننهض للتسبب بالرزق، إذ لعل السبب لا قيمة له، لأن الفاعلية لله.. بل لن نحمي أنفسنا من النيران المحرقة ولا من السموم المهلكة، إذ لعل الفاعلية التي فيها وهم لا حقيقة له، أو لعلها تنفصل عن آثارها فتنفك علاقة النار بالإحراق وعلاقة السم بالإهلاك.

وهكذا فإن الإنسان إذا استسلم لهذا التصور الذي قررناه وأكدناه، ربما أداه ذلك إلى عدم الثقة بشيء من نواميس الكون. ومن ثم فإنه لن يتحرك وراء أي هدف. وهي مشكلة كبرى، فما الجواب عنها؟!..

أعتقد أن خير من أجاب عن هذا الإشكال إجابة علمية دقيقة حجة الإسلام الإمام أبو حامد الغزالي في كتابه (تهافت الفلاسفة).

صور هذا الإشكال عند أصحابه ثم قال : أجل إن الغيوب التي نتوقعها بناء على علاقة الأسباب بمسبباتها ليست حتمية الوقوع، لأن مقاليدها بيد الله.

ولكن لله سنناً في كونه، أي أقام نظام المكونات على قوانين في علاقة ما بينها، ورتب بموجب ذلك علاقة ما نراه أسباباً بما نراه مسببات. وأعلن في كتابه المبين أن سنن الله تعالى لا تنسخ بأي سنن أخرى تقع بديلاً عنها. فقال ﴿لَا تَبْدِيلَ لِخَلْقِ ٱللَّهِ﴾ [الروم: ٣٠/٣٠] وقال ﴿سُنَّةَ ٱللَّهِ ٱلَّتِي قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلُ وَلَن تَجِدَ لِسُنَّةِ ٱللَّهِ تَبْدِيلًا ﴿٢٣﴾﴾ [الفتح: ٢٣/٤٨]، فإذا رأينا أن الطعام يشبع وأن الدواء يشفي وأن النار تحرق، وأن دلائل الذكورة في الصبغيات مرتبطة بالذكورة فعلاً، وكذلك العكس، فينبغي أن نعلم أنها سنة ماضية في كون الله، لن تستبدل بها سنة كونية أخرى، هكذا قضى الله وقرر.. أما الاختراقات الجزئية فممكنة.. بل هي حاصلة يقع منها الكثير في كل عصر، باسم المعجزات للأنبياء والكرامات للأولياء، والخوارق التي يقضي الله تعالى بها لإنعامٍ أو إهلاكٍ أو استدراج.

فهذا القانون الرباني الذي أقام الله نظام الكون عليه، من شأنه أن يُكْسِبَ الإنسان ما يسمى «اليقين التدريبي» وهو يقين يترسخ في الذهن من كثرة التجارب التي لا تختلف نتائجها، ولذلك يسمى اليقين التدريبي. وهو دون اليقين العلمي الذي هو محل البحث، إن إمكان حصول الخوارق لأسباب قد لا نعلمها لا يتعارض مع اليقين التدريبي الذي يتكون من مخزون التجارب، ولكنه يتعارض مع اليقين العلمي الذي يشترط فيه أن لا يتخلف قط، وإلا هبط من مستوى اليقين العلمي إلى الظن القوي الذي يساوي ما يسمونه : اليقين التدريبي.

والشأن في تعامل الإنسان مع الكون أن يقيم علاقته معه على أساس اليقين التدريبي الذي هو حصيلة التجارب. والتكاليف الشرعية تخاطب الناس على هذا الأساس؛ فلو أن إنساناً تجاهل سببية النار للإحراق، وألقى بنفسه فيها كان منتحراً، وباء بوزر عظيم يوم القيامة.. ولو أن شخصاً شكا الظمأ وأبى أن يسعى إلى الماء قائلاً : إنني لا أقيم لسببية الماء وزناً فإن الله قادر أن يرويني بدون ماء، كان مسيئاً الأدب مع الله متجاهلاً سننه الكونية في عباده..

نتعامل مع الحياة طبقاً لنظام الأسباب والمسببات التي أجراها الله بيننا.. إذا سمعنا نشرة الأرصاد الجوية نتعامل معها، ونعلم أن المختصين بها لم ينطلقوا إلى قراراتهم التي أعلنوا عنها من يقين علمي كما يتوهم السطحيون، بل من يقين تدريبي، كذلك الأمور الغيبية الأخرى على اختلافها.

والمهم أن نعلم أن احتمال الشذوذ في كل ذلك قائم، وكم وقعت الشذوذات في كثير من مظاهر الأسباب والمسببات، فتخلف المسبب عن السبب دون أن يظهر أي موجب لذلك [١] والباب الوحيد الذي يمكن أن تنفذ منه هذه الشذوذات في كل وقت هو ما قرره كلام الله «القرآن» من أن مفاتيح المغيبات ليست بيد الطبيعة ولا في يد الإنسان، وإنما هي بيد الله وحده.

---

(١) عد إلى كتاب «غرائب العالم» لميشال مراد، لتجد فيه الوقائع التي تتحدى الأساطير والتي تؤكد لعقلك أن مفاتيح المغيبات بيد الله. ومن ثم فالعلم اليقيني بالغيب لله وحده.

عليك أن تعلم بعد هذا أننا لم نناقش المفتئت على كتاب الله بالموازين الدينية بل لم نضع شيئاً منها في حديثنا هذا بالحسبان، وإنما هو المنطق العلمي وحده دون أي خلط ولا مزج.

وإذن فعليك أن تعلم أن القرار العلمي في هذا يسجد لقرار الله ﴿قُل لَّا يَعْلَمُ مَن فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ٱلْغَيْبَ إِلَّا ٱللَّهُ وَمَا يَشْعُرُونَ أَيَّانَ يُبْعَثُونَ ﴿٦٥﴾﴾ [النمل: ٢٧/ ٦٥].

تداخل موضوعات القرآن

يقول قائلهم :

القرآن بدائي في نسقه وتأليفه. لا ينطلق من وحدة الموضوع، يظل ينتقل بالقارئ من موضوع إلى موضوع، دون التزام سابق لتبويب وفصول.. بينما هو يحدثك عن بعض أحكام الحلال والحرام، إذا به يحدثك عن الجنة والنار.. وما يكاد الحديث عنها يتجاوز طور البداية، حتى ينتقل بك إلى بعض القصص كقصص عاد وثمود !.. وبينما هو يروي لك بعض تلك الأخبار، إذا به يحدثك فجأة عن النجوم والأرض والسماء !.. فهل هذا إلا دليل على بدائية القرآن، وبساطة الفكر والثقافة لدى مؤلفيه ؟..

وأقول: مما لا ينبغي أن يغيب عن بال أي مثقف أن ظاهرة التدوين والتأليف تنقّلت منذ بدايتها في أواخر القرن الأول الهجري، من حيث النسق والتنظيم، في أطوار لا حصر لها، وهي اليوم ماضية في اجتياز المزيد من الأطوار.

عد إلى التراث العربي المتمثل في عمليات التدوين والتأليف، تجد أمامك منها أنظمة وأساليب شتى. منها ما يعتمد على طريقة الاستطراد في عرض البحوث والموضوعات، ومنها ما يؤثر

التنقل بين المسائل المنثورة بقطع النظر عن وحدة الموضوع، ومنها ما يفرد لكل جزئية باباً فترى الكتاب مؤلفاً من أكثر من مئة باب.. ومنها ما يؤثر طيَّ كلمة الباب، والاستعاضة عنه بالفصل، فلا تجد في الكتاب ذكراً لكلمة الباب قط.. ومنها ما انتهى إليه نظام التأليف اليوم، من تقسيم الكتاب إلى موضوعات رئيسة كبرى يعنون لها بكلمة الباب، وتقسيم موضوع الباب إلى فروع مأخوذة عنه يعنون لكل منها بكلمة الفصل، وتقسيم الفرع إلى مسائل جزئية يعنون لها بكلمة المطلب. ولا نشك في أن التطور مستمر، وأن الناس الذين سيأتون من بعدنا، سيرون في نظام الكتابة والتأليف في عهدنا ثغرات كثيرة من وجهة نظرهم، وأن الذين سيأتون من بعدهم ستكون لهم الرؤية ذاتها في حق من قبلهم.

بل إننا ننظر فنجد أن النظم والأساليب مختلفة في العصر الواحد. ومن المعروف أن في مقدمة ما يتحكم بنظام التأليف ونهجه نوع الموضوع الذي يدور المؤلِّف على محوره، والهدف المرسوم من ورائه، إلى جانب العرف الذائع والمتبع. فكتابي هذا ليس مقسماً حسب ما هو مألوف إلى أبواب وفصول، لأن طبيعة الموضوع تنأى عن هذه الطريقة ولأن الغاية المقصودة لا تتفق معها.

إذا تبين هذا - وما إخاله يخفى على أحد - فتعال نسأل هؤلاء الذين يتطاولون بألسنتهم على القرآن، ويصرّون على أن يحاكموه إلى طرائق التأليف المتبعة في تاريخ التراث العربي، وأن

يحكموا عليه بالبدائية، وبأنه نظراً إلى ذلك ليس إلا مجموعة أفكار مختلفة منثورة أنتجها ثم صاغها ذهن إنسان، تعال نواجههم بالسؤال التالي :

لقد علمنا الآن أن طرائق التأليف في التاريخ العربي متنوعة شتى، وما من أصحاب طريقة منها، إلا وأفكارهم محشوة بالثغرات والعيوب التي يلصقونها بالطرائق التي كانت ذائعة من قبلهم، ولن ترى فيمن يأتي بعدهم إلا نقاداً لهؤلاء منتقصين لهم مستخفين بنهجهم ونظامهم. وهذا هو شأن التطور دائماً هو فرار مما يُظنّ ناقصاً، ولحاق بما يُظن أنه الأكمل. وربما كان الأمر في واقعه وبعد التمحيص على العكس.. فإلى أي هذه الطرائق المعتدّة بنفسها والمفنِّدة لما قبلها يجب على القرآن - بنظركم - أن يتبع؟!..

ومن الذي يدافع منكم عن اتباع القرآن للمنهج الذي ترون، إذا وضع تحت مجهر النقد من قِبَل أصحاب المناهج السابقة عليه واللاحقة له ؟ وهل على القرآن الذي نزداد كل يوم إصراراً على أنه كلام الله عز وجل، أن يكون متبعاً لواحدة من الطرائق البشرية الكثيرة المتنوعة في التأليف، آخذاً منها، متتلمذاً عليها؟.. وإذا دعتكم المكابرة إلى أن تقولوا : نعم، كان علينا أن نسألكم : فأي تلك الطرائق المتعاقبة على أعقاب القرون والأجيال تحبون للقرآن أن يتبعها وأن يهتدي بهديها ؟ ولماذا ؟ ما المبرر لأن تكون تبعيته لها لا لغيرها؟!..

إن الذين يوجهون إلى القرآن هذه التهمة، ينطلقون إليها من

قرارهم بأن القرآن إنما هو كلام زيد من الناس، لذا فإن عليه أن يتبع المألوف من طرائق التأليف. وإذا ووجه بالنقد من المعجبين بالطرائق الأخرى، فإن على المؤلف أن يدافع عن المذهب الذي رأى اتباعه، شأن سائر الكاتبين والباحثين.

أما نحن، فإنما ننطلق إلى ما قلناه وأوضحناه، من يقيننا بأن القرآن كلام الله عز وجل. تنزل خطاباً للناس كلهم في سائر الأعصار والقرون. لذا فإن الحكمة الإلهية تقتضي أن يكون متعالياً في نظامه ومنهجه وأسلوبه عن التقليد والاتباع وأن لا يأتي مصبوغاً في ذلك بصبغة عصر دون غيره. إذ هو خطاب لهم جميعاً، جيلاً بعد جيل إلى أن يرث الله الأرض وما عليها.

وكل انتقاد للقرآن يوجَّه إليه من منطلق الزعم بأنه ليس كلام الله، يجعل مناقشتنا له في ذلك الانتقاد غير ذات جدوى، إذ النقاش الذي لا ينطلق ابتداؤه من نقطة ذات رؤية مشتركة، يكون كالخطين المتوازيين، لا يجتمعان في بداية ولا يلتقيان عند نهاية.

★ ★ ★

ثم إن هذا الكتاب الرباني، ليس كتاباً في علم التشريع والقانون، ولا كتاباً في علم التاريخ والقصص، ولا كتاباً يعرِّف على السماوات والأرض والأفلاك، وإنما هو تعريف للإنسان بهويته وذاته، وسمّو به إلى النهوض بالوظيفة التي خلق من أجلها. إن كل ما فيه من مسائل وموضوعات، إنما يدور على

هذا المحور الكلي الواحد الذي يخاطب به الناس جميعاً في كل زمان ومكان : ألا وهو دعوة الناس إلى أن يكونوا عبيداً لله بسلوكهم الاختياري كما قد خلقوا عبيداً له بواقعهم الاضطراري.

فما هي الطريقة التربوية المثلى التي من شأنها أن تقود الناس إلى الاستجابة الطوعية لهذه الدعوة التي جاء بها القرآن ؟

الطريقة المثلى إلى ذلك، هي تلك التي سلكها القرآن إلى عقول الناس ونفوسهم، وهي جذبهم إلى هذا المحور الكلي الذي تنزل القرآن من أجله، من خلال جميع ما يعرضه من البحوث والموضوعات المختلفة من تشريع وقصة وأمثلة ووعد ووعيد، وغيرها، بحيث تكون هذه الموضوعات مذكّرة للقارئ بالمحور الكلي الذي بينته لك، جاذبة إليه، لا حاجزاً يشغل عنه، ومَلْهاةً تصرف فكره عنه.

فهو عندما يبدأ بعرض قصة ما مثلاً، لا يدعك تنسى، ولو في مرحلة من مراحلها ذلك الهدف الكلي الذي ذكرناه، لذا فإنك تراه كيف يمزجها بما ليس منها، من نصح ووعظ وتهديد ووعد أو وعيد، تحقيقاً للغرض الذي من أجله تساق القصة. وحفظاً لفكر القارئ أن لا يتشتت مع أجوائها وأحداثها، فينسى المعنى التربوي الذي سيقت من أجله القصة. وينبغي أن لا يفوتك أن هذا منهج تربوي يُدْرَس ويؤخذ به التلامذة في مجال ما يؤخذون به من مجالات التسلية المتنوعة.

وهو عندما يبين لك أحكاماً في العبادات أو المعاملات ونحوها، يسلك بك أيضاً المنهج ذاته. فهو يحاذر أن تستغرق في الانصراف الفكري إلى هذه الأحكام، من حيث هي علم أو فن برأسه، كما يحصل عادة مع من ينكب على دراسة الأحكام الشرعية في الكتب العلمية الخاصة بها، إذ يعيش بفكره مع الجو القانوني وضوابط الحقوق والالتزامات مفصولاً عن مشاعر الروادع والدوافع الدينية، فيمزج البيان الإلهي من أجل ذلك آيات الأحكام الشرعية بآيات أخرى ليست منها، تتضمن حديثاً عن الآخرة أو دليلاً على قيومية الله ورقابته وما يتبع ذلك من وعد ووعيد، لينتبه الفكر إلى المحور الكلي الجامع، وليظل مستيقظاً للحقيقة الكبرى التي تدور عليها سائر المعاني والموضوعات.

ولو أن القرآن اتبع في عرض موضوعاته هذا الذي يسلكه الناس اليوم في تآليفهم، فأفرد فصولاً خاصة لعرض أحكام التشريع من عبادات ومعاملات.. ثم أفرد فصلاً خاصاً للقصص، وفصلاً آخر للمغيبات وأحداث يوم القيامة، وهكذا.. إذن لفات السبيل إلى تحقيق هذا الذي نزل القرآن من أجله، ولما أمكن أن تكون هذه الفصول المتناثرة جامعاً مشتركاً للمحور الكلي الذي شاء الله أن تكون سائر موضوعات القرآن خادمة له دائرة على تحقيقه. ولئن أمكن أن يكون القارئ مشدوداً إلى هذا المحور متفاعلاً معه، في فواتح الفصول المفترضة، فلسرعان ما ينساه

عندما يوغل فيها ويندمج مع أحكامها والأحوال والظروف الاجتماعية والاقتصادية المتعلقة بها.

وإن هذا الذي نقول، ليس من الحقائق المستعصية أو الخافية على من يصدق التأمل والنظر في كتاب الله، بعيداً عن الأسبقيات التي يلزم عقله ونفسه بها سلفاً..

ولكن في الناس من يقود عقله وراء غرض ما، فيمضي يصطنع في سبيل ذلك مشكلة، وهو يعلم بعقله الحرّ أنها ليست مشكلة. ولكن الغرض الذي يسعى إليه لا يدعه يحرر عقله من الأسر. فيمضي متوكلاً على الشيطان ليصرّ على أن الأبيض أسود، وأن الموجود معدوم وأن الشمس مظلمة.

وهؤلاء الناس لا جدوى من مثل هذا الحوار معهم، بل إنهم لا يعرّضون أنفسهم له، وإنما يظلون يرسلون شبهاتهم المختلقة، رمياً بها من بعيد، كالذي يرميك بحجارته من وراء حجاب، ثم يفرّ هارباً منك.

ونحن لا نتعامل مع الحجارة المرمية إلينا بمثلها، وإنما نترجمها إلى شبهات، ونفترض أنها شبهات حقيقية جاءت ثمرات استشكال لبعض العقول، ثم نردّ عليها بمثل هذا البيان العلمي الذي رأيت.

ظاهرة التكرار في القرآن

يقول قائلهم :

لو حذفت المكررات التي في القرآن، من قصة وأنباء ما بعد الموت ونحوها، لعاد القرآن كتيباً صغيراً يحوي مسائل دينية في العقائد والأحكام والأخلاق. فهل هذا التكرار المملّ الذي فيه إلا دليل ناطق على أنه من عمل محمد «صلى الله عليه وسلم» لفتاً للأنظار، وتخويفاً من العواقب الموهومة والمختلقة؟!..

وأقول إن ظاهرة التكرار في القرآن تنقسم إلى قسمين :

أمّا أحدهما فتكرار بعض الألفاظ، وبعض الجمل.

وأمّا الثاني فتكرار بعض الموضوعات والمعاني، كالقصص وأحداث يوم القيامة .

فأما القسم الأول منه فيشمل كما قلنا تكرار بعض الألفاظ المفردة وبعض الجمل. فأما الألفاظ المفردة المكررة في القرآن، فهي ألفاظ غريبة الدلالة، كان الفضل إلى القرآن في صياغة أوزانها واعتماد مصطلحاتها وربطها بالمعاني المرادة منها. مثل كلمة «الحاقّة» «القارعة» وكلمة «سقر» وكلمة «الحُطَمَة» ومقتضى

القواعد البلاغية التي كان القرآن بإجماع العرب قاطبة المصدر الأول لاعتمادها وتدوينها، أن تتكرر هذه الألفاظ حيثما وردت، بطريقة تلفت النظر إليها، وتكشف عن المعنى المراد بها، وتبث في النفوس مدى أهميتها وخطورتها.

مثال ذلك قول الله تعالى ﴿ٱلْحَاقَّةُ ۝١ مَا ٱلْحَاقَّةُ ۝٢ وَمَآ أَدْرَىٰكَ مَا ٱلْحَاقَّةُ ۝٣﴾ [الحاقة: ٦٩/١-٣] ومثله قول الله تعالى ﴿ٱلْقَارِعَةُ ۝١ مَا ٱلْقَارِعَةُ ۝٢ وَمَآ أَدْرَىٰكَ مَا ٱلْقَارِعَةُ ۝٣ يَوْمَ يَكُونُ ٱلنَّاسُ كَٱلْفَرَاشِ ٱلْمَبْثُوثِ ۝٤﴾ [القارعة: ١٠١/١-٤] إن من الواضح لكل عربي أن الميزان البلاغي يستوجب تكرار هاتين الكلمتين الغريبتين عن أسماع العرب بهذه الطريقة المثيرة، لغرس معنى كل منها في الذهن إدراكاً، وفي النفس إخطاراً وتهويلاً. وقد ظهر من كلام الله تعالى أن المراد بهما يوم القيامة.

ومثله كلمة «سقر» في قوله تعالى ﴿سَأُصْلِيهِ سَقَرَ ۝٢٦ وَمَآ أَدْرَىٰكَ مَا سَقَرُ ۝٢٧ لَا تُبْقِي وَلَا تَذَرُ ۝٢٨ لَوَّاحَةٌ لِّلْبَشَرِ ۝٢٩﴾ [المدثر: ٧٤/٢٦-٢٩]. فقد كان الأصل أن يقال في الجملة الثانية : وما أدراك ما هي. ولكن لما كانت كلمة سقر هذه غريبة عن أسماع العرب، وكانت متضمنة لمعنى مخيف، اقتضى أسلوب التهويل الذي لا بدّ منه في هذا المقام، أن تعاد الكلمة بلفظها الظاهر لا بضميرها الغائب ترسيخاً لها في الأسماع وبعثاً لما لها من هول في النفوس وإنما يتيه عن سمّو البلاغة القرآنية في هذا التكرار الذي رأيت، المستشرقون الأعاجم الذين يتخذون من عجمتهم ومن ثم يتخذون من جهلهم بقواعد البلاغة العربية، دليل اتهام وانتقاص للقرآن. فإن

رأيت عربياً ينطق بالعربية الفصحى، ثم يذهب مذهب هؤلاء الأعاجم المستشرقين في اتهام القرآن وإلحاق النقيصة به، فاعلم أنه حكم على نفسه بأن يكون ذيلاً من ذيولهم، وأن يكون إمَّعةً من ورائهم.

ترى ماذا يقول هذا الأحمق العربي عن هذه الظاهرة ذاتها عندما يجدها منتشرة في كل من النثر والشعر العربي لمثل هذه النكت البلاغية ذاتها التي سما به إليها القرآن ؟ ماذا يقول عن تكرار مالك بن الريب لكلمة «الغضى» المعبرة عن وطنه ومسقط رأسه، في قصيدته التي يرثي بها نفسه، وقد كان بعيداً عن أهله ووطنه ؟

فليت الغضى لم يقطعِ الركبُ عرضه
وليت الغضى ماشى الركاب لياليا

لقد كان في أهل الغضى لودنا الغضى
مزار، ولكن الغضى ليس دانيا

لقد كرر الشاعر كلمة «الغضى» في هاذين البيتين خمس مرات. فهل زاد ذلك شعره إلا جمالاً، وهل عبر هذا التكرار إلا عن مزيد من الشجو الذي يعتلج في قلب الشاعر والحنين المستيئس إلى وطنه وأهله ؟.. ولكن المحجوب عن معين هذا الفن في القرآن، لابدّ أن يكون محجوباً عن سواقيه وفروعه التي تجلت فيما بعد في التراث العربي. غير أن المحجوب عن القرآن وبلاغته الساحرة، ما كان يوماً ما ليصبح بسبب ذلك حجة عليه، سواء

كان المحجوبون من صنف الأعاجم المستشرقين أو من ذيولهم العرب المستغربين.

وأما الجمل المكررة في القرآن، فشأنها شأن اللازمة التي تتكرر في القصائد وفي كثير من النثر العربي لتأكيد شأنها ودوران المعاني عليها. وهي الأخرى من الصور البلاغية التي تسمو بقيمة الكلام وتبعث على شدة التأثر به والانجذاب إليه.. ولهذا التكرار ضوابطه وشروطه.

من ذلك قوله تعالى ﴿وَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِّلْمُكَذِّبِينَ ﴿١٥﴾﴾ [المرسلات: ٧٧/ ١٥] إنها جملة تتكرر في سورة المرسلات بين كل مجموعة وأخرى من آياتها القصيرة. والحكمة البلاغية من هذا التكرار، أن السورة تعرض، من أولها إلى آخرها، دلائل سلطان الله وقدرته ودوران هذا الكون بحكمته وتدبيره، وهي دلائل بينة واضحة مقروءة للجاهل والعالم والأمي والقارئ.. فما أطول شقاء المتعامين عنها المكذبين بها.. ألا ترى أن منطق النعي لهؤلاء الجاحدين، أثناء توالي هذه الأدلة القاطعة عليهم وقرعها لأسماعهم، يستدعي توالي هذا النعي معها عليهم والتهديد لهم؟..

اسمع بأُذن رأسك وقلبك إلى هذا النموذج منها :

﴿أَلَمْ نَخْلُقكُّم مِّن مَّآءٍ مَّهِينٍ ﴿٢٠﴾ فَجَعَلْنَٰهُ فِى قَرَارٍ مَّكِينٍ ﴿٢١﴾ إِلَىٰ قَدَرٍ مَّعْلُومٍ ﴿٢٢﴾ فَقَدَرْنَا فَنِعْمَ ٱلْقَٰدِرُونَ ﴿٢٣﴾ وَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِّلْمُكَذِّبِينَ ﴿٢٤﴾ أَلَمْ نَجْعَلِ ٱلْأَرْضَ كِفَاتًا ﴿٢٥﴾ أَحْيَآءً وَأَمْوَٰتًا ﴿٢٦﴾ وَجَعَلْنَا فِيهَا رَوَٰسِىَ شَٰمِخَٰتٍ وَأَسْقَيْنَٰكُم

مَّآءً فُرَاتًا ﴿٢٧﴾ وَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِّلْمُكَذِّبِينَ ﴿٢٨﴾ ٱنطَلِقُوٓا۟ إِلَىٰ مَا كُنتُم بِهِۦ تُكَذِّبُونَ ﴿٢٩﴾ ٱنطَلِقُوٓا۟ إِلَىٰ ظِلٍّ ذِى ثَلَٰثِ شُعَبٍ ﴿٣٠﴾ لَّا ظَلِيلٍ وَلَا يُغْنِى مِنَ ٱللَّهَبِ ﴿٣١﴾ إِنَّهَا تَرْمِى بِشَرَرٍ كَٱلْقَصْرِ ﴿٣٢﴾ كَأَنَّهُۥ جِمَٰلَتٌ صُفْرٌ ﴿٣٣﴾ وَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِّلْمُكَذِّبِينَ ﴿٣٤﴾ هَٰذَا يَوْمُ لَا يَنطِقُونَ ﴿٣٥﴾ وَلَا يُؤْذَنُ لَهُمْ فَيَعْتَذِرُونَ ﴿٣٦﴾ وَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِّلْمُكَذِّبِينَ ﴿٣٧﴾» [المرسلات: ٧٧/ ٢٠-٣٧].

ألا ترى أن هذا التنويع في عرض الأدلة، يستوجب هذا التكرار في الإنذار والتهديد ؟.. ألا ترى أن هذه اللازمة المتكررة ترسم في خيالك صورة مأساة تنهمر بالدموع جزعاً لحال من فوتوا على أنفسهم آخر فرصة للتصديق والإيمان.

ومن ذلك قوله تعالى «فَبِأَىِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٢٣﴾» فهي الأُخرى تتكرر بين كل آية وأخرى في سورة الرحمن، والمناسبة الداعية إلى ذلك أن السورة تتحدث عن نعم الله المتنوعة الكثيرة التي تتوالى دون انقطاع على كل من خليقتي الإنس والجن. وأكثرهم تائهون عنها، بل مستكبرون عن الاعتراف بها.

فما الذي يقتضيه أسلوب العتاب والتبكيت في مثل هذه الحال؟

الذي يقتضيه ذلك، أن يتكرر هذا السؤال التقريعي عند التذكير بكل نعمة من النعم التي أسداها الله تعالى إلى هاتين الخليقتين، فيقول لهما على أعقاب حديثه عنها وتذكيره بها : «فَبِأَىِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٢٣﴾»؟ بأي نعمة من هذه النعم التي أذكركم بها تكذبان وتجحدان. إنها سلسلة من التقريع تتوالى حلقاتها بطريقتين : الأولى منهما التذكير بنعمه عز وجل التي

يرسلها إلى عباده متنوعة دائمة دون انقطاع، الثانية هذا السؤال المعاتب بل المؤنب الذي يلاحق بتكراره، وطريقته، لهو اللاهين ونسيان الذاهلين وجحود المستكبرين. وإليك هذا النموذج الذي يبرز أمامك واضحاً كل هذا الذي أقول :

﴿ وَٱلْأَرْضَ وَضَعَهَا لِلْأَنَامِ ﴿١٠﴾ فِيهَا فَٰكِهَةٌ وَٱلنَّخْلُ ذَاتُ ٱلْأَكْمَامِ ﴿١١﴾ وَٱلْحَبُّ ذُو ٱلْعَصْفِ وَٱلرَّيْحَانُ ﴿١٢﴾ فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿١٣﴾ خَلَقَ ٱلْإِنسَٰنَ مِن صَلْصَٰلٍ كَٱلْفَخَّارِ ﴿١٤﴾ وَخَلَقَ ٱلْجَآنَّ مِن مَّارِجٍ مِّن نَّارٍ ﴿١٥﴾ فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿١٦﴾ رَبُّ ٱلْمَشْرِقَيْنِ وَرَبُّ ٱلْمَغْرِبَيْنِ ﴿١٧﴾ فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿١٨﴾ مَرَجَ ٱلْبَحْرَيْنِ يَلْتَقِيَانِ ﴿١٩﴾ بَيْنَهُمَا بَرْزَخٌ لَّا يَبْغِيَانِ ﴿٢٠﴾ ﴾ [الرحمن: ٥٥/١٠-٢٠].

* * *

وأما القسم الثاني من هذه الظاهرة فهو ما يدخل تحت عنوان: ظاهرة تكرار بعض الموضوعات، كالقصص وأحداث يوم القيامة.

فلتعلم أن عناوين هذه الموضوعات هي التي قد توصف بالتكرار - أما مضموناتها فأبعد ما تكون عن معنى التكرار المألوف.

وبيان ذلك أنك تنظر فتجد قصة نوح مع قومه مثلاً قد تكررت ثلاث مرات، من حيث العنوان وأصل الحدث. فإذا قرأت ما تحت هذا العنوان في المرات الثلاث، وقارنت بينها رأيت نفسك في كل مرة منها أمام رؤى وأحداث وتأثيرات في الفكر والوجدان مختلفة وجديدة. وتفسير ذلك أن البيان الإلهي

يتناول في كل مرة زاوية من زوايا القصة، ويسلط الضوء البياني على جانب منها، ويكسوها أسلوباً مختلفاً من سحر بيانه الفريد.

اقرأ قصة نوح في سورة هود، وهي ما بين قوله تعالى ﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا إِلَىٰ قَوْمِهِۦٓ إِنِّي لَكُمْ نَذِيرٌ مُّبِينٌ ﴿٢٥﴾﴾ [هود: ١١/ ٢٥] وقوله ﴿تِلْكَ مِنْ أَنۢبَآءِ ٱلْغَيْبِ نُوحِيهَآ إِلَيْكَ﴾ [هود: ١١/ ٤٩] وهي في جملتها اثنتان وعشرون آية. ثم اقرأ القصة نفسها في سورة القمر من الآية ٩ إلى الآية ١٥. ثم اقرأها في سورة نوح، وهي من أول السورة إلى آخرها. ثم تأمل في النصوص الثلاثة، وقارن بينها، تجد أنك إنما تقرأ في كل مرة قصة جديدة يشوقك أمرها وتفجؤُك أحداثها، وينتابك في كل مرة منها شعور جديد يهيمن على فكرك ووجدانك. والقصة واحدة، ولكن البيان الإلهي يتناول في كل مرة جانباً منها، ويسبغ عليه من نسيجه البلاغي والتصويري مشهداً جديداً مختلفاً كل الاختلاف عن سابقيه.

هل قرأت هذه القصة الآن في أماكنها الثلاثة من القرآن ؟

إن لم تفعل، فبادر إلى ذلك الآن، تجد مصداق ما أقوله لك. واسأل الله أن يعافيك من العصبية والعناد والخضوع لسلطان الأسبقيات.

وما بينته لك عن ظاهرة التكرار لقصة نوح من قومه، هو نفسه ما ينبغي أن تعلمه من ظاهرة تكرار قصة موسى مع فرعون في كل من سورة الأعراف وسورة طه، وسورة القصص. اقرأ وقارن تجد مصداق ما أقوله لك.

والأمر ذاته يقال عن ظاهرة تكرار الحديث عن أحداث يوم القيامة في القرآن، إن العنوان متكرر فعلاً. أما المضمون والصور والمشاهد، فأبعد ما تكون عن التكرار. ولو اتسعت صفحات هذا الكتاب لوضعتك منه أمام نافذة أعرض أمامك من خلالها كل هذه المشاهد والصور لترى فن التصرف القرآني في عرض أحداث واحدة، مكسوة بألوان شتى من عوامل التأثير الوجداني، مستقل بعضها عن بعض وسبحان ربي القائل ﴿وَكَذَٰلِكَ أَنزَلْنَٰهُ قُرْءَانًا عَرَبِيًّا وَصَرَّفْنَا فِيهِ مِنَ ٱلْوَعِيدِ لَعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ أَوْ يُحْدِثُ لَهُمْ ذِكْرًا ﴿١١٣﴾﴾ [طه: ٢٠/١١٣].

دعوى وجود التناقض في القرآن (١)

يقول قائلهم :

يقول القرآن في سورة المزمل ﴿رَبُّ ٱلْمَشْرِقِ وَٱلْمَغْرِبِ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ فَٱتَّخِذْهُ وَكِيلًا ۝٩﴾ **ويقول في سورة الرحمن** ﴿رَبُّ ٱلْمَشْرِقَيْنِ وَرَبُّ ٱلْمَغْرِبَيْنِ ۝١٧﴾ **ويقول في سورة المعارج** ﴿فَلَآ أُقْسِمُ بِرَبِّ ٱلْمَشَٰرِقِ وَٱلْمَغَٰرِبِ إِنَّا لَقَٰدِرُونَ ۝٤٠﴾ **وهل يتجلى التناقض في أكثر من هذه الآيات المتناقضة، وضوحاً ؟ فلو أن القرآن كلام الله لكان مبرءاً من هذا التناقض الذي لا يخفى على أحد.**

وأقول: إن هذه التعابير الثلاثة عن مشرق الشمس ومغربها متكاملة في الوصف العلمي لكل منهما، وليس بينها أي تناقض أو تخالف.

غير أن القرآن تنزل خطاباً لجميع الناس بمن فيهم الأمي والعامي والجاهل، والإنسان المثقف، والعالم المتخصص. ولكي ينال كل فريق من هؤلاء ما يفيده ويتفق مع مستوى ثقافته وعلمه، من خطاب الله له عن مكوناته، كانت الحكمة الربانية قاضية بأن يكون في حديث القرآن لهم عنها، أي عن مكوناته، ما يتناسب مع فهم الجاهل الأمي، والمثقف من الناس،

وصاحب الاختصاص العلمي فيهم. وهذا هو شأن القرآن في خطابه للناس دائماً. وهو - على عكس ما يتوهمه الجاهلون أو المتجاهلون - من أجلى الأدلة الناطقة بإعجاز القرآن وبأنه كلام خالق هذه المكونات.

يقول الله تعالى ﴿رَّبُّ ٱلْمَشْرِقِ وَٱلْمَغْرِبِ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ فَٱتَّخِذْهُ وَكِيلًا ﴿٩﴾﴾ [المزمل: ٩/٧٣] هذا خطاب للناس جميعاً على اختلاف درجاتهم العلمية. لأن ما يصلح أن يكون خطاباً للعامي الجاهل يصلح أن يكون خطاباً لمن فوقه. وهو يتضمن المعلومة البسيطة المرئية للناس جميعاً، وهي أن للشمس مشرقاً تبزغ منه وأن لها مغرباً تغيب فيه.

ويقول عز وجل ﴿رَبُّ ٱلْمَشْرِقَيْنِ وَرَبُّ ٱلْمَغْرِبَيْنِ ﴿١٧﴾﴾ [الرحمن: ١٧/٥٥] وهذا خطاب مباشر لمن كان له من الثقافة زاد يبصّره، بموقع الشمس من الأرض والعكس.

فهؤلاء يعلمون معنى قول الله عز وجل، وهو أن الشمس كلما طلعت تكون مشرقاً لمن هي مقبلة إليهم ومغرباً لمن هي مدبرة عنهم. وكما ينطبق عليها هذا الوصف إذ تكون بازغة في المشرق ينطبق عليها الوصف ذاته إذ تكون مدبرة في المغرب. إذن فهما مشرقان ومغربان لها.

ويقول الله عز وجل ﴿فَلَآ أُقْسِمُ بِرَبِّ ٱلْمَشَٰرِقِ وَٱلْمَغَٰرِبِ إِنَّا لَقَٰدِرُونَ ﴿٤٠﴾﴾ [المعارج: ٤٠/٧٠] وهذا خطاب لمن أوتي مزيداً من العلم بقوانين الفلك وشكل الأرض. إنه يقول لهم : إن الشمس أينما

كانت تكون مشرقاً لمن هي مقبلة إليهم ومغرباً لمن هي مدبرة عنهم. ونظراً لدوران الأرض حول الشمس فإن إشراقها يتجدد للناس والبلدان التي تطلع عليها من جديد، وإن مغيبها يتجدد هو الآخر بالنسبة للناس الذين تفارقهم من جديد، فهي تظل في إشراق ومغيب، ومن ثم فإن بقاع الأرض تتقاسمها مشارق الأرض ومغاربها دون توقف. إذن فهي مشارق ومغارب كما قال الله عز وجل.

على أن الآية تتضمن في الوقت ذاته معنى آخر، وهو أن الأرض تزورُّ عن الشمس ما بين صيف وشتاء، بحيث تتدرج الشمس متنقلة في مطالع متعددة من الأرض كي يقصر نهار الشتاء، وتتدرج فيها عكسياً كي يطول نهار الصيف. إذن فهي مطالع، أي مشارق متعددة للشمس ما بين كل صيف وشتاء. وقد علمت أن هذه المطالع مشارق لمن كانت الشمس مقبلة إليهم ومغارب لمن كانت مدبرة عنهم. وكلا المعنيين متآلفان متكاملان ليس بينهما أيُّ تشاكسٍ أو اختلاف.

ولقائل أن يستشكل فيقول : فإذا كان القرآن خطاباً للناس جميعاً على اختلاف درجاتهم في العلم، فكيف يتأتى أن يكون الحديث الثاني والثالث عن المشرق والمغرب خطاباً للأميين والجاهلين من الناس، وهم جلّ من خاطبهم القرآن في عصر النبوة إن لم نقل إنهم كل الناس آنذاك؟.. كيف يصلح أن يكون ذلك خطاباً لهم، وهم لا يعلمون إلا أن للشمس مشرقاً هنا ومغرباً هناك ؟..

والجواب : أن ما وافق من خطاب الله تعالى علم المخاطَبين، كان خطابه لهم على وجه التصديق والتثبيت لما هو معلوم لديهم، وما كان منه فوق مستواهم العلمي، فإن خطابه بذلك لهم يأتي على وجه التعليم والتبصير. ولعلك تعلم أن علم الفلك كان كغيره معدوماً في الجزيرة العربية إبان البعثة النبوية. ثم إن العرب أصبحوا في مقدمة علماء المعمورة علماً بالفلك وما كان يسمى بعلم الهيئة، وإنما توصلوا إلى ذلك من نافذة القرآن. نبههم القرآن إلى ما كانوا يجهلونه من ذلك. فحفزتهم سليقتهم العربية المتبصرة بدقائق البيان وقواعد الدلالة مع ثقتهم بأن القرآن كلام الله لا يأتيه الباطل ولا يلحقه خلف، أقول : حفزهم هذان العاملان إلى استخراج مكنون كلام الله وتتبع دلالاته وعمق معانيه، فكان أمرهم معه كأمر التلميذ اللَّقِن مع أستاذه المعلم، فعلموا منه ما لم يكونوا يعلمون، وارتفعت بتأملهم فيه وتدبرهم له حجب ما بينهم وبين كثير من المكونات التي كانوا لا يعرفون منها إلا ما تبصره أعينهم به.

وإليك واحداً من عشرات الأمثلة التي إليها يعود فضل انتقال العرب في صدر الإسلام من أدنى درجات الجهل إلى أسمى درجات المعرفة آنذاك.

يصف الله في قرآنه الأرض بالامتداد، ويؤكد ذلك. فيقول : ﴿وَهُوَ ٱلَّذِى مَدَّ ٱلْأَرْضَ وَجَعَلَ فِيهَا رَوَٰسِىَ وَأَنْهَٰرًا﴾ [الرعد: ١٣/٣] ويقول: ﴿وَٱلْأَرْضَ مَدَدْنَٰهَا وَأَلْقَيْنَا فِيهَا رَوَٰسِىَ وَأَنۢبَتْنَا فِيهَا مِن كُلِّ

شَيْءٍ مَّوْزُونٍ ﴿١٩﴾﴾ [الحجر: ١٥/١٩]. ويقول ﴿وَٱلْأَرْضَ مَدَدْنَٰهَا وَأَلْقَيْنَا فِيهَا رَوَٰسِيَ وَأَنۢبَتْنَا فِيهَا مِن كُلِّ زَوْجٍۭ بَهِيجٍ ﴿٧﴾﴾ [ق: ٥٠/٧].

فقد تلقى العرب الموقنون بأن القرآن كلام الله، هذه الآيات بالتأمل والتدبر. وجال في خاطرهم التساؤل عن المعنى المراد بهذا الامتداد، أهو الامتداد الجزئي المعروف للشيء؟ إذن فالكلام لا يأتي بجديد غير معروف لأن كل ماله طول وعرض له امتداد، والشيء الوحيد الذي لا امتداد له هو الخط بمعناه العلمي والهندسي [1]. إذن فمما لا ريب فيه أن المراد بالامتداد الذي يصف القرآن به الأرض ويلفت النظر إليه، هو الامتداد الكلي. أي الامتداد الذي لا ينتهي بجرف، أياً كانت وجهتك من الأرض. فلو سرت إلى أقصى الغرب لا تصل من الأرض إلى حافّة لها، كذلك لو سرت إلى أقصى الشرق أو الشمال أو الجنوب. فما التفسير العلمي لذلك؟ التفسير العلمي الذي لا بديل عنه هو أن الأرض ذات انحناء مستمر لا نهاية ولا حدّ له، وذلك يعني أن الانحناء المستمر ينتهي بدائرة يتلاقى فيها الطرفان. فكان هذا التعبير القرآني تبصيراً وتعليماً للجاهلين بأن الأرض ليست قطعة كونية منبسطة ذات حوافّ.. وإنما هي مستديرة أقرب ما تكون إلى الشكل البيضوي.. وهذا ما قرره العرب في مدوناتهم منذ عصرهم الذهبي.

وهكذا، فإن القرآن خطاب للعلماء والجاهلين على السواء.

---

(١) الخط بمعناه العلمي نقاط متصلة، لا يتشكل منها أي عرض، فامتداده طولي فقط.

وخطابه للعلماء إقرار وتصديق لما يعرفونه، وخطابه للجهال تبصير بما ينبغي أن يعرفوه وأن يصححوا أوهامهم على أساسه.

فاعجب لمن يرى في القرآن هذا الذي يؤكد ما هو واضح لكل ذي فكر وعينين من أنه كلام رب العالمين نزل به الروح الأمين على قلب محمد صلى الله عليه وسلم، ويبرز لكل ذي عقل استحالة كونه كلام واحد من البشر أياً كان عمله ومهما سمت مرتبته، ثم يجعل من هذه المؤكدات ذاتها دليل اتهام وانتقاص له.

والمهم أنك قد علمت الآن، فيما أحسب أن لا تناقض بين قول الله تعالى: ﴿رَّبُّ ٱلْمَشْرِقِ وَٱلْمَغْرِبِ﴾ وقوله ﴿رَبُّ ٱلْمَشْرِقَيْنِ وَرَبُّ ٱلْمَغْرِبَيْنِ ﴿١٧﴾﴾ وقوله ﴿فَلَآ أُقْسِمُ بِرَبِّ ٱلْمَشَٰرِقِ وَٱلْمَغَٰرِبِ﴾ بل بينهما أدق معاني التكامل والانسجام. لأن الحقيقة العلمية تقرر كلاً من البيان الأول والثاني والثالث، موزعاً بين مختلف الحالات والاعتبارات.

فكيف يتأتى إذن أن يكون هذا كلامَ عبدٍ مخلوق؟!..

دعوى وجود التناقض في القرآن (٢)

يقول قائلهم :

القرآن يتحدث كثيراً عن وحدانية الله وأنه متفرد في ذاته وصفاته، وأنه لا يشبهه أحد، ولا يشترك معه أحد في صفات ربوبيته ومنها البقاء والخلود. ولكنه يقرر صفة الديمومة (الخلود) للناس أيضاً يوم القيامة بمن فيهم الكافرون والمؤمنون فهل هذا إلا تناقض صارخ يقرؤه الناس جميعاً في القرآن. ثم إن القرآن في الوقت الذي يكرر ويؤكد أبدية الناس يوم القيامة إنْ في الجنة وإنْ في النار تأكيداً مطلقاً. يعود فيقيدها بالمدة التي يشاؤها الله. وذلك في قوله : ﴿فَأَمَّا ٱلَّذِينَ شَقُوا۟ فَفِى ٱلنَّارِ لَهُمْ فِيهَا زَفِيرٌ وَشَهِيقٌ ﴿١٠٦﴾ خَٰلِدِينَ فِيهَا مَا دَامَتِ ٱلسَّمَٰوَٰتُ وَٱلْأَرْضُ إِلَّا مَا شَآءَ رَبُّكَ ۚ إِنَّ رَبَّكَ فَعَّالٌ لِّمَا يُرِيدُ ﴿١٠٧﴾﴾ إلى آخر الآية ١٠٨ من سورة هود. وهكذا فقد تجلى في القرآن إلى جانب التناقض الاضطراب !..

وأقول: ليس في القرآن تناقض ولا اضطراب، ولكن الاضطراب وسوء الفهم إذا سريا إلى العقل، ألقى كل منهما بظلاله على ما هو مقبل عليه مما يريد درايته وفهمه فرأى الخلل

والاضطراب فيه. ورحم الله القائل :

وكم من عائب قولاً صحيحاً
وآفته من الفهم السقيم

صدق الله القائل : ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِۦ شَىْءٌ﴾ [الشورى: ٤٢/ ١١]. والقائل : ﴿وَلَمْ يَكُن لَّهُۥ كُفُوًا أَحَدٌۢ ﴿٤﴾﴾ [الإخلاص: ١١٢/ ٤]. والقائل ﴿هُوَ ٱلْأَوَّلُ وَٱلْءَاخِرُ وَٱلظَّٰهِرُ وَٱلْبَاطِنُ﴾ [الحديد: ٥٧/ ٣] أي هو جل جلاله لا غيره.

وصدق ربنا القائل : ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ كَانَتْ لَهُمْ جَنَّٰتُ ٱلْفِرْدَوْسِ نُزُلًا ﴿١٠٧﴾ خَٰلِدِينَ فِيهَا لَا يَبْغُونَ عَنْهَا حِوَلًا ﴿١٠٨﴾﴾ [الكهف: ١٨/ ١٠٧-١٠٨].

ولقد تأملنا وتدبرنا، فرأينا بين هذا الكلام الرباني والذي قبله غاية الانسجام والتوافق.

الله عز وجل واحد في ذاته وفي صفاته، لا يشركه معه فيها أحد. فهو وحده الأول الذي لا بداية لوجوده، وهو وحده الآخر الذي لا انقضاء لوجوده، فهو باق لا يزول. وجوده وديمومته من ذاته، وليس فيضاً من غيره.

وقد شاء الله عز وجل أن يخلّد الناس، لدى النشأة الثانية أي يوم القيامة، فيبقيهم إبقاءً أبدياً إلى غير موت أو زوال، سواء كانوا ممن شملتهم رحمته أو حق عليهم عقابه. وإنما المبقي لهم هو الله، أي هو الذي يمدّهم بالبقاء لحظة فلحظة، بحيث لو تخلّى عنهم لزالوا ولأصبحوا أثراً بعد عين.. إذن فبقاء الله من ذاته

وبمقتضى ألوهيته، وبقاء عباده، إن جزئياً في دار الدنيا أو كلياً أبدياً يوم القيامة، بإبقاء الله لهم. فأين هو التناقض بين القرارين أو الخبرين ؟ وأين هي الشركة التي تتعارض مع ما هو مقرر وثابت من وحدانية الله؟!..

وأقول لأصحاب **العقول المنكسة والعيون الحولاء** : عندما يمسك الوالد طفله الذي لم يتجاوز عامه الأول من عضديه فيوقفه على قدميه الصغيرتين الضعيفتين، أفيكون الطفل قد غدا بذلك شريكاً مع والده في التمتع بالوقوف والقدرة عليه؟!.. إذن لماذا يتهاوى الطفل ساقطاً على الأرض بمجرد أن يتركه أبوه؟!..

تلك هي قصة بقاء الله في ذاته، وإبقائه لعباده. أولهما بحكم ربوبيته وألوهيته وثانيهما بحكم قدرته وبمقتضى مدّه إياهم بكل ما يشاء، وخلال المدة التي يشاء.

وأقول لأصحاب **العقول المنكسة** : إن ما تخيلتموه من كلام الله اضطراباً، ليس إلا بياناً لهذه الحقيقة وإزالة لهذه الشبهة التي سرت إلى **أفكاركم المنكسة السقيمة**.

فلكي لا يذهب بكم الوهم إلى أن الناس يصبحون يوم القيامة شركاء مع الله في صفة الديمومة الخالدة، **نبهّكم** إلى أن خلودهم آنذاك بمشيئة الله وحكمه، فلو لم يشأ لهم ذلك لما أمدّهم بسرّ البقاء، وإذا انقطع عنهم الإمداد تحولوا إلى فناء وعدم. فهذا هو معنى قوله : ﴿فَأَمَّا ٱلَّذِينَ شَقُواْ فَفِى ٱلنَّارِ لَهُمْ فِيهَا زَفِيرٌ وَشَهِيقٌ ﴿١٠٦﴾ خَـٰلِدِينَ فِيهَا مَا دَامَتِ ٱلسَّمَـٰوَٰتُ وَٱلْأَرْضُ إِلَّا مَا شَآءَ رَبُّكَ ۚ إِنَّ رَبَّكَ

فَعَّالٌ لِّمَا يُرِيدُ ﴿١٠٧﴾﴾ ثم بين حال الذين سعدوا فقرر في حقهم مثل ذلك. أي إن خلود هؤلاء وأولئك ليس خلوداً ذاتياً نابعاً من إمكاناتهم وقدراتهم الداخلية، وإنما هو ثمرة لمشيئة الله ذلك. فلو زالت هذه المشيئة وشاء الله خلاف ذلك لتحول البقاء في الوقت ذاته إلى زوال. ولكن قضى الله في سابق إرادته وعلمه أن يمدّهم بالديمومة التي لا انقضاء لها بمشيئته وحكمه.

* * *

والذي تغيب عن ذهنه هذه الحقيقة الواضحة، ينبغي أن لا يستشكل صفة خلود الناس يوم القيامة، فقط. بل ينبغي أن يستشكل أيضاً مجرد اشتراك الناس، بل سائر الأحياء، مع الله تعالى في أصل الوجود والبقاء، ولو إلى أيام أو دقائق معدودات.. إذ إن من صفات الله الوجود. فها نحن أيضاً نتمتع مثله بالوجود. إذن فنحن شركاء معه في أجلّ صفة من صفاته. وهذا يناقض ما يقرره القرآن من وحدانية الله وعدم وجود شبيه له.

ولكنك قد علمت الآن أن هذا وهم يتسامى عنه عقل العقلاء، وتفكير المفكرين. وجود الله وجود ذاتي ثابت له بمقتضى ألوهيته، ومن ثم فلا ينبثق من عدم، ولا ينتهي إلى زوال، ولا يحتاج إلى من يمدّه به. ووجود ما عدا الله بإيجاده له، وبمدّ الله له بالوجود لحظة فلحظة، بحيث لو تخلى الله عنه لعاد وهماً وهباء. وهذا معنى قول الله عز وجل ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يُمۡسِكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضَ أَن تَزُولَاۚ﴾ [فاطر: ٣٥/٤١] وهذا معنى قيومية الله للكون وهي التي نقرؤها في قوله ﴿ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ٱلۡحَيُّ

ٱلۡقَيُّومُۚ﴾ [البقرة: ٢/ ٢٥٥] فكيف تثبت الشركة بين الحقيقة والوهم، بين الذات وظلّه؟!..

وبكلمة جامعة مختصرة نقول : إن وجودنا ووجود كل شيء، إنما هو بالله وليس مع الله. كذلك الصفات، كصفة القدرة والعلم والخلود يوم القيامة، كل ذلك بالله وليس مع الله... إن المعية هي التي تنبئ عن الشركة، أما باء الاستعانة فتنبئ عن عجز المخلوق وقدرة الخالق - تعالى الله عما يتوهمه الجاهلون ويصّر عليه المستكبرون علواً كبيراً.

دعوى وجود التناقض في القرآن (٣)

يقول قائلهم :

وأجلى من ذلك النوع من التناقض وأعجب، ما يقرره القرآن من أن الإنسان خلق من التراب. ثم يغير قراره فيؤكد بأنه خلق من طين لازب، ثم يلغي قراره الثاني أيضاً ويجزم بأنه إنما خلق من صلصال. ويسير القرآن موغلاً في هذا التناقض الصارخ عندما يقول : ﴿وَٱصْبِرْ وَمَا صَبْرُكَ إِلَّا بِٱللَّهِ﴾ [النحل: ١٦/١٢٧] **وعندما يقول :** ﴿إِنَّ هَٰذِهِۦ تَذْكِرَةٌ فَمَن شَآءَ ٱتَّخَذَ إِلَىٰ رَبِّهِۦ سَبِيلًا ﴿٢٩﴾﴾ [الإنسان: ٧٦/٢٩] **وما هو إلا أن يلغي منحة المشيئة هذه للإنسان ويستردها منه قائلاً :** ﴿وَمَا تَشَآءُونَ إِلَّآ أَن يَشَآءَ ٱللَّهُ﴾ [الإنسان: ٧٦/ ٣٠] **فكيف يضع المرء عقله ميزاناً بينه وبين القرآن ثم يقنع عقله بهذه التناقضات؟!..**

وأقول إذن، فمن يقول لك : إن داري هذه مبنية من تراب، من طين، من آجرّ، متناقض مع نفسه، يُرثى لحاله، لا يستطيع العقل أن يتعامل معه.. !

غير أن عقل العقلاء جميعاً، وعلم العلماء جميعاً، يدرك أن هذا كلام متساوق متكامل، يأخذ بعضه بحجز بعض. فالجنس

البعيد للدار هو التراب، ثم النوع المتفرع عنه على طريق التدرج في البناء هو الطين، والنوع المتفرع من الطين هو الآجر. وهو كقولك هذا الثوب من صوف من قماش من جوخ، من «هِلْد».

فأين هو التناقض في هذا الكلام الذي يطرب العقل لتوازنه وتناسقه ؟..

يشاء الله تعالى أن يعلمك بأن الجنس الأول البعيد، أو الذي يسميه المناطقة بالعالي، لنشأة الإنسان إنما هو التراب، ثم أدخل في هذا العنصر الماء فأصبح طيناً، ثم إنه ترك حتى أصبح يابساً كالفخار. فما هو التعبير البليغ السليم المتساوق الذي يعجبك من دون هذه الصياغة القرآنية للتعبير عن ذلك؟.. وأين هو التناقض - يا أيها الجاهل المتعالم - بين الجنس وأنواعه؟

وما أظن أن العاقل - فضلاً عن العالِم - بحاجة إلى مزيد من البيان للرد على هذه الشبهة الأولى، التي لا يمكن أن تنطلي على فكر أي عاقل.

* * *

أما قول الله تعالى ﴿وَٱصْبِرْ وَمَا صَبْرُكَ إِلَّا بِٱللَّهِۚ وَلَا تَحْزَنْ عَلَيْهِمْ وَلَا تَكُ فِي ضَيْقٍ مِّمَّا يَمْكُرُونَ ﴿١٢٧﴾﴾ [النحل: ١٦/١٢٧] فإنما يدرك وجه التناسق فيها بين الجملتين من أدرك عبودية الإنسان ومملوكيته لله تعالى، وأنه لا يتأتى منه حول ولا قوة إلّا به عز وجل.. أجل إنما يدرك وجه التناسق فيها من عاش

يخاطب الله قائلاً: ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ ۝﴾ [الفاتحة: ٥/١] مدركاً ذل عبودية العبد لله، وشدة احتياجه في كل حال وفي كل أمر إلى معونة الله.

أما من عاش مستكبراً على الله وسلطانه، جاحداً بعبوديته ومملوكيته لله تعالى، فهيهات أن يعلم وجه التناسق بين أمر الله عباده بالصبر، وتذكيره لهم بأنهم لا يملكون قدرة على أي شيء إلا بعون من قوة الله وحوله.

ألا فليعلم كل جاحد، وكل معاند مستكبر، أن الإنسان لا يتأتى منه أي شيء، لا الصبر ولا غيره من سائر التكاليف الإلهية إلا بتوفيق وعون من الله تعالى. فالإنسان لا يتحرك إذ يتحرك إلا بحول الله وقوته، ولا يتجنب ما ينبغي عليه أن يتجنبه إلا بمعونة الله وحمايته.. ومن ثم فإن الأوامر الصادرة من الله إليه، ليست متعلقة في الحقيقة بالأفعال المكلف بها، وإنما هي متعلقة بواجب آخر يشملها جميعاً هو طلب العون من الله، وذلك بإعلانه العجز والافتقار إلى عون الله وقوته، وتلك هي ترجمة الكلمة القدسية التي يجب أن تكون ملء عقل الإنسان ويقينه : (لا حول ولا قوة إلا بالله)

إن المطلوب من الإنسان في حياته التي يعيشها فوق هذه الأرض، أن يعلن بلسانه وحاله عن عبوديته التامة لله، ولن يتأتى له أن يترجم إعلانه هذا إلا بيقينه الذي يعلنه لسانه بأنه كتلة عجز وفقر تحت سلطان الله عز وجل، لا وجود له ولا حراك ولا فعل له ولا ترك، إلا بحول الله وقوته، ومن ثم يسوقه

هذا اليقين إلى الوقوف الدائم بانكسار على باب الله وأعتابه، يستجديه كل ما هو مفتقر إليه من أمور دينه ودنياه، فتلك هي العبودية التي يجب على الإنسان أن يصطبغ بها، وتلك هي الغاية التي بها يستجيب العبد لأمر الله تعالى ﴿فَفِرُّوٓاْ إِلَى ٱللَّهِۖ إِنِّي لَكُم مِّنۡهُ نَذِيرٞ مُّبِينٞ ۝٥٠﴾ [الذاريات: ٥١/ ٥٠].

ويجتمع كل هذا الذي قلته لك في قول العبد لربه إذ يقف بين يديه في الصلاة: ﴿إِيَّاكَ نَعۡبُدُ وَإِيَّاكَ نَسۡتَعِينُ ۝٥﴾ وهي اللغة التي علمنا الله أن نناجيه بها كلما وقفنا بين يديه في الصلاة.

فعندما يخاطبنا الله تعالى بقوله: ﴿وَٱصۡبِرۡ﴾ ثم يقول ﴿وَمَا صَبۡرُكَ إِلَّا بِٱللَّهِۚ﴾ فإنما يضعنا من الأمر الأول أمام عجزنا، ثم يضعنا من التقرير الذي بعده أمام المرقاة التي نعلو بها فوق عجزنا الذي قضى الله علينا به. فهو يقول لك من خلال الأمر ثم التقرير: لا تعتمد على نفسك فيما أطلبه، فإنك إن فعلت ذلك ذهبت ضحية عجزك. ولكن تجرد عن أوهام حولك وقوتك، واستعن بي. فإنك إن فعلت ذلك جعلت منك مظهراً لقوتي، وأفرغت فيك كل ما تحتاج إليه من الحماية والرعاية والتوفيق.

★ ★ ★

ولعلك الآن إن فهمت هذا الذي لا يمكن أن يغيب عن ذهن معاند مستكبر، تعلم أن الجواب عن وهم التناقض في آية المشيئة الإنسانية، هو ذاته الجواب الذي أدركته الآن عن شبهة التناقض في آية الصبر.

يقول الله تعالى، بعد أن نبه إلى منهاج رحلة الإنسان إلى ربه في هذه الحياة الدنيا، ومآل كل من الموقنين الصالحين، والتائهين المفسدين : ﴿إِنَّ هَٰذِهِۦ تَذْكِرَةٌ فَمَن شَآءَ ٱتَّخَذَ إِلَىٰ رَبِّهِۦ سَبِيلًا ﴿٢٩﴾﴾ فقد وضح السبيل وتبين الحق من الباطل والطريق الموصل إلى السعادة والنعيم والمؤدي إلى الشقاء والجحيم، فلكل أن يتجه إلى السبيل الذي يشاؤه لنفسه. ثم إن الله جلت رحمته يذكر عباده بأعظم نعمة بعد الإيمان، منحهم إياها، وهي نعمة الاختيار والقدرة على اتخاذ القرار وحرية التوجه إلى ما يشاؤون. وهي التي سلبها الله سائر الحيوانات الأخرى إذ أبدلهم عنها بالغريزة التي تسوقهم سوقاً إلى أحكامها ونظامها دون أي تدخل من المشيئة أو الاختيار. ولو شاء الله لسلب مزية المشيئة هذه عن الإنسان، وساقهم بدلاً عنها بزمام الغريزة كسائر الحيوانات العجماوات..

فيمتن الله عز وجل على الإنسان بهذه النعمة التي خصه بها قائلاً : ﴿وَمَا تَشَآءُونَ إِلَّآ أَن يَشَآءَ ٱللَّهُ﴾ أي ما كنتم لتنعموا بمزية المشيئة التي توفر لكم حرية الاختيار والقدرة على اتخاذ القرار، لو لم أشأ أن أمتعكم بها. فكلمة ﴿تَشَآءُونَ﴾ في الآية ليست تعبيراً عن مشيئة شيء جزئي يتجه إليه الإنسان، ولكنها تعبير عن ملكة المشيئة التي منحها الله للإنسان. والمعنى : ما كنتم لتنعموا بملكة المشيئة، أي حرية الاختيار، لو لم أشأ أن أمنحكم هذه الملكة وأن أمتعكم بها.

فأين هو التناقض ؟.. أين هو التناقض بين آية تذكّر الإنسان

بنعمة المشيئة التي يتمتع بها والتي تُقْدِره على أن يسلك السبيل الذي يختار، وآيةٍ تنبهه إلى أن الفضل في تمتعه بنعمة هذه المشيئة، أي هذه الملكة إنما يعود إلى الله. إذ لو شاء لما متعه بها، ولسار ذليلاً في شؤونه كلها تحت سلطان الغريزة، كبقية الحيوانات ؟ تعالى الله عما يقوله الجاحدون علواً كبيراً، وننزه كلامه القديم عن كل لغو ونقص.

دعوى معارضة القرآن لعدالة الله (١)

يقول قائلهم :

يقرر القرآن أن الجاحدين الذين ماتوا على كفرهم، يخلّدون في العذاب، من ذلك قوله ﴿قِيلَ ٱدْخُلُوٓا۟ أَبْوَٰبَ جَهَنَّمَ خَٰلِدِينَ فِيهَا ۖ فَبِئْسَ مَثْوَى ٱلْمُتَكَبِّرِينَ ﴿٧٢﴾﴾ [الزمر: ٣٩/ ٧٢] وقوله ﴿وَٱلَّذِينَ كَذَّبُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَا وَٱسْتَكْبَرُوا۟ عَنْهَآ أُو۟لَٰٓئِكَ أَصْحَٰبُ ٱلنَّارِ ۖ هُمْ فِيهَا خَٰلِدُونَ ﴿٣٦﴾﴾ [الأعراف: ٧/ ٣٦]. فأين هي العدالة في معاقبة كافر عاش خمسين عاماً، أبد الآبدين دون انتهاء ولا انقضاء ؟

وأقول: إن هذه الشبهة لا يجوز أن تثار بالنسبة لتخليد الله الجاحدين في النار فقط. بل يجب إن أثيرت أن ينظر إليها بالنسبة لتخليد الله المؤمنين في الجنة أيضاً. فالمشكلة في الحالتين واحدة إن كانت ثمة مشكلة .

إن الأجر أو الجزاء الذي يدّخره الله لعباده، ثواباً أو عقاباً، إنما هو ثمرة قصودهم ونياتهم أولاً، ثم سلوكاتهم وأعمالهم ثانياً.. الأعمال الظاهرة تتلون بلون المقاصد والنيات الخفية وليس العكس. كم من إنسان ينشط في القيام بالأعمال الصالحة التي

أمر الله بها ووعد المثوبة عليها، ثم لا يكون له أي مثوبة عليها يوم القيامة، لأن القصد الذي دفعه إليها لم يكن مبروراً عند الله، كان مرائياً مثلاً أو كان يبتغي بعمله مغانم دنيوية، وفي حق أمثاله يقول الله تعالى: ﴿وَقَدِمْنَآ إِلَىٰ مَا عَمِلُوا۟ مِنْ عَمَلٍ فَجَعَلْنَـٰهُ هَبَآءً مَّنثُورًا ﴿٢٣﴾﴾ [الفرقان: ٢٣/٢٥] أي يعطى أجره الذي طلب، وليس له في الآخرة من نصيب.

فمن أقبل إلى الله عز وجل مؤمناً به مستقيماً على أوامره مجتنباً نواهيه، بصدق وإخلاص فلا ريب أنه عازم على أن يثبت على نهجه ذاك حياته كلها، طالت أو قصرت.

ولو قيل له: إنه سيعيش حياة طويلة تحسب بالقرون أو حياة دائمة لا انقضاء لها، لكان أكثر سعادة بالإيمان الذي يعتنقه والهدي الذي يسير عليه. ولا ريب أن الله مطلع على هذا الذي وقر في قلبه واستقر عزمه عليه. فكان جزاؤه يوم القيامة أن تكون مدة بقائه في جنة الله ونعيمه، متفقة مع المدة التي عزم على أن يستمر فيها مؤمناً بالله ملتزماً بهديه، وهي مدة مفتوحة لا ينتهي أمد قراره الإيماني فيها عند حدّ ولا أجل، على أنه لا يعلم الأجل المخبوء له عند الله عز وجل. فكان جزاؤه على ذلك الخلود الذي لا انقضاء له في أفانين النعيم. والمنطق المتَّبع في هذا جلّي وواضح.

كذلك القول في حق من أعرض عن الله مستكبراً عليه مستهيناً بشرائعه وأحكامه، يتحدى خطابه الناصح والمتوعد، إنه وقد اقتنع بالسير على هذا النهج وأصم أذنيه عن تذكرة المذكرين، قد

اتخذ قراره بأن لا يرجع عما اختاره لنفسه من سبيل الجحود والاستكبار على الحق، مدّة بقائه حياً على وجه الأرض. وهي تساوي الخلود في عزمه وتقديره.

وينبغي أن ألفت نظرك إلى ما يؤكده بيان الله تعالى من أن هذا العقاب الخالد إنما هو للمستكبرين على الله، أولئك الذين صدق عليهم قوله : ﴿وَجَحَدُواْ بِهَا وَٱسْتَيْقَنَتْهَآ أَنفُسُهُمْ ظُلْمًا وَعُلُوًّا﴾ [النمل: ٢٧/ ١٤]. فلا جرم أن الجاهلين بالحق المحجوبين عن رسالات الله وخطابه المُعْلِم والآمر الناهي غير داخلين في هذا الوعيد ألم تنتبه إلى المفهوم المنبثق من قوله تعالى ﴿وَٱلَّذِينَ كَذَّبُواْ بِـَٔايَٰتِنَا وَٱسْتَكْبَرُواْ عَنْهَآ أُوْلَٰٓئِكَ أَصْحَٰبُ ٱلنَّارِ هُمْ فِيهَا خَٰلِدُونَ ﴿٣٦﴾﴾ [الأعراف: ٧/ ٣٦].

فإذا اتضح لك أن مناط الأجر والجزاء إنما هو القصود المستكنّة في القلب، لا التصرفات البادية على الجوارح وحدها، وإذا تبيّن لك أن الجاحدين والمستكبرين على الله قد عاهدوا أنفسهم على الديمومة المتحدية لسائر النذر والنصائح، على كفرانهم وجحودهم هذا. (ومن المعلوم أن قرار الديمومة في حسابهم وتقديرهم يُساوي الأبدية والخلود. إذ هو قرار مفتوح لا أمد ولا حدود له عندهم.) أقول : إذا تبين واتضح لك كل هذا، فإن قرار تخليد الله لهم في عقابه هو العدل المطلق، كما أن قرار تخليد الله لعباده الذين سخروا حياتهم كلهم مهما طالت للإيمان به والاستجابة لأمره، في جنان خلده، هو العدل المطلق أيضاً.

ويغني عن كل هذا الذي أوضحته كلام الله المتضمن إجابة شافية جامعة مانعة عن هذه الشبهة وذيولها. يقول الله عز وجل :

﴿وَلَوْ تَرَىٰٓ إِذْ وُقِفُواْ عَلَى ٱلنَّارِ فَقَالُواْ يَٰلَيْتَنَا نُرَدُّ وَلَا نُكَذِّبَ بِـَٔايَٰتِ رَبِّنَا وَنَكُونَ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿٢٧﴾ بَلْ بَدَا لَهُم مَّا كَانُواْ يُخْفُونَ مِن قَبْلُ وَلَوْ رُدُّواْ لَعَادُواْ لِمَا نُهُواْ عَنْهُ وَإِنَّهُمْ لَكَٰذِبُونَ ﴿٢٨﴾﴾ [الأنعام: ٦/ ٢٧-٢٨].

إذن فعقاب تخليد الله لهم في العذاب، يقابل قرارهم بتخليد عتوهم واستكبارهم على الحق مهما عاشوا.

★ ★ ★

ربما وجد من يقول : ولكن محمداً صلى الله عليه وسلم يقول ما يدلّ على خلاف هذا الذي ذكرت. ورد في الصحيح أنه قال: «من همَّ بحسنة فلم يعملها كتبت له حسنة، ومن همَّ بحسنة فعملها كتبت له عشراً إلى سبعمائة. ومن همَّ بسيئة فلم يعملها لم تكتب له، ومن همَّ بسيئة فعملها كتبت له واحدة» [١] فلو كانت العبرة بالقصود، لما استأهل الذي قصد إلى فعل الحسنة ثم لم يعملها، أجر الحسنة التي هم بها ثم أعرض عنها، ولاستحق الذي هم بالسيئة عقابها سواء عملها أو لم يعملها لأن الهم بها حصل.

والجواب : أن الحديث مصداق دقيق لهذا الذي سبق بيانه

(١) الحديث متفق عليه من رواية أبي هريرة وابن عباس بألفاظ متقاربة. وهذا اللفظ لمسلم.

وليس معارضاً له.. ذلك لأن المراد بمن هم بحسنة ثم لم يفعلها، ذاك الذي عاقته الظروف والمعوقات عن تنفيذ ما هم به. فهمّه مستمر ولذا يستحق على همه الأجر الذي ذكره رسول الله. وليس المراد به من عزم على فعل طاعة ثم استدرك وألغى عزمه إذ تغلبت عليه نفسه. ولأن المراد بمن هم بالسيئة ذاك الذي أدركته مخافة الله فلم يقترفها. وليس المراد به من سعى إليها ولكن حيل بينه وبينها لأسباب خارجة عن قصده.. إذن فالقصد في هذا الحديث محكّم، بل هو المحور والمدار. ولذلك ثبت أن من رأى محتاجاً إلى مبلغ من المال لا يوجد في حوزته. فتمنى لو كان لديه هذا المبلغ، إذن لقدّمه إلى هذا المحتاج، فإن الله يدخر له أجر ما قدم عزم عليه، وإن هو لم يتمكن من تنفيذ ذلك. والشأن فيمن عزم على ارتكاب معصية ولكن حال عجزه المادي أو الجسمي عن ذلك، أن يدّخر الله عقاب ذلك في حقه يوم القيامة، إلا أن يصفح عنه ويغفر له، وباب الصفح والمغفرة مفتوح لكل من مات وقلبه عامر بالإيمان بالله عز وجل، لا يخفيه عن لسانه استكباراً وعناداً.

وأصرح من هذا في بيان هذه الحقيقة قول رسول الله صلى الله عليه وسلم: «إذا التقى المسلمان بسيفيهما فالقاتل والمقتول في النار» ولما قيل له: هذا القاتل، فما بال المقتول؟ قال: «إنه كان حريصاً على قتل صاحبه» [1] إذن فإن القصد وحده حمَّل صاحبه عقاب ما قد قصد إليه..

---

(١) متفق عليه من حديث أبي بكرة وأبي موسى الأشعري.

وأذكر أنني رأيت إنساناً ملحداً في لقاء عابر، وكنت أعرفه من قبل، فقلت لبعض الحاضرين أمامه، على سبيل المجاملة وتغليب حسن الظن : إنني واثق بأن الله سيهدي أخانا هذا وسيعود إلى الحق الذي تعتنقه اليوم فطرته. فرفض تفاؤلي هذا وردّه عليَّ مقرراً صموده وبقاءه على معتقده دون تردد أو رجوع.

أليس هذا الموقف من هذا الإنسان برهاناً ناطقاً على عظيم حكمة الله وعدله؟!..

دعوى معارضة القرآن لعدالة الله (٢)

يقول قائلهم :

إن القرآن يقول ﴿مَن يَشَإِ ٱللَّهُ يُضْلِلْهُ وَمَن يَشَأْ يَجْعَلْهُ عَلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ﴾ [الأنعام: ٦/ ٣٩] **ويقول :** ﴿كَذَٰلِكَ يُضِلُّ ٱللَّهُ مَن يَشَآءُ وَيَهْدِى مَن يَشَآءُ﴾ [المدثر: ٧٤/ ٣١] **فما ذنب الذين حكم الله بإضلالهم، وما الحرية التي بقيت لهم بعد حكم الله عليهم بما يشاء؟!.. وما فضيلة الذين حكم الله بهدايتهم فسيقوا إليها سوقاً؟!.. وأين هي عدالة الله تعالى بين هذين القضاءين.**

وأقول: أمّا أنّ الله يضل الإنسان إذا شاء ويهديه إذا شاء، وأنه إذا قضى عليه بأي منهما فلا مَعْدِل عنه، فتلك حقيقة نجزم بها، وهي من أولى مستلزمات ربوبية الله وعبودية الإنسان له.

وأما الذهاب إلى أن هذا يعني أن الله يضل من يشاء إضلاله عشوائياً، ويهدي من يشاء هدايته عشوائيّة، أي بدون أن يتعرض الأول لموجبات الإضلال، وبدون أن يتعرض الثاني لموجبات الهداية، فذلك حكم فضولي صادر من افتراض هذا المنتقد ووهمه، وليس بين كلام الله الذي استشهد به وحكمه الفضولي هذا أي علاقة أو لزوم.

إن مولانا جل جلاله إذ أكد أنّه يضل من يشاء إضلاله من عباده ويهدي من يشاء هدايته منهم، قال: ﴿وَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيُضِلَّ قَوْمًۢا بَعْدَ إِذْ هَدَىٰهُمْ حَتَّىٰ يُبَيِّنَ لَهُم مَّا يَتَّقُونَ﴾ [التوبة: ٩/ ١١٥] وقال: ﴿وَمَا يُضِلُّ بِهِۦٓ إِلَّا ٱلْفَٰسِقِينَ﴾ [البقرة: ٢/ ٢٦] وقال: ﴿وَٱلَّذِينَ ٱهْتَدَوْا۟ زَادَهُمْ هُدًى وَءَاتَىٰهُمْ تَقْوَىٰهُمْ ﴿١٧﴾﴾ [محمد: ٤٧/ ١٧] وقال: ﴿وَإِنَّ ٱللَّهَ لَهَادِ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ﴾ [الحج: ٢٢/ ٥٤] وقال عن الإسلام الذي ابتعث به الأنبياء جميعاً: ﴿فِطْرَتَ ٱللَّهِ ٱلَّتِى فَطَرَ ٱلنَّاسَ عَلَيْهَا ۚ لَا تَبْدِيلَ لِخَلْقِ ٱللَّهِ ۚ ذَٰلِكَ ٱلدِّينُ ٱلْقَيِّمُ﴾ [الروم: ٣٠/ ٣٠].

فأنت ترى مما تنطق به هذه الآيات مجتمعة أن الله قد فطر سائر الناس على فطرة الإيمان به والخضوع لسلطانه، والمراد بالفطرة توجه الطبيعة الإنسانية في فجر نشأتها إلى الدينونة لخالق هذا الكون وبارئه، وذلك قبل أن تكدرها عوامل التربية الجانحة والرعونات النفسية الجامحة. فالناس كلهم إذن مشدودون إلى الهداية عن طريق الفطرة الإيمانية التي تنشأ مع نشأة كل إنسان أياً كان.

وأنت ترى فيما تنطق به هذه الآيات أن كل من استسلم لطبيعته الإنسانية صافية عن رعونات الأهواء وعن سلطان العصبية والاستكبار، فإن الله يكرمه بالهداية ويجذبه إلى النهج القويم، أي ليس بين الإنسان وبين أن يهديه الله إليه سوى أن يتحرر من أهوائه ويستجيب لنداء عقله ويطرق باب المعرفة دون أسبقية أي قيد لها.

ثم أنت ترى فيما تنطق به هذه الآيات أن الذين أضلهم الله عز وجل، هم الذين خوطبوا برسالات الله إليهم فأعرضوا عنها واستكبروا عليها، وتمادوا في ذلك، وأصروا على ذلك إصرارهم ولم يرضوا بديلاً عن الاستكبار. فهؤلاء هم المعنيون بقوله تعالى ﴿وَمَا يُضِلُّ بِهِۦٓ إِلَّا ٱلْفَٰسِقِينَ﴾. وهم الذين قضى الله بحكمه العادل أن يغلق منافذ عقولهم وأن يصدهم عن سبل الهداية وأن يزجهم في أودية الغواية. وهو عقاب عاجل على استكبارهم وعنادهم. وهذا هو قرار الله في حقهم. تأمله جيداً ليتبين لك فيه قهر الله وعقابه : ﴿سَأَصْرِفُ عَنْ ءَايَٰتِيَ ٱلَّذِينَ يَتَكَبَّرُونَ فِى ٱلْأَرْضِ بِغَيْرِ ٱلْحَقِّ وَإِن يَرَوْا۟ كُلَّ ءَايَةٍ لَّا يُؤْمِنُوا۟ بِهَا وَإِن يَرَوْا۟ سَبِيلَ ٱلرُّشْدِ لَا يَتَّخِذُوهُ سَبِيلًا وَإِن يَرَوْا۟ سَبِيلَ ٱلْغَىِّ يَتَّخِذُوهُ سَبِيلًا﴾ [الأعراف: ٧/ ١٤٦].

الاستكبار أعظم جريمة يرتكبها العبد في حق ربه، وليس من عقاب أليق بهذه الجريمة من العقاب الذي قضى به الله لأصحابها، ألا وهو صرفهم عن الحق وإغلاق سبل الهداية أمام أبصارهم وبصائرهم، ليتقلبوا مع استكبارهم في أودية الضلال، لا يجدون مخرجاً أو ملاذاً منها إلى أن يقوم الناس لرب العالمين.

إن من مقتضى ألوهية الله عز وجل أن يضل من يشاء إضلاله وأن يهدي من يشاء هدايته. ولكن من هو الذي يشاء الله إضلاله ومن هو الذي يشاء هدايته ؟... هنا يكمن حل الإشكال الذي يطوف بذهنك.. إن الله لا يشاء إضلال إلا من أعرض عن نداء الله ومائدة إكرامه ولطفه، واستيقن عقله الحقيقة ولكن نفسه

الأمارة بالسوء استكبرت عليها، ثم أصرّ على استكباره معانداً لا يلوي على شيء.. أما سائر الفئات الأخرى فمآلهم إلى الهداية، وشفيعهم مهما شردوا وجمحت بهم الأهواء ذل عبوديتهم لله. وهم جميعاً - ما عدا المستكبرين المعاندين - المعنيون بقول الله تعالى ﴿قُلْ يَٰعِبَادِىَ ٱلَّذِينَ أَسْرَفُوا۟ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ لَا تَقْنَطُوا۟ مِن رَّحْمَةِ ٱللَّهِ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ يَغْفِرُ ٱلذُّنُوبَ جَمِيعًا ۚ﴾ [الزمر: ٣٩/٥٣].

أترى أن عدالة الله في معاملته لعباده غائبة عن هذا القانون؟.. إنه ليس قانون العدالة المطلقة فقط، بل هو قانون الرحمة الغامرة من الله لعباده.. أي لكل من دان بذل العبودية لمولاه وخالقه.

★ ★ ★

ثم إن عليك قبل أن تستعجل وتتهم مالك الكون كله بالظلم، أن تساءل نفسك: هل يتأتى الظلم من خالق الكون ومالكه؟!..

ما الظلم ؟.. الظلم تصرف الشخص بملك غيره بدون إذنه. ليس للظلم إلا هذا التعريف. فهل في الكون ما هو خارج عن ملك الله، حتى يكون تصرفه به ظلماً؟..

كما أن الله لا معقب لحكمه يوم خلقك، كذلك لا معقب لحكمه يوم يفنيك ويعدمك، ويفعل بك ما يشاء.

إنك تقيس معاملة الرب لعباده على معاملة العبد لزميله، وهو قياس باطل ليس بين المقيس والمقيس عليه أي جامع مشترك.

من أين لك القانون الذي تقاضي الله إليه، وهو وحده

المشرع، ومن هو الحاكم الذي ترفع شكواك إليه وهو وحده الحاكم في الكون كله ؟ وما الحق الذي لك عنده حتى يظلمك في استلابه.

إن الذي يوهمك اليوم هذا الاتهام لذات الله عز وجل استكبارك عليه. ولكن هذا الوهم سيتبدد، واستكبارك يحول إلى ذل وهوان عندما تقف غداً بين يديه منكسراً نادماً قائلاً : ﴿رَبِّ ٱرۡجِعُونِ ، لَعَلِّيٓ أَعۡمَلُ صَٰلِحٗا فِيمَا تَرَكۡتُۚ﴾ [المؤمنون: ٢٣/٩٩-١٠٠].

الشمس وغروبها في «عين حمئة» !

يقول قائلهم :

في القرآن آية تقرر أن الشمس تغرب في ﴿عَيْنٍ حَمِئَةٍ﴾ [الكهف: ١٨/٨٦] **أي ممزوجة بالطين أو عين حارة. وهي** ﴿فَأَتْبَعَ سَبَبًا ﴿٨٥﴾ حَتَّىٰٓ إِذَا بَلَغَ مَغْرِبَ ٱلشَّمْسِ وَجَدَهَا تَغْرُبُ فِى عَيْنٍ حَمِئَةٍ﴾ [الكهف: ١٨/ ٨٥-٨٦] **والثابت علمياً أن الشمس تظل ثابتة في فلكها، وأن الأرض تدور من حولها. وهذا الخطأ العلمي الظاهر دليل على أن القرآن من كلام العرب الذين كانوا يجهلون هذه الحقيقة في عصرهم، وليس من كلام الله.**

وأقول: إن الآية القرآنية نسبت غروب الشمس في عين حمئة إلى ما وجده ذو القرنين (أي الإسكندر) وأداة الوجود هي العين، أي أرته عيناه أن الشمس تنغمس غائبة في ماء ذي كدورة بطين، أو في ماء ذي سخونة. وهل الذي تراه عيناك إذ تصل في اتجاهك نحو الغرب إلى البحر المحيط، إلا هذا الذي رأته عينا ذي القرنين أو الإسكندر؟

يقول الحافظ ابن كثير في تفسيره لقوله تعالى ﴿حَتَّىٰٓ إِذَا بَلَغَ مَغْرِبَ ٱلشَّمْسِ﴾: «أي فسلك طريقاً حتى وصل إلى أقصى ما يسلك فيه

من الأرض من ناحية الغرب، وأما الوصول إلى مغرب الشمس من السماء فمتعذر..» ثم يقول في تفسيره لقوله تعالى: ﴿وَجَدَهَا تَغْرُبُ فِي عَيْنٍ حَمِئَةٍ﴾: «أي رأى الشمس، في منظره، تغرب في البحر المحيط، وهذا شأن كل من انتهى إلى ساحله، يراها كأنها تغرب فيه، وهي لا تفارق الفلك الرابع الذي هي مثبتة فيه»[1].

أقول: وهذا الذي يقوله ابن كثير وغيره، هو الذي تعبّر عنه الكلمة القرآنية «وجدها» فهي تصف ما وجدته عينا ذي القرنين، ولا يصدق ذلك إلا بهذا الذي وصفه به.. وكل علماء الفلك وفلاسفة الدنيا وعلماء الطبيعة، إذا وقفوا عند ساحل المحيط ينظرون إلى مغيب الشمس لا يجدون إلا هذا الذي ذكره القرآن مما وجدته عينا ذي القرنين في مثل تلك الحال.

وحديث العينين عن الأفلاك والشمس والقمر، قديماً وحديثاً، يختلف عن حديث الفكر والعلماء عنها. ومن الغباء أو الخداع الخلط بينهما.

وينقل بيان الله تعالى في القرآن حواراً بين سيدنا إبراهيم والنمرود الذي كان يدعي الربوبية، كثيراً ما وُصف من قبل المتصنعين للنقد العلمي، بأنه دليل على سذاجة واضعي القرآن وعدم اطلاعهم على بدهيات علم الفلك. والحقيقة أن نقدهم هو

(١)تفسير ابن كثير : ٤/ ٥٧١

الدليل الواضح على سذاجتهم أو على تصنعهم لنقد علمي لا معنى ولا وجود له.

يقول الله تعالى ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى ٱلَّذِى حَآجَّ إِبْرَٰهِـۧمَ فِى رَبِّهِۦٓ أَنْ ءَاتَىٰهُ ٱللَّهُ ٱلْمُلْكَ إِذْ قَالَ إِبْرَٰهِـۧمُ رَبِّىَ ٱلَّذِى يُحْىِۦ وَيُمِيتُ قَالَ أَنَا۠ أُحْىِۦ وَأُمِيتُ ۖ قَالَ إِبْرَٰهِـۧمُ فَإِنَّ ٱللَّهَ يَأْتِى بِٱلشَّمْسِ مِنَ ٱلْمَشْرِقِ فَأْتِ بِهَا مِنَ ٱلْمَغْرِبِ فَبُهِتَ ٱلَّذِى كَفَرَ ۗ وَٱللَّهُ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلظَّـٰلِمِينَ ﴿٢٥٨﴾﴾ [البقرة: ٢/ ٢٥٨] أي فإن الذي تراه العينان من كل إنسان أن الشمس تقبل من جهة الشرق إلى الغرب. فالمتحدي ينبغي أن يطالبه بالعكس، بأن يأتي بها من جهة الغرب في الصباح. وهذا الذي يجري فيه الحوار مما تراه العين، لا علاقة له بما وراء ذلك مما يقرره العلم أو العقل، إذ لكل منهما مجاله، والخلط بينهما تفاهة لا يقرها العلم، ويشمئز منها الذوق.

أنت تقول لصاحبك، مهما كنت خبيراً بعلم الفلك وعلاقة الشمس بالأرض: ها هي الشمس بازغة تطلع، وها هي ذي توشك أن تغيب. ولا تقول : ها هي ذي الأرض قد دنت من الشمس حتى بدت للعيان.

ولعل هذا القائل يروغ عن الآية إلى الحديث الذي يرويه البخاري بسنده عن أبي ذر أن النبي صلى الله عليه وسلم قال له: يا أبا ذر أتدري أين تغرب الشمس ؟ قلت : الله ورسوله أعلم. قال : فإنها تسجد تحت العرش، وفي رواية : فتستأذن فيؤذن لها، ويوشك أن تستأذن فلا يؤذن لها. فينتقل استشكاله من تلك

الآية إلى هذا الحديث ويسأل عن سبيل التوفيق بينه وبين ما يقرره العلم.

والجواب أن الشمس أينما كانت فهي تحت العرش، لأنّه سقفها الممتد في كل الجهات. وهي تظل في كل لحظة ما بين مشرق ومغرب، إذن فهي دائمة السجود لربها عز وجل. والمراد بسجودها، كسجود سائر الأفلاك والمخلوقات الكونية، الانقياد لربها والنهوض بوظائفها المكلفة بها. فهذا الذي يقوله رسول الله عن الشمس، هو ذاته الذي يقوله بيان الله تعالى في القرآن ﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ ٱللَّهَ يَسْجُدُ لَهُۥ مَن فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَن فِى ٱلْأَرْضِ وَٱلشَّمْسُ وَٱلْقَمَرُ وَٱلنُّجُومُ وَٱلْجِبَالُ وَٱلشَّجَرُ وَٱلدَّوَآبُّ﴾ [الحج: ٢٢/١٨].

فسجود الشمس في كل من الحديث النبوي وفي القرآن سجود دائب مستمر، وليس في حالة معينة دون غيرها، إذ المراد بسجودها انقيادها للوظيفة التي أقامها الله عليها، وهي التي يعبر عنها قوله عز وجل ﴿وَٱلشَّمْسُ تَجْرِى لِمُسْتَقَرٍّ لَّهَا ۚ ذَٰلِكَ تَقْدِيرُ ٱلْعَزِيزِ ٱلْعَلِيمِ ﴿٣٨﴾﴾ [يس: ٣٦/٣٨]. أي والشمس تظل عاكفة على وظيفتها التي أقامها الله عليها إلى ميقاتها الزماني الذي هو يوم القيامة. فالمراد بالمستقرّ في الآية الميقات الزماني لانتهاء وظيفتها، لا الميقات المكاني المحصور أو المحدود في جهة معينة كما قد يفهم خطأ من حديث أبي ذر.

ثم إن على الذي يهمه أن يعلم الجواب عن المشكلات والثغرات التي يتوهمها في القرآن أن لا يغيّب بصره عن بقية كلام الله تعالى، وكأنه يخشى أن يقع على الجواب الذي يحلّ له

الإشكال ويزيل عنه الوهم، بل عليه إن كان صادقاً - أثناء هياجه وصياحه بالإشكال الذي عثر عليه في البحث حقاً عن الجواب، وفي رغبة العثور عليه - أن يتلمس ذلك في الأماكن الأخرى من القرآن. فإن القرآن يفسر بعضه بعضاً. وبياناته متساوقة متكاملة. هذا على فرض أنه فعلاً عثر على شبهات تستوجب الوقوف عندها.

لا شك أن هذا الذي يجلجل على أسماع الناس - وهو بعيد عنهم - بالشبهة التي عثر عليها في قوله تعالىٰ عن رحلة الإسكندر : ﴿حَتَّىٰٓ إِذَا بَلَغَ مَغْرِبَ ٱلشَّمْسِ وَجَدَهَا تَغْرُبُ فِى عَيْنٍ حَمِئَةٍ﴾ قد قرأ سورة يس بحثاً عن شبهات أخرى. ولا ريب أنه قرأ منها هذه الآيات :

﴿وَءَايَةٌ لَّهُمُ ٱلَّيْلُ نَسْلَخُ مِنْهُ ٱلنَّهَارَ فَإِذَا هُم مُّظْلِمُونَ ﴿٣٧﴾ وَٱلشَّمْسُ تَجْرِى لِمُسْتَقَرٍّ لَّهَا ۚ ذَٰلِكَ تَقْدِيرُ ٱلْعَزِيزِ ٱلْعَلِيمِ ﴿٣٨﴾ وَٱلْقَمَرَ قَدَّرْنَٰهُ مَنَازِلَ حَتَّىٰ عَادَ كَٱلْعُرْجُونِ ٱلْقَدِيمِ ﴿٣٩﴾ لَا ٱلشَّمْسُ يَنۢبَغِى لَهَآ أَن تُدْرِكَ ٱلْقَمَرَ وَلَا ٱلَّيْلُ سَابِقُ ٱلنَّهَارِ ۚ وَكُلٌّ فِى فَلَكٍ يَسْبَحُونَ ﴿٤٠﴾﴾ [يس: ٣٦/ ٣٧-٤٠] فلئن أصغى السمع إلى هذا الكلام الذي يتنزل من علياء الربوبية، عن الليل والنهار والشمس والقمر والنظام الذي بثه الله في كل منها، فلا ريب أنه تلقى من هذه الآيات الجواب العلمي الشافي عن شبهته. وإنه لجواب مقنع يغني عن كل ما ذكرته.

ولكن آفة هذا العصر أن فيه من يحترف البحث عن المشكلات، فإن لم يجدها اختلقها، ويحترف الفرار من حلولها

وأجوبتها، فإن ووجه بها تصامم عنها أو تغابى عن فهمها. قرأ في القرآن الآيات التي استشكلها، ولم يعرّج على التي تجيب عنها!!..

هل الصراط المستقيم محجوب عن المسلم باعتراف القرآن؟

يقول قائلهم:

يقرأ المصلي في كل صلاة، الفاتحة. وفيها هذه الآية ﴿ٱهۡدِنَا ٱلصِّرَٰطَ ٱلۡمُسۡتَقِيمَ ۝٦﴾ وهذا دليل جازم على أن المسلم لم يهتدِ بعد إلى الصراط المستقيم ولو كان تمسكه بالإسلام التزاماً بالصراط المستقيم، لما أُمِرَ بالبحث عنه عن طريق هذا الدعاء المتكرر في كل صلاة. وينتهي هذا القائل إلى أن الصراط المستقيم يمكن العثور عليه عن طريق المبشرين، ومن خلال الإصغاء إلى نصائحهم وبياناتهم التبشيرية المعروفة..

وأقول: على الرغم من أن هذه الشبهة المصطنعة لا تنطلي على عاقل حرّ التفكير، من الخير أن نصغي إليها كما لو كانت شبهة حقيقية تطوف حقاً بذهن أصحابها، وأن نجيب عنها من خلال حوار عقلاني جادّ نفترضه.

أولاً : من قال : إن هداية الله للعبد تكون في لحظة واحدة،

ثم إن العناية الربانية تنفك عنه بعد أن اطمأنت إلى أن الهداية قد استوثقت منه واستوثق منها، حيث يسير في ظلها دون تنكب، ولا ضلال إلى نهاية حياته؟!.. من قال : إن الهداية الربانية كالشاحن الكهربائي، يُملأ بالجهاز، ثم يُتْرك وإذا هو يؤدي عمله بكل انتظام؟!..

هداية الله للعبد، شأنها كشأن سائر وجوه عناية الله بالعبد، كالقوة الجسمية والإدراك العقلي والعافية البدنية وكالحياة ذاتها، تتجدد مستمرة لحظة فلحظة.. بحيث لو تخلى الله عنه عاد لا شيء. إن عافيتي تستمر مع دوام إمداد الله بها، وإن كلاً من فكري وذاكرتي يستمر مع دوام إمداد الله به، كذلك النطق والسمع والبصر والحياة. ومثل ذلك كله الهداية التي تفسَّر بإلهام الله عَبْدَهُ الرشدَ، وبتوفيقه لأن يسير في سلوكه على مقتضاه.

وإنما تستمر الهداية باستمرار العناية الربانية بالعبد، يمده بالإلهام المستمر، ويمدّه بالتوفيق للسير على مقتضاه.

وهكذا فإن العبد بحاجة إلى عناية الله الدائمة بشؤونه كلها، وفي مقدمتها الهداية والتوفيق. والعناية ليست - كما قلت - طاقة يشحن بها كيان الإنسان، وإذا هو مستقل بشؤون نفسه، يتصرف دون معين، ويهتدي إلى الحق دون هادٍ، ما دامت الطاقة التي شحن بها باقية. إذن فالطاقة أداة فعالة يستعين بها الله لإنجاز أحكامه، تعالى الله عن ذلك علواً كبيراً، وليس في الكون عاقل يؤمن بألوهية الله تعالى ثم ينسب إليه هذا اللغو.

فإذا تبيّن لك هذا فإن العبد بحاجة ماسة إلى أن يدعو الله دائماً أن يمده بالعون المتعلق بمقومات حياته، وأن يمدّه بالهداية المستمرة إلى الحق. ألا ترى أنه يقول : اللهم متعني بالعافية التامة، وهو ممتَّع بها. ويقول : متعني بسمعي وبصري وقوتي، وهو ممتَّع بذلك كله ؟.. فكذلك قوله : اللهم اهدني إلى صراطك المستقيم، وهو مهديّ إليه سائر عليه أي أدم هذه الهداية لي ما حييت.

ثانياً : كما أن الصراط المستقيم يتمثل في الحق الذي تنزل به كتاب الله تعالى القرآن، كذلك يتمثل في الرشد الذي ينبغي أن يتبينه ويستمسك به الإنسان، كلما واجهه شأن جديد من شؤون الحياة.. وشؤون الحياة كانت ولا تزال متطورة متجددة، يواجه الإنسان منها كل يوم شيئاً جديداً لا عهد له به.. فكان من مقتضى عبودية الإنسان لله أن يسأله دائماً الهداية إلى الرشد الذي يجب أن يتبعه في كل ما يجدّ من شؤون الحياة. والصراط المستقيم ليس إلا المنهج السديد الذي شرعه الله وحذر من التنكب عنه، سواء كان متعلقاً بكل ما بينه الله في محكم تبيانه (القرآن) أو متعلقاً بكل ما يجدّ من شؤون الحياة وأطوارها.

ألا ترى إلى الفتن والمشكلات التي تنبعث اليوم في حياة الإنسان، ما بين كل حين وآخر، ألا ترى إلى الحيرة التي تمتلك الفكر حيال الموقف الذي ينبغي اتخاذه منها ؟ إن الملاذ الذي ينجي الإنسان المؤمن بالله من هذه الفتن والمشكلات، التجاؤه الضارع الدائم إلى الله تعالى أن يبصره بالصراط القويم الذي

ينبغي أن يتبعه حيال التعامل مع هذه المشكلات.. وإنما الفرصة الذهبية لهذا الالتجاء والرجاء، عندما يكون العبد واقفاً بين يدي ربه في الصلاة.. فذلك هو معنى قول العبد لربه آنذاك : اهدنا الصراط المستقيم، وتلك هي موجباتها. على أن خطاب العبد لربه بهذه المناجاة، تعليم وتلقين من الله له بذلك. إذ إن فاتحة الكتاب سورة من سور القرآن، فهي كلام الله يعلمه عباده المؤمنين به أن يناجوه به عندما يقفون بين يديه في كل صلاة.

ثالثاً : بقطع النظر عن كل ما ذكرته، إن مقصود الذين يختلقون هذه الشبهة، أن يغرسوا في ذهن المسلم المحدود الثقافة، أن الإسلام الذي يعتنقه ليس هو المعني بالصراط المستقيم، والدليل على ذلك أن الله يطلب منهم أن يستعينوا به ليهديهم إلى هذا الصراط المستقيم الذي لم يعثروا عليه بعد. إذن فعلى المسلمين أن يبحثوا عن الصراط المستقيم في معتقد وديانة أخرى.

ولكن فما هو المعتقد الآخر الذي هو الصراط المستقيم في رأي أصحاب هذه الشبهة المختلقة؟ إنه - فيما قرأت ورأيت - المعتقد الذي يروج له المبشرون في محطاتهم وإذاعاتهم وأقنيتهم. وليس في الناس من يجهل هذا الذي يروجون له، إلى جانب ما يخوضون فيه من تسفيه الحق المتمثل في كتاب الله عز وجل.

ولكن ها هو ذا القرآن الذي يأمرنا بأن ندعو الله في كل ركعة من صلاتنا أن يهدينا إلى صراطه المستقيم، قد أنبأنا عن صراطه المستقيم هذا، وعرفنا عليه، وحدد لنا معناه، بحيث لا يتأتى لأحد أن يلبّس عليه أو أن يخلط فيه أو أن يستبدل به.

اسمع التعريف القرآني للصراط المستقيم الذي ذكره الله في سورة الفاتحة: ﴿ قُلْ تَعَالَوْا أَتْلُ مَا حَرَّمَ رَبُّكُمْ عَلَيْكُمْ أَلَّا تُشْرِكُوا بِهِ شَيْئًا وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَانًا وَلَا تَقْتُلُوا أَوْلَادَكُم مِّنْ إِمْلَاقٍ نَّحْنُ نَرْزُقُكُمْ وَإِيَّاهُمْ وَلَا تَقْرَبُوا الْفَوَاحِشَ مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَمَا بَطَنَ وَلَا تَقْتُلُوا النَّفْسَ الَّتِي حَرَّمَ اللَّهُ إِلَّا بِالْحَقِّ ذَٰلِكُمْ وَصَّاكُم بِهِ لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ (١٥١) وَلَا تَقْرَبُوا مَالَ الْيَتِيمِ إِلَّا بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ حَتَّىٰ يَبْلُغَ أَشُدَّهُ وَأَوْفُوا الْكَيْلَ وَالْمِيزَانَ بِالْقِسْطِ لَا نُكَلِّفُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا وَإِذَا قُلْتُمْ فَاعْدِلُوا وَلَوْ كَانَ ذَا قُرْبَىٰ وَبِعَهْدِ اللَّهِ أَوْفُوا ذَٰلِكُمْ وَصَّاكُم بِهِ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ (١٥٢) وَأَنَّ هَٰذَا صِرَاطِي مُسْتَقِيمًا فَاتَّبِعُوهُ وَلَا تَتَّبِعُوا السُّبُلَ فَتَفَرَّقَ بِكُمْ عَن سَبِيلِهِ ذَٰلِكُمْ وَصَّاكُم بِهِ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ (١٥٣) ﴾ [الأنعام: ١٥١/٦ ١٥٣].

فهذا هو الصراط المستقيم طبق تعريف القرآن به وإعلانه عنه، وهو الذي يأمرنا الله أن نسأله التوفيق للاهتداء به والسير عليه وعدم الحياد عنه. إنه يبدأ بالدعوة إلى توحيد الله ونبذ الشرك، وينتهي بالدعوة إلى الوفاء بعهد الله المثبت في أعناقنا عن طريق الإيمان به وبرسله، وقد استوعب ما بين تلك البداية وهذه النهاية كل المبادئ والقيم الإنسانية غير أنا إذ نتلو على الأسماع هذا التعريف القرآني بصراط الله المستقيم، لا نسلك هذا الذي يسلكه الآخرون.. فلا نسفه المعتقدات الأخرى، ولا نرميها داخل الاستديوهات بسهام التجريح والتسفيه والاستخفاف. لأننا ننشد الوحدة والتضامن في ظل الجامعة الإنسانية والجامع المشترك بين سائر المؤمنين بالله عز وجل. ولأننا قبل هذا كله لا بدّ أن

ننقاد لأوامر الله القائل : ﴿ ۞ وَلَا تُجَٰدِلُوٓاْ أَهۡلَ ٱلۡكِتَٰبِ إِلَّا بِٱلَّتِي هِيَ أَحۡسَنُ إِلَّا ٱلَّذِينَ ظَلَمُواْ مِنۡهُمۡۖ وَقُولُوٓاْ ءَامَنَّا بِٱلَّذِيٓ أُنزِلَ إِلَيۡنَا وَأُنزِلَ إِلَيۡكُمۡ وَإِلَٰهُنَا وَإِلَٰهُكُمۡ وَٰحِدٞ وَنَحۡنُ لَهُۥ مُسۡلِمُونَ ﴿٤٦﴾ ﴾ [العنكبوت: ٢٩/٤٦].

وأما الحوار فنحن أهله ودعاته وعشاقه. كيف لا وقد أمرنا الله به ؟ بل هو وحده رأس مالنا على طريق الدعوة والجهاد في سبيل الله.

موقف العلم من القرآن القائل

﴿وَإِن مِّن شَيْءٍ إِلَّا يُسَبِّحُ بِحَمْدِهِۦ﴾

يقول قائلهم :

من الثابت فيما يقرره العلم بداهة، أن الجمادات والنباتات لا يوجد لديها شيء من مقومات الإدراك والتفكير فضلاً عن التعبير والنطق، والحياة التي تسري في عالم النبات، لا تمتعها بأكثر من النمو، ومهما راجت النظريات التي تنسب إليها الإحساس، فإن ذلك لا يرقى إلى مستوى الإدراك والتفكير اللذين لابدّ منهما لصدق نسبة «التسبيح» إليها فضلاً عن الجمادات.. إن القرآن يخالف العلم في هذا مخالفة حادّة، فالتسبيح الذي هو تنزيه الله عن كل ما لا يليق أبعد ما يكون عن عالم الجمادات والنباتات على اختلافها.

وأقول: أصحاب هذه الشبهة قد يكونون من ذوي النزعة الإلحادية، وقد يكونون من المؤمنين بالله إيماناً تقليدياً أو ضعيفاً يجعلهم يرون «العلم» شريكاً مع الله في الألوهية أو حاكماً عليه،

وقد يكونون من ذوي العصبية ضد الإسلام، وهؤلاء شأنهم اختلاق الشبهات ثم الترويج لها، تحقيقاً لما تقتضيه أنشطة التبشير.

أما ذوو النزعة الإلحادية، فالحديث معهم لا يبدأ من هذه الفرعية، وإنما تكون البداءة المجدية معهم من نقطة الإلحاد ذاته. إذ هو المصدر والأساس. ومجال الحديث معهم في ذلك مختلف عن هذا المجال ،. وقد بسطت الحديث معهم في ذلك من خلال كتابي «كبرى اليقينيات الكونية» وكتابي «نقض أوهام المادية الجدلية».

أما الفئة الثانية والثالثة فمجال الحديث معهما عن هذه الشبهة واحد. ومنطلق الحديث معهما هو الإيمان بالله عز وجل.

أصحاب هذه الشبهة يحكّمون العلم في تثبيت شبهتهم والدفاع عنها. فما العلم ؟

إنه الحصيلة الذهنية للقوانين المكتشفة في عالم المكونات.

حسناً.. فمن هو الذي وضع هذه القوانين ورسخها في عالم المكونات ؟

ليس لدى المؤمن بالله إلا جواب واحد عن هذا السؤال : إنه الله عز وجل. إذ الخالق للذات، هو المنشئ للنظام والصفات. لا يرتاب في هذا أحد.

والسؤال الذي لابدّ أن يَرِدَ بعد هذا هو : فأيهما تابع للآخر؟ حاكمية الله تابعة للقوانين التي بثها في عالم المكونات،

أم القوانين هي التابعة والخاضعة لحاكمية الله..؟ من البداهة أن القوانين هي التابعة والخاضعة لحاكمية الله.. إذ الثمرة تابعة للشجرة وليس العكس.

إذا تبين هذا، فإن الذين يثيرون هذه الشبهة، ينكسون هذه الحقيقة البدهية ويرون أن حاكمية الله هي التابعة والخاضعة لقوانين المكونات !.. الله جل جلاله هو الذي بث في المكونات قوانينها، ثم أدخلها علماً في صدور العلماء. وأصحاب هذه الشبهة يصرون على أن هذه القوانين غدت هي الحاكمة على خالقها. فلا يتأتى له بعد خلقه لها أن يتصرف بها أو يلغيها أو يستبدل بها قط .

فهل في الدنيا عاقل يؤمن بالله، ثم يهضم عقله هذا التصور الأخرق ؟

شاء الله عز وجل أن يجعل الروح في كيان الإنسان هي مصدر شعوره وفكره ووجدانه، تنعكس الروح على الخلايا فينشأ من ذلك الإحساس، وتنعكس على الدماغ فينشأ من ذلك الوعي، وتنعكس على عضلة القلب فينشأ من ذلك الوجدان (العواطف الدافعة والرادعة والممجدة) عرفنا ذلك من أنفسنا ودراسة أحوالنا. أمّا ما عدا الإنسان من الحيوانات العجماوات والنباتات والجمادات فقد أقامها الله على أنظمة أخرى. أخضع الحيوانات لنظام الغريزة وسلطانها، وأخضع النباتات لحياة نباتية ينبثق منها نظام خاص بها، وأخضع الجمادات لقوانين دقيقة تظل دائبة عليها لا تشرد عن سلطانها، وإنك تنظر فتجد دقة

التزامها بالنظام الذي ألزمت به شيئاً يحير الألباب، ولا تشك في أنها أكثر التزاماً بدقائق وظائفها من الناس الذين يبدعون الأنظمة والقوانين ثم يتنافسون ويتسابقون إلى دقة الالتزام بها !..

إننا لا نعجب من انضباط الإنسان بالأنظمة التي تتعلق بحياته وعلاقاته ومجتمعه، لأنه يتمتع بالأداة التي تحقق له القدرة على ذلك، إنها الروح وما يتبعها من وعي وفكر ووجدان. ولكن فما هي الأداة التي تتمتع بها الجمادات إذ تنضبط بأنظمة أدق من الأنظمة التي ينضبط بها الإنسان، بل ما هي الأداة التي تُمَتِّع النباتات بمثل ذلك ؟

أي أن سبب العجب من النظام الدقيق الذي نلحظه في عالم الجمادات، أنها لا تملك الأداة التي نملكها وهي الروح ...

غير أن العجب يزول عندما نتذكر إيماننا بالله، ونتذكر أنه الخالق لكل شيء، وأنه خلق الأسباب والمسببات.. لئن كانت الأداة التي ينهض بها الإنسان بوظائفه وشؤون حياته هي الروح، فإن الله متع الجمادات بأداة أخرى تقدرها على النهوض بوظائفها الدقيقة التي لا ترقى إلى مثل دقتها وظائف الإنسان. ونقطة الضعف في تفكير بعض الناس أنهم رأوا أنفسهم يتمتعون بأداة الروح وآثارها من حياة وفكر ووجدان، فحسبوا أنها الأداة الوحيدة التي لا بديل عنها للإحساس والنهوض بالوظائف والالتزام بالقوانين. فراحوا يعجبون مما لا مجال لإنكاره، مما تراه أعينهم من قوانين الجمادات الدقيقة وأنظمتها الثابتة وحركاتها الهادفة الدائبة.. ثم راحوا ينكرون ما هو أقل

غرابة من ذلك، مما تراه أعينهم ولا تسمعه آذانهم، مما قد أخبر الله عنه من تسبيحها الدائب لله عز وجل.

فما وجه الإنكار لأمر هو أقل غرابة مما رأوه فآمنوا به ؟.. ألأنهم رأوا الأمر العجاب بأعينهم، فلم يمنعهم استغرابهم له من الإيمان به. ولم يروا ما أخبر الله به وأكده لهم فلم يمنعهم إخبار الله به وتأكيده له من جحوده وإنكاره؟!..

لم يطلعهم الله على دقائق أنظمة المادة وتحركات أجزائها وجزئياتها، ولم يخبرهم بشيء منها. فاستغنوا عن إخباره بما بصّرتهم به أعينهم. فصدقوا وآمنوا به.. وأطلعهم الله على ما هو أقل غرابة من ذلك وأكده لهم، فاستنكروا إخباره وتأكيده، ترجيحاً لما أنكرته أعينهم أو عجزت عن سماعه آذانهم؟!.. فكيف يتأتى هذا في ميزان المنطق، لمن آمن بالله وعلم أنه خالق المكونات والمدبر لشؤونها ؟

صحيح أنا لا نسمع تسبيح الجمادات والنباتات، ولا نفقهه، ولكن الإله الذي أقامها على النظام الدقيق العجيب الذي نراه، أخبرنا قائلاً : ﴿تُسَبِّحُ لَهُ ٱلسَّمَٰوَٰتُ ٱلسَّبْعُ وَٱلْأَرْضُ وَمَن فِيهِنَّ وَإِن مِّن شَىْءٍ إِلَّا يُسَبِّحُ بِحَمْدِهِۦ وَلَٰكِن لَّا تَفْقَهُونَ تَسْبِيحَهُمْ﴾ [الإسراء: ١٧/ ٤٤] فما الذي يجعلك تنكر خبر الله، من حيث تصدق الأعاجيب التي تراها عيناك ؟

إنك تحتج في إنكارك للذي أخبرك به الله، بالعلم. وتقول : إنه متعارض مع العلم. فهل العلم إلا الحصيلة الفكرية للقوانين

التي بثها الله في مكوّناته ؟ فكيف يصح أن تنكر هذا الذي أخبرك به، محتجاً عليه بقوانينه التي لم يضعها غيره؟!.. كيف تكون قوانينه حاكمة عليه، وهو المقنن لها؟!..

ثم إنك عرفت بعضاً من الظواهر العلمية في عالم المكونات، فأذعنت لها وآمنت بها على الرغم من غرابتها. ولم تعلم كثيراً مما خفي عنك في عالم الجمادات وغيره، فجعلت من جهلك دليل إنكار له، وجعلت جهلك هذا حجة على الله عز وجل ومبرراً لتكذيبك له !!.. فأين هو العلم من هذا الموقف ؟!

ثم إني أضعك أمام واقع مشهود سمعته آذان جمهرة كبيرة من الناس.. كان ذلك أثناء خُطبة رسول الله في مسجده على المنبر الجديد الذي نصب له فيه، وقد أقصي الجذع الذي كان يستند إليه في خُطَبه قبل ذلك، إلى جهة نائية في المسجد. فقد سمع كل من في المسجد حنيناً ينبعث من ذلك الجذع، وصفه السامعون بأنه كصوت الناقة العشراء، أي الحامل التي توشك أن تضع حملها.. وقد دعا ذلك رسول الله إلى أن ينزل عن المنبر ويتجه إلى الجذع فيستلمه بيديه إلى أن سكن ما به.. والحديث في الصحاح، وهو مما تواتر نقله ورواه كل من كان في المسجد.. وواضح أن حنين الجذع إلى رسول الله ليس أولى من تسبيحه لله.

فإن أنكرت ما أخبر به الله، وأخبر به جمهرة أصحاب رسول الله، فإن معتمدك في ذلك أنك لم تسمع هذا الذي أخبرك به الله ورواه جمهرة أصحاب رسول الله بأذنيك. وليس معتمدك في ذلك

علماً تتمسك به. فمنذا الذي يقول : إن شهادة أذنيك أصدق من شهادة الله، وأصدق من الخبر المتواتر عن رسول الله؟!..

كم من شيء لم تسمعه أذناك بالأمس فكذبته، ثم سمعته أذناك اليوم فصدّقته. فهل هذا إلا دليل على العلم بعد الجهل ؟

وما كان الجهل بالشيء في يوم ما حجة في الإثبات أو الإنكار.

رأت عيناك دقائق النظام الكوني في الجزئية الصغيرة من المادة، فصدق بذلك عقلك، ولم تر عيناك ما أكده الله لك في محكم تبيانه، فأنكر ذلك عقلك !.. فهل هذا إلا شأن من يجعل عينيه وأذنيه حاكماً على عقله وتفكيره؟!..

وهل يُشلّ العقل بشرٍّ من هذا السبب وأتفه؟!..

★ ★ ★

وأعود فأقول : كان هذا الحوار والبيان مع الذين يقولون إنهم يؤمنون بالله.

أما حديثنا مع الناس الذين لا يؤمنون به، فيبدأ من المصدر ومن معين المشكلة، ولا ينطلق معهم من السواقي والفروع.. ذلك لأن الكدورة التي في السواقي إنما تعالج في المعين، لا في الممرات المتفرعة.

حديث الله عن ذاته بضمير الجماعة

هل يناقض وحدانيته ؟

يقول قائلهم :

تقولون إن الله واحد لا شريك، وتحتجون في هذا بالقرآن الذي يؤكد ويكرر وحدانية الله ويحذر من أن يُشْرك به ولكن القرآن ذاته يتحدث عن الله بضمير الجماعة. فيقول مثلاً : ﴿إِنَّا نَحْنُ نُحْيِۦ وَنُمِيتُ وَإِلَيْنَا ٱلْمَصِيرُ ﴿٤٣﴾﴾ [ق: ٥٠/٤٣] **ويقول :** ﴿وَٱلسَّمَآءَ بَنَيْنَٰهَا بِأَيْيْدٍ وَإِنَّا لَمُوسِعُونَ ﴿٤٧﴾﴾ [الذاريات: ٥١/٤٧]**، ويقول :** ﴿إِن كُنتُمْ فِى رَيْبٍ مِّنَ ٱلْبَعْثِ فَإِنَّا خَلَقْنَٰكُم مِّن تُرَابٍ ثُمَّ مِن نُّطْفَةٍ﴾ [الحج: ٢٢/٥].

أليس هذا بياناً صريحاً بأن الله يتحدث عن ذاته وعن شركائه؟

وأقول: إن هذا الذي تقولونه يتضمن، ولله الحمد، بشارة إقراركم بأن القرآن كلام الله. وفي هذا الإقرار حل لشبهات كثيرة تطرحونها، منها ما سبق بيانه، ومنها ما سنأتي على ذكره.. فهذه إذن واحدة.

وإذن، فأنكم تفهمون من الآيات التي استدللتم بها، أن الله إذ يخاطب بها عباده، يحدثهم باسمه وباسم شركاء معه في الألوهية.. ترى هل تفهمون الدلالة على هذه الشركة ذاتها عندما تسمعون خطاباً صادراً من ملك المملكة الأردنية مثلاً، يقول فيه: نحن ملك المملكة الأردنية الهاشمية قررنا كذا..

نعلم بكل يقين لا يعتريه شك أنكم لا تفهمون من ضمير الجماعة هذا أي شركة، ولا تفهمون منه أن ملك الأردن اسم ينطبق على شركة من عدد من الملوك متضامنين متكافلين فإن جاء من يسألكم عن السبب في استعمال ضمير الجماعة بدلاً من ضمير المفرد، ألقيتم محاضرة مستفيضة عما تسمونه ضمير «المعظم نفسه» وأخذتم تبينون النكت البلاغية في ذلك مستشهدين بما يقوله علماء العربية وعلماء البلاغة في هذا المضمار.

فما دمتم تعلمون الدلالة العربية لمثل هذا التعبير وتعلمون النكت البلاغية التي فيه، فلا تفسرون كلمة «الملك» بشركة من الرجال، وتبرئونه من هذا الوهم، مالكم تنسون معلوماتكم هذه عندما تقفون على مثل هذا التعبير في كتاب الله ؟

على أن الملك الذي يخاطب شعبه بهذا الضمير، لا يؤكد له، بين الحين والآخر، بأنه واحد في ملكه لا يشركه في ذلك أحد، ولا يرى ما يحوجه إلى ذلك بسبب استعماله لضمير الجماعة.

أما الله جل جلاله (وله المثل الأعلى) فيؤكد في بيانه المنزل أنه واحد في ذاته وفي صفاته لا يشركه فيها أحد، فهو يقول : ﴿ٱللَّهُ

﴿لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ٱلۡحَيُّ ٱلۡقَيُّومُ ۝٢﴾ [آل عمران: ٣/ ٢] ويقول: ﴿إِنَّنِيٓ أَنَا ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّآ أَنَا۠ فَٱعۡبُدۡنِي﴾ [طه: ٢٠/ ١٤] ويقول: ﴿لَوۡ كَانَ فِيهِمَآ ءَالِهَةٌ إِلَّا ٱللَّهُ لَفَسَدَتَاۚ﴾ [الأنبياء: ٢١/ ٢٢] ويقول: ﴿قُل لَّوۡ كَانَ مَعَهُۥٓ ءَالِهَةٞ كَمَا يَقُولُونَ إِذٗا لَّٱبۡتَغَوۡاْ إِلَىٰ ذِي ٱلۡعَرۡشِ سَبِيلٗا ۝٤٢﴾ [الإسراء: ١٧/ ٤٢] ويقول ﴿قُلۡ هُوَ ٱللَّهُ أَحَدٌ ۝١﴾ [الإخلاص: ١١٢/ ١].

وها أنتم في طرحكم لهذه الشبهة تعلنون عن يقينكم بأن القرآن كلام الله، إذ لا يتأتى لكم الاستدلال به على أن الله له شريك بل شركاء، إلا إن أقررتم بأنه كلام الله، وتجاهلتم ما تعلمونه من قواعد العربية والنكت البلاغية في التكلم بضمير الجماعة.

لقد تجاهلتم ففررتم من إلزامنا لكم بهذه القواعد، فكيف السبيل إلى أن تتجاهلوا ما تقرون به من أن القرآن كلام الله، وإلى أن تفروا من هذه الآيات التي يؤكد الله عز وجل فيها بأنه واحد لا شريك له؟..

ألستم تقولون: إن الله يتحدث عن ذاته في القرآن بضمير الجماعة، فهو إذن شركة آلهة لا إله واحد.. ولكن ها هو ذا جل جلاله يؤكد وحدانيته بأساليب شتى وينفي وجود أي شريك أو مماثل له.. فما لكم تنظرون إلى القرآن بالعين الحولاء، تبصرون ما تبحثون عنه وتتعامون عما تفرون منه؟!..

* * *

بقي أن في هؤلاء الناس من يقول: إن حديث الذات الإلهية

عن نفسه بضمير الجماعة، يعود إلى ما هو مقرر في القواعد العربية من أنه تعبير عن تعظيم الذات، وهذا مما يدعو الدين إلى تجنبه، بل هو ما تتنزه عنه الأخلاق الإنسانية الرفيعة وتجمع المجتمعات الإنسانية السليمة على استنكاره.

والجواب أن مردّ هذا الأمر إلى الاستكبار الذي هو أصل هذه المسألة، فاستكبار الإنسان على غيره صفة مذمومة حقاً، وفي حكمها كل التصرفات التي تتفرع عنها.

ولكن ما السبب في أن الاستكبار خصلة مذمومة في الدين وفيما تجمع عليه الأخلاق الإنسانية ؟

السبب في ذلك أن الإنسان إذ يستكبر يتمطى جاهداً أن يبلغ من العلو درجة لا يتأتى للخصال التي ركبت فيه أن ترق إليها. إنه يتجاهل كينونته البشرية البادئة من ضعف والمنتهية إلى ضعف، ويصور من نفسه كائناً مبرءاً من خصال ضعفه كلها. فهو كالقزم الذي يصرّ على أن يلبس ثياب المردة الطوال.

إن من كان وجوده من غيره، وحياته ومقومات عيشه كلها بغيره، قبيح به أن يتعالى إلى حيث العظمة والكبرياء. وإن هو حاول ذلك فهو إنما يزيّف من نفسه على الناس شيئاً لا علاقة له بحقيقته.

والإنسان عبد لمن وجوده منه، ولمن حياته ومقومات عيشه بيده وهو الله عز وجل فالمطلوب والمنتظر منه أن يتحقق بين الناس وأمام الله بهويته، لا أن يزيف من نفسه أمام الله وعباده كائناً آخر.

أما الله عز وجل فالكبرياء شأنه والعظمة رداؤه، لأنه هو دون غيره المتصف بالوجود الذاتي، ولذا فإن اسمه المتكبر، ولا يقال عنه : المستكبر.

إذ الكبرياء من مستلزمات ألوهيته وقيوميته. أما الاستكبار فهو شأن الإنسان الذي يتكلف نسيان عجزه وعبوديته، ويزيف على الناس من نفسه هوية أخرى تتأباها ذاته، فهو لذلك يسمى مستكبراً لا متكبراً. إذ هو يتكلف الكبرياء دون أن ينالها، وتعبر عن ذلك الهمزة والسين اللتان تدلان في هذا المقام على التصنع والتكلف.

إذن فحديث الله عن ذاته بضمير الجمع الدال على تعظيم الذات، منسجم مع ألوهيته وقيوميته. وقياس الله على عباده في هذا الأمر من أشنع الأخطاء التي لا يقبلها العقل، والتي لا تتفق مع إيمان المؤمن بالله.

كيف يكون القرآن كلام الله
ومعظمه نقول عن الآخرين ؟

يقول قائلهم :

تصرون على أن القرآن كلام الله، ومعظمه نقول لكلام آخرين. من ذلك ما ينقله من حوار جرى بين نوح وقومه، وبين هود وقومه، وبين موسى وفرعون. ومن ذلك ما ينقله من كلام مؤمن آل فرعون. وما ينقله من كلام لقمان لابنه. فكيف ينسب كل هذا الكلام إلى الله والقرآن ذاته ينقله عن هؤلاء وأمثالهم ؟

وأقول: عندما نقرر ونؤكد أن القرآن كلام الله، فليس المراد بالكلام الذي ننسبه إلى الله عز وجل المعاني دون الألفاظ. إذن لكان الحديث النبوي والقرآن شيئاً واحداً، إذ المعاني التي يتحدث رسول الله عنها موحى إليه بها من ربه عز وجل (باستثناء المسائل الدنيوية وما يعبر بها عن طبيعته وجبلته الإنسانية) فيصبح القرآن والحديث عندئذ شيئاً واحداً ؛ نظراً إلى أن الصياغة اللفظية في كليهما لمحمد صلى الله عليه وسلم.

ولكن مما هو معلوم بالبداهة لكل مسلم أن القرآن كلام الله

لفظاً ومعنى. أي إن الصياغة اللفظية فيه ليست من صنع البشر وإنما هي منزلة على قلب رسول الله من الله عز وجل بواسطة جبريل. ومن أوضح الأدلة على ذلك السمة الخاصة المتميزة التي ينفرد بها نظم القرآن عن نظم أي كلام آخر، بما فيه كلام رسول الله، وما أفاض فيه علماء العربية من بيان الإعجاز البلاغي الساري في نظم القرآن.

إذا تبين هذا فالقرآن كله كلام الله لأن أحداً من الناس لم يتدخل في وضع نظمه أو نظم شيء منه. نعم إن فيه نقولاً لكلام بعض الناس من رسل أرسلوا إلى أقوامهم وغيرهم. ولكنه نقل للمعاني التي تضمنتها ألفاظهم وليس نقلاً للألفاظ التي نطقت بها ألسنتهم، إن أحاديثهم كانت بلغات غير عربية. والقرآن كلام عربي غير ذي عوج. إذن فما يرويه القرآن من كلام نوح مع قومه مثلاً من كلام الله. كذلك ما يرويه من أفكار الآخرين والمعاني التي نطقت بها ألسنتهم بلغاتهم المتداولة كله كلام الله عز وجل.

وإنها لحقيقة معروفة ومتداولة في أوساط الناس بعضهم مع بعض. فأنت تقول : إن هذا الكتاب ألّفه فلان من الناس، وهو من أوّله إلى آخره كلامه.. في حين أنك تراه مليئاً بالاستشهادات المروية من آخرين. إن هذا لا يلغي نسبة الكتاب كله إلى مؤلفه، واللغة على الغالب واحدة في هذا المثال الذي أذكره. في حين أن ما يرويه القرآن من المعاني التي نطق بها بعض الناس، إنما هي معان مجردة صيغت بلغات أصحابها الناطقين بها أما الألفاظ

التي جاءت كسوة لها فإنما هي ألفاظ القرآن أي إنها من عند الله عز وجل.

ثم إن المعاني التي ينقلها القرآن عن الرسل والأنبياء، إذ خاطبوا بها أقوامهم إنما كانت وحياً من الله إليهم. فهي من الله، والله عز وجل إذ يرويها عنهم إنما يروي ما أوحى به إليهم من كلامه.

أما المعاني التي ينقلها القرآن من غيرهم كمؤمن آل فرعون وكحديث لقمان لابنه، فإنما يرويها عنهم كلام الله عز وجل. فبكلامه سبحانه وتعالى تطلع على أقوالهم التي يرويها الله عنهم.

★ ★ ★

ثم إن هذا التشكيك السخيف في كلام الله عز وجل، يشبه سخافة أخرى تدور بخلد بعض محترفي الغزو الفكري، إذ يقول قائلهم : إن القرآن يروي عن الله في كثير من الأحيان بضمير الغيبة، كقوله : ﴿وَٱعْبُدْ رَبَّكَ حَتَّىٰ يَأْتِيَكَ ٱلْيَقِينُ ﴿٩٩﴾﴾ [الحجر: ٩٩/١٥] وقوله ﴿وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَٰٓئِكَةِ إِنِّى جَاعِلٌ فِى ٱلْأَرْضِ خَلِيفَةً﴾ [البقرة: ٣٠/٢] وقوله ﴿وَقَضَىٰ رَبُّكَ أَلَّا تَعْبُدُوٓاْ إِلَّآ إِيَّاهُ﴾ [الإسراء: ٢٣/١٧] قالوا : وهذا يدل على أن المتكلم غير الله عز وجل. إذ ما ينبغي أن يكون الراوي والمروي عنه واحداً.

والذي يردّ على هذه السخافة في فهم هذه الآيات وأمثالها، تلك الآيات التي يتحدث الله فيها عن ذاته بضمير المتكلم المعظم نفسه.. لقد جاؤوا بها في سياق نقدهم، ونسوا أنها هي ذاتها

كلام من يتحدث هنا عن ذاته بضمير الغائب ، أو باسمه «الله» أو باسمه «الرب». ولا يمكن أن يلتقي الوهمان السخيفان: هنا وهناك على مطلوبهم وتصورهم الواحد.

وأقول بعد هذا لمروجي هذا التشكيك : إن المتكلم عندما يأمر مخاطبه بشيء ما، ويريد أن يلفت نظره إلى موجب هذا الأمر وسببه متمثلاً في شخص الآمر، لا يصوغ الأمر بصيغة المتكلم، بل يصوغه بصياغة الغائب، مستعملاً الاسم المشتق أو الوصف المنبئ عن سبب الأمر وموجبه. فالأب يقول لابنه مثلاً - ولله المثل الأعلى - أطع أباك فيما يأمرك به، مستعملاً صيغة الغائب هذه، لينبه ابنه إلى صفة الأبوة التي تستدعي الطاعة للشخص الآمر. ولا ريب أن هذه الصيغة أبلغ وأكثر إقناعاً مما لو قال : أطعني فيما آمرك به.

فمن هذا الباب قول الله تعالى ﴿وَٱعْبُدْ رَبَّكَ حَتَّىٰ يَأْتِيَكَ ٱلْيَقِينُ ﴿٩٩﴾﴾ أي اعبده لأنه ربك، وحسبك هذا موجباً لطاعته وعبادته. وقوله تعالى ﴿وَقَضَىٰ رَبُّكَ أَلَّا تَعْبُدُوٓاْ إِلَّآ إِيَّاهُ﴾ أي لأنه ربك، ومن الثابت أن لا رب لك سواه. ومثله قوله تعالى ﴿وَرَبُّكَ يَخْلُقُ مَا يَشَآءُ وَيَخْتَارُ﴾ [القصص: ٢٨/٦٨] إذ ذلك هو شأن الرب، وذلك ما يقضي به المنطق. ومثله قوله تعالى ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُم بِٱلْغَيْبِ لَهُم مَّغْفِرَةٌ وَأَجْرٌ كَبِيرٌ ﴿١٢﴾﴾ [الملك: ٦٧/ ١٢] إذ إن مناط الخشية من الله تعالى ربوبيته، فناسب الأمرُ بيان هذا المناط، وإنما يكون ذلك بإحلال كلمة «ربهم» محل ضمير المتكلم. وكل الآيات التي يتحدث فيها بيان الله عن ذاته باسمه

«الرب» أو باسمه «الله» بدلاً من ضمير المتكلم، من هذا القبيل أي من قبيل الالتزام بالقاعدة القائلة : الحكم على المشتق ينبئ عن عليِّيَّةِ ما منه الاشتقاق، على أن الوهم الذي يطوف بأذهان الشاكين أو المشككين، يزيله الآيات الكثيرة الأخرى التي يعرف الله عز وجل فيها على ذاته بضمير المتكلم. كقوله ﴿إِنَّنِيٓ أَنَا ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّآ أَنَا۠ فَٱعۡبُدۡنِي﴾ [طه: ٢٠/١٤] وكقوله ﴿وَأَنَا۠ رَبُّكُمۡ فَٱعۡبُدُونِ﴾ [الأنبياء: ٢١/٩٢]. وكقوله ﴿إِنَّا نَحۡنُ نَزَّلۡنَا ٱلذِّكۡرَ وَإِنَّا لَهُۥ لَحَٰفِظُونَ ٩﴾ [الحجر: ١٥/٩].

فاعجب لمن يجعل من هذين الوهمين المتناقضين ساحة رقص يلزم عقله بأن يرتع فيها. ومن كان دأبه عبادة عصبيَّتِهِ، مشى إلى عبادتها على أرض مهينةٍ من عقله وتفكيره.

طير الأبابيل في القرآن

يقول قائلهم :

من الأساطير التي يرويها القرآن، حديثه عن جيش أبرهة الذي غزا به مكة قاصداً هدم الكعبة، وقوله : إن طيوراً صغيرة شكلت من الكثرة ما يشبه المظلة فوق رؤوس جنود أبرهة، وإنها كانت تقذف بحجارة صغيرة إليهم من مناقيرها، فإذا هي كالرصاص يخترق أجسادهم !. وسرعان ما ولّى الجيش الأدبار تاركاً وراءه من ترك من القتلى الذين سقطوا بأسلحة تلك الطيور!. ثم يسخر ما شاء له خياله من هذا الذي يقرره القرآن.

وأقول: إن تحقيق حديث القرآن عن طير الأبابيل وغزو أبرهة لمكة، يعتمد على بيان أمرين اثنين : أوّلهما موقف العلم مما رواه القرآن.. ثانيهما حديث التاريخ في ذلك.

أما موقف العلم، فأحسب أننا لسنا بحاجة إلى الإفاضة فيه، بعد الذي ذكرناه تحت عنوان : الغيب والعلم الحديث وتحت عنوان «موقف العلم من القرآن القائل : وإن من شيء إلا يسبح بحمده».. فقد علمت مما ذكرناه آنذاك أن العلم هو الحصيلة

الذهنية للقوانين المكتشفة في عالم المكوّنات. ولعلك لم تنس إذن أن علم الإنسان بالشيء تابع لواقع ذلك الشيء أي وصفه الذي هو عليه.. إن علمك بالشيء لا يتحكم به ولكن واقع الشيء هو الذي ينبغي أن يتحكم بإدراكك له. ولذلك تم الإجماع على أن العلم يتبع المعلوم وليس العكس. وأعيد لك المثال الذي سبق أن ذكرته : إن علمك بأن النار تحرق اعتماداً منك على ملايين التجارب السابقة التي أثبتت ذلك، لا يتحكم في واقع النار مستقبلاً، بأن تحكم عليها اعتماداً على خبراتك العلمية السابقة بأنها ستظل تحرق بالضرورة. إنك إن حكمت بهذا اعتماداً على ما تعلمه من شأن النار، فقد جعلت العلم يتحكم بالمعلوم ويحكم عليه، وخالفت القاعدة القائلة: العلم يتبع المعلوم.. وإنها لجهالة لا تغتفر.

إن من تطبيقات هذه القاعدة التي سبق أن بصّرتك بها عند الحديث عن تسبيح الجمادات، ما قد يسألك أحدهم : هل من المستحيل أن يحمل طير صغير في فمه حصباء يقذف بها إلى شخص ما، وإذ هو مجندل ميت ؟ فإن قلت له اعتماداً على خبراتك العلمية السابقة المخالفة : بل هذا مستحيل، فقد أخطأت إذ جعلت العلم حاكماً على المعلوم، وجعلت ما يأتي به المستقبل أسيراً لما تعلمه عن الماضي. والجواب الصحيح أن تقول له : إن تجاربي وخبراتي الماضية ليس فيها ما يتفق مع هذا الذي تفرضه، لذا فهو أمرٌ مستبعد في المستقبل ولكنه غير مستحيل، لأن وقائع الماضي لا تتحكم بالمستقبل، ولا تكون قانوناً له.

فكيف إذا كنت مؤمناً بالله، ومن ثم مؤمناً بأنه هو الواضع لنواميس الكون التي هي مادة العلم في أذهان العلماء. ما وجه الاستحالة بل الغرابة في أن يسيّر الخالق ظاهرة كونية ما، على نظام شاءه ردحاً طويلاً من الزمن، ثم يستبدل به غيره ؟

ما الفرق بين الموت الذي يقضي به الله تعالى على الإنسان، والموت الموسمي الذي يقضي الله تعالى به على الأشجار ؟..

إن الفرق آت من مخزون العادة والعرف هنا وهناك. فمخزون العادة السابقة إلى اليوم بالنسبة لموت الإنسان ألا يعود إلى الحياة، ومخزون العادة السابقة إلى اليوم بالنسبة إلى الموت الموسمي للأشجار أن تحيا بعد عدة أشهر وتعود إلى النضارة والنمو. ولو قضى الله بأن يعكس الأمر، فيجعل موت الإنسان موتاً موسمياً محدداً مثلاً بين كل صيف وشتاء، ويجعل موت الأشجار موتاً دائماً يحيلها إلى حطب للاحتراق، لنسج العرف فكر الإنسان على هذا السؤال، ولتحول المألوف إلى عجيب والعجيب إلى مألوف.

إذن فإن لنا أن نعود فنؤكد بأن العلم الذي جاء ثمرة استمرار نظام كوني معين، لا يحمل في داخله الدليل العلمي على ديمومة هذا النظام بالضرورة في المستقبل وعلى استحالة أن يستبدل به غيره.

إننا ننطلق في أحاديثنا وحواراتنا هذه من مسلّمة جامعة بيننا ألا وهي الإيمان بالله الذي هو خالق هذا الكون والواضع لقوانينه وأنظمته. إذ الذي نعلمه أن الذين يلصقون هذه الأباطيل

بالقرآن مؤمنون بالله، فيما يزعمونه على أقل تقدير. فما وجه الغرابة والعجب في أن يجند الله طيوراً من خلقه فيكيد بها أبرهة وجنده ويجعل هلاك من هلك منهم وهزيمة من انهزم بواسطتها؟!..

وإذا كانت غرابة الشيء عن المألوف الذي تم التعود عليه، هي الدليل العلمي على بطلانِهِ فلماذا لا ينكر هؤلاء الناس النشأة الثانية (أحداث يوم القيامة) التي أخبر بها القرآن والإنجيل والتوراة؟ فإنها أوغل في الغرابة ومخالفة المألوف من تلك الطيور التي قضى الله بأن يكون هلاك أبرهة بواسطتها. وإني لعلى يقين بأن من يكذّب القرآن فيما أخبر من سبب هلاك أبرهة، يكذّبه من باب أولى فيما أخبر من أحداث يوم القيامة.

فهذا هو الأمر الأول، وهو بيان موقف العلم مما أخبر به القرآن.

أما الأمر الثاني وهو التاريخ وحديثه في ذلك، فقد علمت أن هذا الخبر مثبت في القرآن. وقد وصل القرآن إلينا متواتراً من فم رسول الله عن طريق كل من التلقي والكتابة. أي فلا يتأتى لأحد أن يقول إن سورة الفيل ليست من القرآن، وإنها ألحقت به بعد قرن أو قرنين من الزمن مثلاً بواسطة بعض الناس.

ما من واحد من أهالي مكة مسلماً كان أو مشركاً إلا وسمع سورة الفيل، وتناقلتها الآذان. فلنفرض أن ما ذكره القرآن من ذلك إنما كان أسطورة لا أصل لها، فأين هم الذين قالوا ذلك

ممن شهد حملة أبرهة وغزوه لمكة، وقد كان في شيوخ مكة عند نزول هذه السورة كثير ممن شهدوا ذلك الحدث التاريخي، منهم المطعم بن عدي وعتبة بن ربيعة، وعمرو بن عائذ.

إن المشركين من شيوخ مكة المعمّرين كانوا أولى من هؤلاء الصغار الناقدين لكتاب الله باتهام حديثه هذا بالضلال الأسطوري، لو كان الأمر أسطورة حقاً.. إذن لكذبوه ولسفهوه ولقالوا له : كنت دون الرضاع من عمرك آنذاك، فما تضليلك لنا في أمرٍ كنا أبطاله وكنا أدرى الناس به ؟

وإذا كان ما جاء به القرآن أسطورة حقاً، فلم يكن وجود لطيور أقبلت ولا لحصى قُذفت ولا لجثث تناثرت، فما للشعراء الجاهليّن تسابقوا لوصف هذه الأسطورة وتأكيد وقوعها وللتعبير عن مشاعر التعجب منها ؟

يقول أبو قيس بن الأسلت الأنصاري، وهو صيفي بن عامر:

ومن صنعه يومُ فيل الحُبو
ش إذا كلما بعثوه رزم

محاجنهم تحت أقرابه
وقد شرموا أنفه فانخرم

فولّى وأدبر أدراجه
وقد باء بالظلم من كان ثَمْ

فأرسل من فوقهم حاصباً
يلفهمُ مثل لف القرم

وقال نضيل بن حبيب الخثعمي :

ألا رُدِّي جمالك يا رُدَينا
نعمناكم مع الإصباح عينا

فإنكِ لو رأيت.. ولن تَرَيْه
لدى جنب المحصَّب ما رأينا

حمدتُ الله أن عاينت طيراً
وحصبَ حجارة تلقى إلينا

وقال عبد الله بن الزِّبعْرى :

لم تخلق الشعرى ليالي حُرِّمَت
إذ لا عزيز من الأنام يرومها

سائل أمير الجيش عنها ما رأى
فلسوف يُنبي الجاهلين عليمُها

ستون ألفاً لم يؤوبوا أرضهم
بل لم يعشْ بعد الإياب سقيمها

كانت بها عاد وجرهمُ قبلهم
والله من فوق العباد يقيمها

أفهذه أساطير نسجتها أخيلة هؤلاء الشعراء، وسرقها بعضهم من بعض، فجاءت بصورة حدث واحد ؟.. إذن فماذا فعل أبرهة وجيشه ؟ ولماذا لم ينالوا من الكعبة منالاً، وقد جاؤوا لهدمها ؟ وهل روى التاريخ، أي تاريخ، أن في أهل مكة من

قاوموه ووقفوا في وجهه، والكل كانوا متفرقين في الجبال التي تحيط بمكة.

أيهما الأسطورة ؟ ما يذكره بيان الله، أم هذا الوهم الضبابي الذي يشرد بعيداً وراء المنطق ومقاييس العقل؟!..

★ ★ ★

على أن في هؤلاء الناس من حاولوا أن يختلقوا من عندهم لهذا النبأ الرباني إخراجاً يرضي جحودهم، ويجيب عن هذه الأسئلة المحرجة المتجهةِ إليهم، فقالوا : إن مرضاً سرت جراثيمه فيما بين جنود أبرهة فتكت بهم وعاقتهم عن تنفيذ ما جاؤوا من أجله، ولْنَقُلْ إنه داء الجدري !..

فانظر إلى الجحود المستكبر ماذا يفعل بأصحابه.. إنه ينقلهم من المستحيل إلى ما هو أشدّ استحالة.

هل في المؤرخين القدامى من قال هذا؟ لم يُنقل عن أي ممن شهد غزو أبرهة لمكة، ولا عمن جاء بعدهم أن داء سرت عدواه بين أفراد ذلك الجيش، فرده بعد أن وصل إلى مكة على أعقابه. ففيم اختلاق شيء لم يكن ؟

ثم هل في منطق العقلاء من يصدق أن جرثومة داء سرت بين أفراد الجيش الذي كان تعداده ستين ألفاً، خلال لحظات، فاستقر المرض العضال في جسومهم خلال دقائق، ثم ما هو إلا أن فتك بهم وراح يصرعهم الواحد تلو الآخر خلال ساعة، ثم

إن بقاياهم عادوا أدراجهم هاربين. وتم ذلك كله خلال ساعات من يوم واحد، وبقيت كعبة الله، لهذا السبب، آمنة لم تُمسّ !!..

ما من عاقل إلا ويعلم أن هذا الإخراج المختلق، أشدّ غرابة وأبعد عن المألوف لموازين الفكر من الواقع الذي أخبر الله عنه في كتابه المبين.

الكعبة أمامهم، وهي في متناول معاولهم، والمرض الساري أياً كان لا تحول بداءته وتحركه إليهم، من انتهاز الفرصة الكافية لتهديم مكة كلها. فما لهم ولّوا الأدبار وهم يتساقطون صرعى في الطريق؟!..

* * *

ألا ما أثقل منطق الاستكبار وأغلظ !.. ينقل صاحبه من مخاصمة الحق إلى معانقة المستحيل. يخاصم الحق بستين لغة من لغات جحوده واستكباره. ويستسلم للخرافة التي يمَجُّها العقل ويسخر منها العلم، وإن شهد ستون برهاناً على تطوحه في التيه والضلال!!..

القرآن.. والأعمال الإنسانية لغير المؤمنين

يقول قائلهم :

> في الناس غير المؤمنين بالله من عكفوا في حياتهم على خدمات إنسانية جليلة، وخرجوا من الدنيا وقد غرسوا من هذه الأعمال الجليلة وراءهم ما تتمتع الأجيال بثمراته دون انقطاع.. فهل العدالة أن يحرم هؤلاء من المكافأة المناسبة على جهودهم وخدماتهم، لمجرد أنهم غير مؤمنين بالله ؟.. وما هو المبرر الإنساني للقرار القرآني القائل في حقهم ﴿وَقَدِمْنَآ إِلَىٰ مَا عَمِلُوا۟ مِنْ عَمَلٍ فَجَعَلْنَٰهُ هَبَآءً مَّنثُورًا ﴿٢٣﴾﴾ [الفرقان: ٢٥/ ٢٣].

وأقول: زيد من الناس استأجر أجيراً على عمل معين، وتم الاتفاق بينهما على أجر معين حدده الأجير لنفسه، وقام الأجير بأداء ما طلب منه على أحسن وجه. ترى هل يستحق الأجير الأجر الذي طلبه وحدده لنفسه أثناء التعاقد على العمل. أم يستحق الأجر الذي يلزمه به أو يقترحه له رب العمل ؟

لا ريب أن هذا السؤال يوجه إلى القانون وأربابه. والجواب المتفق عليه لدى القانونيين كلهم، أن الأجير يستحق الأجر الذي

طلب، وليس من العدل أن يتدخل رب العمل فيلزمه بغير الأجر الذي طلبه.

ولكي يزداد الأمر وضوحاً وينجاب الغموض المحتمل، نقول : أفموقنٌ هذا الذي لا يؤمن بالله، بالجنة ووجودها، حتى يطلبها ويتعلق بها أجراً على عمله الذي قام به ؟ كلنا يعلم الجواب الذي يتمثل في التالي :

لو قيل لهذا الذي لا يؤمن بالله، ولا باليوم الآخر، نسأل الله أن يكرمك بالجنة أجراً على عملك الإنساني الذي خدمت به الأسرة الإنسانية جمعاء، لكان بين أن يثور على ما تَعِدُه به من أوهام، وبين أن يسخر من حديثك عن الله ووعودك التي تبشره بها.

فأي قانون هذا الذي يأمرك أن تلاحقه وتتحمل ثورته عليك أو سخريته منك لتلصق به أجراً لم يطلبه ولا خطر منه على بال؟

فمن أجل هذا يقول الله تعالى عن الجاحدين الذين لم يبتغوا بأعمالهم الصالحة مرضاة الله ومثوبته : ﴿وَٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ أَعۡمَٰلُهُمۡ كَسَرَابِۭ بِقِيعَةٖ يَحۡسَبُهُ ٱلظَّمۡـَٔانُ مَآءً حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءَهُۥ لَمۡ يَجِدۡهُ شَيۡـٔٗا وَوَجَدَ ٱللَّهَ عِندَهُۥ فَوَفَّىٰهُ حِسَابَهُۥۗ وَٱللَّهُ سَرِيعُ ٱلۡحِسَابِ ﴿٣٩﴾﴾ [النور: ٣٩/٢٤] ويقول عنهم أيضاً : ﴿وَقَدِمۡنَآ إِلَىٰ مَا عَمِلُواْ مِنۡ عَمَلٖ فَجَعَلۡنَٰهُ هَبَآءٗ مَّنثُورًا ﴿٢٣﴾﴾ [الفرقان: ٢٣/٢٥].

ولكن هل هذا الذي قضى الله به مما تخضع له موازين

العدالة، يعني أن الله تعالى لا يجزيهم على أعمالهم الصالحة حتى الأجر الذي طلبوه أيضاً ؟

معاذ الله، إن شريعة الله تعالى تلزم المستفيدين من الأعمال الصالحة التي يقوم بها الجاحدون والمنكرون ليوم القيامة، بأن يعطوهم أجورهم التي طلبوها أياً كانت، وأن لا يغمطوهم شيئاً من حقهم. وقانون الشرع الإسلامي يقول في ذلك «أعطوا الأجير أجره قبل أن يجف عرقه»[١] ويقول «لم يشكر الله من لم يشكر الناس»[٢] وليس المراد بشكر الناس على جهودهم الصالحة مجرد الشكر اللساني، بل المراد تقديم المكافأة اللازمة لهم مع الثناء عليهم مقابل جهودهم وأعمالهم.

فإن طلب هذا المخترع أو المبدع، لقاء إبداعه المفيد للإنسانية، إقامة نصب تذكاري له وجبت الاستجابة وإقامته له على الشكل المطلوب، وإن طلب أجراً من المال وجبت المبادرة إلى إعطائه كل ما طلب.

إن هذه القاعدة العادلة جارية في هدي الله تعالى وشرعه، حتى في حق المؤمنين بالله الذين يراؤون في قرباتهم وأعمالهم الصالحة. يقال يوم القيامة لمن جاهد بنفسه في سبيل الله بحسب الظاهر، وكان مبتغاه ثناء الناس عليه بالجرأة : لقد قيل عنك جريءٌ فقد أخذت أجرك. ويقال لمن كان يبتغي من عمله الصالح

---

(١) رواه ابن ماجه من حديث ابن عمر وأبي يعلى في مسنده من حديث أبي هريرة.
(٢) أخرجه الترمذي وحسنه من حديث أب سعيد الخدري، وأخرجه أبو داود وابن حبان من حديث أبي هريرة مرفوعاً كلهم بلفظ «من لم يشكر الناس لم يشكر الله».

رئاسة أو وظيفة أو شهرة : لقد تحقق لك في الدنيا ما ابتغيته فقد أخذتَ أجرك. وقد ورد هذا في الحديث الصحيح المروي عن رسول الله [١]

فإن قلت : ولكن الجاحد يعود عن جحوده يوم القيامة، ويؤمن بالله ويؤمن بالجنة التي كان ينكرها ويستهين بها، ومن ثم فلا ريب أنه سيطلب من الله أن يكرمه بالمثوبة التي ادخرها لعباده المؤمنين، أفليس من مقتضى العدالة والرحمة الإلهية، أن يقبل منه يقظة فكره وإقباله إلى الرشد بعد تقلبه في التيه، وأن يمتن عليه بالجزاء الجديد الذي توجهت نفسه إليه ؟

والجواب : أن الله عز وجل أعلن في قرآنه أنَّ كل من رحل من الدنيا مؤمناً به إلهاً واحداً موقناً بالمغيبات التي أخبر بها من أحداث يوم القيامة، فهو معرَّض لعفو الله ومغفرته مهما كان مثقلاً بالمعاصي والأوزار.. أما من أمضى حياته الدنيا مصراً على

---

(١) روى مسلم في صحيحه من حديث أبي هريرة أن رسول الله قال : إن أول الناس يقضى يوم القيامة عليه، رجل استشهد، فأتي به، فعرّفه بنعمته، فعرفها. قال فما عملت بها ؟ قال : قاتلت فيك حتى استشهدت. قال كذبت. ولكنك قاتلت ليقال عنك جرئي، فقد قيل، ثم أمر به فسحب على وجهه حتى ألقي به في النار. ورجل تعلم العلم وعلّمه وقرأ القرآن فأتي به فعرّفه نعمه فعرفها. قال فما عملت بها ؟ قال تعلمت العلم وعلمته وقرأت فيك القرآن. قال كذبت ولكنك تعلمت ليقال عنك عالم وقرأت القرآن ليقال هو قارئ. فقد قيل. ثم أمر به فسحب على وجهه حتى ألقي في النار. ورجل وسع الله عليه وأعطاه من أصناف المال، فأتي به فعرفه نعمه فعرفها. قال فما عملت بها ؟ قال ما تركت من سبيل تحب أن يُنفق فيها إلا أنفقت فيها لك. قال كذبت. ولكنك فعلت ليقال هو جواد. فقد قيل ثم أمر به فسحب على وجهه ثم ألقي في النار.

الجحود مستكبراً على الحق على الرغم من التذكير به والدعوة إليه، فقد قضى الله قضاءه المبرم بألا يغفر له، وألا يقبل منه صرفاً ولا عدلاً. قرأنا قراره هذا في قوله عز وجل : ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَغۡفِرُ أَن يُشۡرَكَ بِهِۦ وَيَغۡفِرُ مَا دُونَ ذَٰلِكَ لِمَن يَشَآءُۚ﴾ [النساء: ٤/٤٨].

فالفريق الأول قد ينال هذا الذي يرجوه ويأمل به، وإنما رأس ماله ومصدر رجائه إيمانه الغيبيُّ الذي رحل به إلى الله عز وجل. أما الفريق الثاني وهو الذي رحل إلى الله مستكبراً عليه وعلى أوامره وشرعه، فليس له عند الله إلا العقاب الذي ادخره له وتوعده به إذ كان عاكفاً على لهوه وعتوه في الدنيا.

وأحيلُ هذا المعترض المحامي عن فريق الجاحدين والمستكبرين، مرة أخرى إلى القوانين الوضعية وأربابها، هل فيها قانون يقول : إن العامل إذا أنجز عمله بموجب العقد المتفق عليه والذي اشترط فيه أجراً معيناً لنفسه، هل له أن يعود عما طلبه واشترطه لنفسه وأن يطلب من رب العمل أجراً آخر ؟ وهل على رب العمل أن يستجيب له في ذلك ؟

★ ★ ★

وبعد، فلعلك علمت مما ذكرته أكثر من مرة أن المراد بالكافر الذي حجبه كفره عن رحمة الله ومغفرته، ذاك الذي حجبه استكباره عن الإقرار بالحق وقد علمه واستيقنته نفسه، فكان ممن قال الله عنهم ﴿وَجَحَدُواْ بِهَا وَٱسۡتَيۡقَنَتۡهَآ أَنفُسُهُمۡ ظُلۡمٗا وَعُلُوّٗاۚ﴾ [النمل: ٢٧/ ١٤].

فأما الجاهل الذي حجبه جهله عن معرفة الحقيقة الكونية المعلنة عن وجود الله، والذي حيل بينه وبين الوصول إليها، فداخل فيمن صدق عليه قول الله تعالى ﴿وَمَا كُنَّا مُعَذِّبِينَ حَتَّىٰ نَبْعَثَ رَسُولًا﴾ [الإسراء: ١٧/ ١٥] وفيمن صدق عليهم قوله عز وجل ﴿رُّسُلًا مُّبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ لِئَلَّا يَكُونَ لِلنَّاسِ عَلَى ٱللَّهِ حُجَّةٌۢ بَعْدَ ٱلرُّسُلِۚ وَكَانَ ٱللَّهُ عَزِيزًا حَكِيمًا ﴿١٦٥﴾﴾ [النساء: ٤/ ١٦٥].

وفي الناس اليوم كثرة متناثرة في جهات شتى من العالم، يصدق عليهم هذا العذر الذي أنبأ عنه الله عز وجل.. فلعلهم يدخلون يوم القيامة في عداد المغفور لهم الذين شملهم قوله عز وجل ﴿وَمَا كُنَّا مُعَذِّبِينَ حَتَّىٰ نَبْعَثَ رَسُولًا﴾.

هل في القرآن ما يناقض خلق الله الكون في ستة أيام ؟

يقول قائلهم :

القرآن يقرر أن الله خلق السماوات والأرض وما بينهما في ستة أيام، فيقول مثلاً ﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَا ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا فِى سِتَّةِ أَيَّامٍ وَمَا مَسَّنَا مِن لُّغُوبٍ ﴿٣٨﴾﴾ [ق: ٥٠/٣٨] وهذا القرار مكرر في القرآن. ولكنه يقرر من خلال كلام أكثر تفصيلاً في سورة «فصلت» أن السماوات والأرض إنما خلقت في ثمانية أيام. وهذا تناقض بيّن لا يحتمل تأويلاً. فكيف يكون القرآن كلام الله وفيه مثل هذا التناقض ؟

وأقول: حديث هؤلاء الناس عن التناقض في إخبار القرآن عن أيام خلق السماوات والأرض ليس كالتناقض الذي نسبوه إلى القرآن عند حديثه عن خلق الله الإنسان من تراب من طين من صلصال.. وليس كالتناقض الذي فهموه من حديث القرآن عن المشرق والمغرب، والمشرقين والمغربين، والمشارق والمغارب.

وقد مرّ بيان تهافت هؤلاء الناس في الفهم جهلاً منهم إن حسنا الظن، وتجاهلاً إن جنحنا إلى سوء الظن.

إليك الآيات التي هي أكثر تفصيلاً في بيان الزمن الذي استغرقه خلق السماوات والأرض وما بينهما، أي خلق سائر المكونات. يقول الله تعالى :

﴿ ۞ قُلْ أَئِنَّكُمْ لَتَكْفُرُونَ بِالَّذِي خَلَقَ الْأَرْضَ فِي يَوْمَيْنِ وَتَجْعَلُونَ لَهُ أَندَادًا ذَٰلِكَ رَبُّ الْعَالَمِينَ ﴿٩﴾ وَجَعَلَ فِيهَا رَوَاسِيَ مِن فَوْقِهَا وَبَارَكَ فِيهَا وَقَدَّرَ فِيهَا أَقْوَاتَهَا فِي أَرْبَعَةِ أَيَّامٍ سَوَاءً لِّلسَّائِلِينَ ﴿١٠﴾ ثُمَّ اسْتَوَىٰ إِلَى السَّمَاءِ وَهِيَ دُخَانٌ فَقَالَ لَهَا وَلِلْأَرْضِ ائْتِيَا طَوْعًا أَوْ كَرْهًا قَالَتَا أَتَيْنَا طَائِعِينَ ﴿١١﴾ فَقَضَاهُنَّ سَبْعَ سَمَاوَاتٍ فِي يَوْمَيْنِ وَأَوْحَىٰ فِي كُلِّ سَمَاءٍ أَمْرَهَا وَزَيَّنَّا السَّمَاءَ الدُّنْيَا بِمَصَابِيحَ وَحِفْظًا ذَٰلِكَ تَقْدِيرُ الْعَزِيزِ الْعَلِيمِ ﴿١٢﴾ ﴾ [فصلت: ٤١/٩-١٢]

إن الشبهة التي سرت إلى أذهان بعض الناس ممن لم يتمتعوا بالملكة العربية ووجوه التعبير فيها إنما سرت إليهم من قوله تعالى ﴿وَجَعَلَ فِيهَا رَوَاسِيَ مِن فَوْقِهَا وَبَارَكَ فِيهَا وَقَدَّرَ فِيهَا أَقْوَاتَهَا فِي أَرْبَعَةِ أَيَّامٍ﴾ وذلك بعد أن قال : ﴿قُلْ أَئِنَّكُمْ لَتَكْفُرُونَ بِالَّذِي خَلَقَ الْأَرْضَ فِي يَوْمَيْنِ﴾ فالمجموع إذن ستة أيام، فإذا أضيف إليها اليومان اللذان استغرقهما خلق السموات، فيما ذكره البيان الإلهي بعد ذلك، فهي إذن ثمانية أيام كاملات.

أين يكمن الوهم ؟.. إنه يكمن في سوء فهم الآية الثانية التي تتحدث عن خلق ما فوق الأرض من رواسٍ وما في داخلها من

أقوات.. إنّ الأيام الأربعة التي ختمت بها هذه الآية هي الزمن الذي استغرقه خلق الأرض بكل ما عليها من جبال وما فيها من أقوات.

وهذا كما لو قلت - ولله المثل الأعلى - لقد استغرق الهيكل العظمي لهذا البناء ستة أشهر، ولقد تكامل بعد ذلك كسوة ومكملات في عام كامل.. من الواضح لكل بصير باللغة العربية أن العام الكامل هو مدة إنشاء البناء من التأسيس إلى الكمال النهائي. وليس في أصحاب السليقة العربية من يفهم من هذا الكلام بهذه الصياغة أن الذي استغرق من الزمن عاماً كاملاً إنما هو مرحلة الإكساء وحدها أي فيكون المجموع عاماً ونصف عام. لا يعلق هذا الفهم السقيم إلا بذي ذوق أعجمي ولسان يعاني من ركاكة النطق.

عد بعد هذا التقريب الذي لا يحتاج إليه - كما قلنا - إلا من يعاني ذهنه من فهاهة العجمة، إلى بيان الله تعالى لتتبيّن التعبير المشرق الدال على المعنى المقصود المتفق مع بيان الله عن ميقات خلق المكونات في الأماكن الأخرى من القرآن.

إنه يقول : ﴿قُلْ أَئِنَّكُمْ لَتَكْفُرُونَ بِالَّذِى خَلَقَ الْأَرْضَ فِى يَوْمَيْنِ﴾ إذن فالهيكل الأولي للأرض خلق في يومين. ثم أضاف فقال : ﴿وَجَعَلَ فِيهَا رَوَاسِىَ مِن فَوْقِهَا وَبَـٰرَكَ فِيهَا وَقَدَّرَ فِيهَآ أَقْوَٰتَهَا فِىٓ أَرْبَعَةِ أَيَّامٍ﴾ إذن فتكامل خلق الأرض تأسيساً لهيكلها وإتماماً لمتطلباتها وما يحتاج الإنسان إليه منها، في أربعة أيام. ويضاف إليها اليومان اللذان استغرقهما خلق السموات، كما ذكرته الآية

الأخيرة. فيكون المجموع ستة أيام. وهو ما يقرره بيان الله في الآيات والسور الأخرى.

وأقول هنا بالمناسبة : إن في الناس من يدخل وهمه في تفسير الأيام الستة التي ذكرها الله تعالى ميقاتاً استغرقه خلق المكونات، فيؤولها بالدورات الفلكية، أي يجعل من كل يوم دورة فلكية برأسها. ليقرّب بذلك كلام الله تعالى إلى ما يقوله أصحاب الافتراضات والنظريات العلمية اليوم عن المدة التي استغرقها خلق السماوات والأرض وما بينهما.

إن هذا التأويل لكلمة «الأيام» في كتاب الله تعالى افتراض باطل لا دليل عليه ولا موجب له. والاحتجاج بالحاجة إلى تقريب معنى «الأيام» إلى الدورات الفلكية أوغل في الفساد والبطلان. فمتى ثبت علمياً الزمن الذي استغرقه إيجاد الله لهذه المكونات، حتى نجعل منه إماماً لكلام الله وحجة لتأويله ؟

عجيب شأن من ينظر إلى التخيلات العلمية هذه النظرة المقدسة، وسرعان ما يحيل الخيال والوهم إلى قانون علمي ثابت، ثم يمضي يدير كلام رب العالمين بالتطواف على تلك الأخيلة، بل يزيد على ذلك فيسابق المتخيلين والمتوهمين، زاعماً أن القرآن سبقهم إلى ما يقولون فأثبت لنفسه بذلك الإعجاز العلمي الذي أغلق على الباحثين طرق السبق عليه إلى أنباء الكون وقوانينه.. ولعله لا يعلم أنه بهذا السباق اللاهث الذي يسوق في مضماره كلام الله تعالى ليقطع الطريق على الباحثين في أسبقية بحوثهم، يزيدهم كراهية وسوء ظن بكتاب الله عز وجل.

أوهام الباحثين في هذا المضمار لها ساحتها الواسعة، يعودون منها كل يوم بجديد مختلف عما توهموه في أمسهم الدابر.. أما كلام الله فيسمو في أحكامه وأخباره فوق ذلك كله.. ويصك أسماع التائهين في افتراضاتهم وقراراتهم الوهمية بكلامه الرباني القائل : ﴿ ۞ مَّآ أَشْهَدتُّهُمْ خَلْقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَلَا خَلْقَ أَنفُسِهِمْ وَمَا كُنتُ مُتَّخِذَ ٱلْمُضِلِّينَ عَضُدًا ﴿٥١﴾ ﴾.

إذن الأيام في إخبار الله تعالى عن خلقه للسماوات والأرض هي الأيام.. لا نتزيد في كلامه، ولا نحمله أثقالاً من التأويلات والأوهام إرضاء لأصحاب النظريات العلمية المتناسخة.

ليلة القدر ومشكلة تحديدها

يقول قائلهم :

يتحدث القرآن عما يسميه ليلة القدر ويؤكد أنها خير من ألف شهر، وأن الملائكة تتنزل فيها من كل أمر، وأنها سلام حتى مطلع الفجر.. وهذا يعني أنها ذات ميقات محدد واحد في العالم كله.. غير أن مما هو ثابت بداهة أن مواقيت الأيام والليالي دائرة متوالية على الكرة الأرضية.

فساعات الليل هنا هي ساعات النهار في الجهة المقابلة. أليس هذا دليلاً على أن كلام القرآن شارد عن الحقائق الأولية للعلم؟..

وأقول: ليس بين الأزمنة أي اختلاف في جوهرها، وليس بينها أي تفاوت في فضلها. بل هي من حيث القيمة الذاتية واحدة. ونحن نعني بالزمان هنا حركة الفلك، ولا نقصد المعنى الفلسفي له. إذ هو من هذا الجانب وهم لا وجود له، وإنما هو مقياس افتراضي لحركة الموجودات.. فليلة القدر وليلة الجمعة ويوم عرفة وأيام رمضان، ذات قيمة واحدة من حيث الجوهر الذاتي، ومن حيث الحقيقة الزمنية.

كذلك الأمكنة.. ليس بين مكان ومكان آخر أي اختلاف أو تفاوت في الأفضلية. من حيث جوهر المكان وطبيعته. فأرض عرفة وأرض مكة ومثوى رسول الله، من حيث التربة وذات المكان شيء واحد، القيمة والمزايا فيها واحدة، اللهم إلا ما يتعلق من ذلك بمدى صلاحية التربة للاستنبات، أو ما قد يوجد فيها من المعادن والطاقات المفيدة.

إذن فمن أين جاءت أفضلية زمن على آخر ؟ من أين جاءت أفضلية ليلة القدر على غيرها ؟

إن أفضليتها جاءت من تجليات الله تعالى على عباده فيها بالرحمة والصفح واستجابة الدعاء وتفريج الكروب، فاكتست لذلك هذه المزية العارضة الآتية من فضل الله. وليس في ذات ذلك الزمن ما يستدعي تنزل الرحمات الإلهية فيها على عباده، فإن الأزمنة كلها في ذلك سواء.

وإذا اتضح لك هذا زال الإشكال الذي يتصوره أو يصوره بعض الناس. فإن الليلة التي يختارها الله مثابة رحمة تتنزل فيها على عباده هنا، يختارها الله تعالى لآخرين في ميقات آخر. وربما كان ذلك الميقات ليلاً هناك ونهاراً هنا.

ألا تعلم أن ليلة القدر هذه التي نوه الله تعالى بمزيتها في سورة مستقلة في كتابه، تنتقل بين ليالي شهر رمضان ما بين كل عام وآخر. وما ذلك إلاّ لأن الفضل ليس كامناً في طبيعة ليلة بذاتها، إذن لبقيت هي ذاتها ليلة القدر إلى قيام الساعة. ولكنه

تفضل من الله يتوجه به إلى عباده في الوقت الذي يشاء... فكما أن ليلة القدر هذه تنتقل بين ليالي رمضان ما بين عام وآخر، فإنها تنتقل أيضاً بين بقاع الكرة الأرضية حسب ما يتقاسمها توالي الليل والنهار.

وقد صح أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : التمسوها، أي ليلة القدر، في ليالي العشر الأخير من رمضان.. إن من الواضح أن هذا خطاب للناس جميعاً على اختلاف بقاعهم، أي فعلى كلٍ أن يلتمس ليلة القدر في تلك الليالي، حسب البقعة التي هو فيها من الأرض.

والله عز وجل يقول عن الصالحين من عباده وعن سبب ما ادخره لهم من أجر عظيم يوم القيامة ﴿كَانُوا۟ قَلِيلًا مِّنَ ٱلَّيْلِ مَا يَهْجَعُونَ ﴿١٧﴾ وَبِٱلْأَسْحَارِ هُمْ يَسْتَغْفِرُونَ ﴿١٨﴾﴾ [الذاريات: ٥١/١٧-١٨].

وقد علم الله تعالى أن ساعات الأسحار متوالية وراء بعضها في الكرة الأرضية، كما أن ما قبلها وما بعدها هي الأخرى متتابعة دائماً.

ويقول المصطفى صلى الله عليه وسلم فيما صح عنه : «ينزل الله تعالى كل ليلة إلى سماء الدنيا حين يبقى ثلث الليل الأخير فيقول عز وجل : من يدعوني فأستجيب له، من يسألني فأعطيه، من يستغفرني فأغفر له..» (١) وقد علم الله تعالى أن

(١) متفق عليه من حديث أبي هريرة، بألفاظ متقاربة.

ثلث الليل الأخير تتوازعه ساعات الليل والنهار في جنبات الأرض كلها.

إن المعنى الذي تتضمنه هذه النصوص كلها، أنه ما من ساعة إلا ولله تجليات على عباده فيها بالرحمة والمغفرة واستجابة الدعاء.. ولكي لا يعرض الناس عن وظائفهم وأسباب معايشهم، مقبلين في ساعات أعمارهم كلها، باستمرار إلى الله عز وجل بالعبادة والصلاة والدعاء، ونظراً إلى أنه ما من ساعة تمرّ بهم إلا ولله فيها تجليات رحمانية على عباده - اقتضت رحمة الله وألطافه بعباده، أن تكون هذه الساعات دائرة في بقاع الأرض ومتنقلة من زمن إلى آخر، تزور الناس في بقاعهم بقعة إثر أخرى، وتقبل عليهم في مواقيتهم المتوالية المحددة. وبذلك يشترك الناس جميعاً في فرص التعرض للرحمات الإلهية من حيث الأزمنة والأمكنة المتوالية دون أن يستدعي ذلك منهم تعطيل أنفسهم والإعراض عن أسباب معايشهم.

نقول هذا كله لنؤكد ما هو ثابت بالبداهة، من أن فضيلة ليلة القدر ليست منبثقة من ذاتها وجوهرها، حتى يرد الإشكال الذي يورده المستشكلون، وإنما هي عارضة لها، أينما وجدت ومهما تكررت مع امتداد الليل وراء النهار، بسبب إقبال الله على عباده فيها بالمغفرة والرحمة والإكرام واستجابة الدعاء.

ولك أن تسأل بعد هذا البيان : ولكن القرآن يقول : إنا أنزلناه في ليلة القدر. ومعناه أن بداءة نزول القرآن كانت في ليلة بعينها، وبتعبير أدق : كانت بداءة نزول القرآن في ليلة معينة من

ليالي القدر الكثيرة التي تقاسمتها بقاع الأرض، ففي أي واحدة منها كانت بداءة نزول القرآن.

والجواب أن نزول القرآن إنما كان على قلب محمد رسول الله خاتم الرسل والنبيين، ونظراً إلى أن محمداً صلى الله عليه وسلم كان آنذاك في مكة. إذن فليلة القدر التي نزل فيها القرآن، هي تلك الكامنة في ليلة من ليالي شهر رمضان في الجزيرة العربية.

وانطباق ليلة القدر على مواقيت وأماكن أخرى من الأرض في تلك السنة، لا يضير الحقيقة شيئاً، ولا يتناقض أو يتشاكس مع كلام الله القائل: ﴿إِنَّآ أَنزَلْنَٰهُ فِى لَيْلَةِ ٱلْقَدْرِ ١﴾ [القدر: ٩٧/١].

الرسل وتفضيل القرآن بعضهم على بعض..

يقول قائلهم :

وهذا لون آخر من ألوان التناقض في القرآن : بينما تقرأ فيه قوله ﴿لَا نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِّن رُّسُلِهِۦ﴾ [البقرة: ٢/ ٢٨٥] إذا بك تصل إلى قوله ﴿فَضَّلْنَا بَعْضَهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ﴾ [البقرة: ٢/ ٢٥٣] فلو قلت : الرسل كلهم ذوو مكانة ودرجة واحدة عند الله، خالفت الآية التي تقول ﴿فَضَّلْنَا بَعْضَهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ﴾ ولو قلت : إنهم متفاوتون في العلو والدرجة، خالفت بهذا الآية التي تقول : ﴿لَا نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِّن رُّسُلِهِۦ﴾.

وأقول: ما من مشكلة تعرض إلا وتجد علاجاً لها، إلا مشكلة واحدة ثبت أن لا علاج لها، هي الفهم السقيم المنبثق من أصل الكينونة والخلق .

ويرحم الله من قال :

وكم من عائب قولاً صحيحاً
وآفته من الفهم السقيم

ليس بين الآيتين إلا منتهى الانسجام والتوافق. الآية الأولى تقرر أن سائر الرسل الذين أرسلهم الله إلى أقوامهم، والذين

خُتموا بمحمد صلى الله عليه وسلم الذي أرسل إلى الناس كافة، صادقون فيما أخبروا به، أمناء فيما بلغوه عن الله. لم يجعل الله فيهم من تجب الاستجابة لدعوته ومن لا تجب الاستجابة لدعوته، بل أمر باتباعهم والإيمان بهم جميعاً. وأمر اللاحقين بالإيمان بالسابقين منهم، كما أمر السابقين بالإيمان بكل اللاحقين من الأنبياء والرسل الآتين من بعدهم فقال: ﴿وَإِذْ أَخَذَ ٱللَّهُ مِيثَٰقَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ لَمَآ ءَاتَيْتُكُم مِّن كِتَٰبٍ وَحِكْمَةٍ ثُمَّ جَآءَكُمْ رَسُولٌ مُّصَدِّقٌ لِّمَا مَعَكُمْ لَتُؤْمِنُنَّ بِهِۦ وَلَتَنصُرُنَّهُۥ قَالَ ءَأَقْرَرْتُمْ وَأَخَذْتُمْ عَلَىٰ ذَٰلِكُمْ إِصْرِى قَالُوٓا۟ أَقْرَرْنَا قَالَ فَٱشْهَدُوا۟ وَأَنَا۠ مَعَكُم مِّنَ ٱلشَّٰهِدِينَ ﴿٨١﴾﴾ [آل عمران: ٣/ ٨١].

فهذا معنى قوله تعالى: ﴿لَا نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِّن رُّسُلِهِۦ﴾ وهو يتضمن الإنكار على من آمن بمن شاء أن يؤمن به منهم وكفر بمن طاب له أن يكفر بهم. ألا ترى إلى قوله عز وجل ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ فَرَّقُوا۟ دِينَهُمْ وَكَانُوا۟ شِيَعًا لَّسْتَ مِنْهُمْ فِى شَىْءٍ﴾ [الأنعام: ٦/١٥٩] وإلى قوله سبحانه وتعالى ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يَكْفُرُونَ بِٱللَّهِ وَرُسُلِهِۦ وَيُرِيدُونَ أَن يُفَرِّقُوا۟ بَيْنَ ٱللَّهِ وَرُسُلِهِۦ وَيَقُولُونَ نُؤْمِنُ بِبَعْضٍ وَنَكْفُرُ بِبَعْضٍ وَيُرِيدُونَ أَن يَتَّخِذُوا۟ بَيْنَ ذَٰلِكَ سَبِيلًا ﴿١٥٠﴾ أُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْكَٰفِرُونَ حَقًّا وَأَعْتَدْنَا لِلْكَٰفِرِينَ عَذَابًا مُّهِينًا ﴿١٥١﴾ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ بِٱللَّهِ وَرُسُلِهِۦ وَلَمْ يُفَرِّقُوا۟ بَيْنَ أَحَدٍ مِّنْهُمْ أُو۟لَٰٓئِكَ سَوْفَ يُؤْتِيهِمْ أُجُورَهُمْ وَكَانَ ٱللَّهُ غَفُورًا رَّحِيمًا ﴿١٥٢﴾﴾ [النساء: ٤/ ١٥٠-١٥٢].

أي إن هؤلاء الذين فرقوا بين الرسل الذين أرسلهم الله تعالى فآمنوا ببعضهم وكفروا بآخرين خالفوا أمر الله إذ أمر بالإيمان

بهم جميعاً، فكان كفرهم بالله قبل كفرهم بالأنبياء الذين كذبوهم وكفروا بهم.

أما الآية الثانية وهي قوله تعالى: ﴿تِلْكَ ٱلرُّسُلُ فَضَّلْنَا بَعْضَهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ﴾ فذات دلالة أخرى مختلفة كل الاختلاف عن المعنى الذي تضمنته الآية الأولى، وليس بينهما أي علاقة أو تشابه.

وإن ما بعد هذه الجملة من الآية يبرز لك المعنى المراد بها والمختلف اختلافاً جذرياً عما تتحدث عنه الآية الأولى. تأمل في هذه الجملة وما بعدها: ﴿تِلْكَ ٱلرُّسُلُ فَضَّلْنَا بَعْضَهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ مِّنْهُم مَّن كَلَّمَ ٱللَّهُ وَرَفَعَ بَعْضَهُمْ دَرَجَٰتٍ وَءَاتَيْنَا عِيسَى ٱبْنَ مَرْيَمَ ٱلْبَيِّنَٰتِ وَأَيَّدْنَٰهُ بِرُوحِ ٱلْقُدُسِ﴾ أي إن من كلمه الله مباشرة منهم أعلى درجة عند الله ممن لم يتبوأ هذه المنزلة. كما ميز الله عيسى ابن مريم بالبينات التي خصه بها وبأن أيده بروح القدس.. كما فضل الله إبراهيم على كثير من الرسل والأنبياء بالخلة التي ميزه بها إذ قال: ﴿وَٱتَّخَذَ ٱللَّهُ إِبْرَٰهِيمَ خَلِيلًا﴾ [النساء: ٤/١٢٥] وفضل محمداً على سائر الرسل والأنبياء، بأن أرسله للناس كافة، وبالثناء الذي أثنى عليه به في قرآنه. وبالشفاعة العظمى التي خصه الله بها يوم القيامة.

إذن فقد شاء الله تعالى أن يكون الرسل والأنبياء الذين بعثهم على مر العصور متفاوتين في درجاتهم وقربهم من الله عز وجل.. والجامع المشترك بينهم أنهم جميعاً مؤيدون بالوحي من الله عز وجل، وأن على الناس أن يؤمنوا بهم جميعاً أي أن يؤمنوا بأنهم رسل أرسلوا إلى أقوامهم، وأنهم جميعاً بعثوا بعقيدة واحدة.

وصدق الله القائل ﴿وَمَآ أَرۡسَلۡنَا مِن قَبۡلِكَ مِن رَّسُولٍ إِلَّا نُوحِيٓ إِلَيۡهِ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّآ أَنَا۠ فَٱعۡبُدُونِ ﴿٢٥﴾﴾ [الأنبياء: ٢١/٢٥] وصدق الله القائل: ﴿شَرَعَ لَكُم مِّنَ ٱلدِّينِ مَا وَصَّىٰ بِهِۦ نُوحٗا وَٱلَّذِيٓ أَوۡحَيۡنَآ إِلَيۡكَ وَمَا وَصَّيۡنَا بِهِۦٓ إِبۡرَٰهِيمَ وَمُوسَىٰ وَعِيسَىٰٓۖ أَنۡ أَقِيمُواْ ٱلدِّينَ وَلَا تَتَفَرَّقُواْ فِيهِۚ﴾ [الشورى: ٤٢/١٣].

وإنما اختلفوا في التشريعات والأحكام السلوكية المنوطة بالمصالح وتطور الظروف والأزمان، وإنما كان ذلك بوحي من الله إليهم. تأمل كيف تتجلى وحدة العقيدة في الوحي الذي أيدهم الله به، واختلاف الشرائع أو بعضها فيما أوحى الله أيضاً به إليهم، في هذا الذي قاله عيسى بن مريم عليه الصلاة والسلام لبني إسرائيل ﴿وَرَسُولًا إِلَىٰ بَنِيٓ إِسۡرَٰٓءِيلَ أَنِّي قَدۡ جِئۡتُكُم بِـَٔايَةٖ مِّن رَّبِّكُمۡ أَنِّيٓ أَخۡلُقُ لَكُم مِّنَ ٱلطِّينِ كَهَيۡـَٔةِ ٱلطَّيۡرِ﴾ [آل عمران: ٣/ ٤٩] إلى أن قال ﴿وَمُصَدِّقٗا لِّمَا بَيۡنَ يَدَيَّ مِنَ ٱلتَّوۡرَىٰةِ وَلِأُحِلَّ لَكُم بَعۡضَ ٱلَّذِي حُرِّمَ عَلَيۡكُمۡۚ وَجِئۡتُكُم بِـَٔايَةٖ مِّن رَّبِّكُمۡ فَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَأَطِيعُونِ ﴿٥٠﴾﴾ [آل عمران: ٣/ ٥٠].

* * *

إذن فالآية التي يقول الله عز وجل فيها ﴿لَا نُفَرِّقُ بَيۡنَ أَحَدٖ مِّن رُّسُلِهِۦۚ﴾ تأكيد لنبوتهم جميعاً ومن ثم لا يجوز لأحد التفريق بينهم بأن يصدق بعضهم ويكذب بعضهم.. كيف، وهم جميعاً إنما بعثوا بعقيدة واحدة، عن الكون والإنسان والحياة.

والآية التي يقول الله فيها ﴿تِلۡكَ ٱلرُّسُلُ فَضَّلۡنَا بَعۡضَهُمۡ عَلَىٰ بَعۡضٖ﴾

بيان لما هو معروف من أن درجاتهم عند الله متفاوتة، وهي حقيقة لا تخفى على أحد. ومظاهر التفاوت وأسبابه بينة معروفة ذكرنا الآن بعضاً منها.

وأعود فأقول مرة ثانية :

وكم من عائب قولاً صحيحاً
وآفته من الفهم السقيم

يخلق الله عمل الإنسان ثم يعاقبه عليه !!..

يقول قائلهم :

أين هي عدالة الله فيما يقرره القرآن من أن الله هو الخالق لأفعال الناس : ﴿وَٱللَّهُ خَلَقَكُمْ وَمَا تَعْمَلُونَ ﴿٩٦﴾﴾ [الصافات: ٣٧/ ٩٦] مع ما يقرره من معاقبة العاصين بأعمالهم ؟ كيف يخلق الله أعمالهم، ثم يجعلها مناط جزاء ؟ أليس هذا تعسفاً في الحكم وظلماً في المعاملة ؟

وأقول: قبل أن أجيب عن هذا الاعتراض ينبغي أن أعيد إلى الذاكرة ما سبق أن أوضحته - وهو واضح لمن يتبصر الأمر- من أن الظلم لا يُتصور في ذات الله عز وجل. لأن الظلم هو التصرف بحق الغير بغير إذنه. والكون كله بكل ما فيه حق الله وملكه، هو الذي أوجده بمحض مشيئته من العدم، وهو الذي يعيده بمحض مشيئته إلى العدم. فأين هي النافذة التي يتسرب منها الظلم إلى الله ؟

إذن فالرد الآتي على هذا الاعتراض، ليس لإثبات عدالة الله التي هي ثابتة على كل حال، وإنما هو لإزالة الوهم الذي سرى إلى عقول هؤلاء المعترضين، وهو ما يتصورونه من أن الجزاء

الذي يناله الإنسان يوم القيامة، إنما هو على أفعاله العضوية الصادرة منه. فأقول :

أولاً : قول الله تعالى : ﴿وَٱللَّهُ خَلَقَكُمْ وَمَا تَعْمَلُونَ ﴿٩٦﴾﴾ ليس هو الدليل على أن الله هو الخالق لأفعال عباده. ذلك لأن «ما» في هذه الآية موصولة وليست مصدرية، والمعنى : والله خلقكم والأصنام التي تنحتونها وتعملونها. والآية مما ينقله الله تعالى من حديث إبراهيم لقومه : ﴿قَالَ أَتَعْبُدُونَ مَا تَنْحِتُونَ ﴿٩٥﴾ وَٱللَّهُ خَلَقَكُمْ وَمَا تَعْمَلُونَ ﴿٩٦﴾﴾ [الصافات: ٣٧/ ٩٥-٩٦].

أما الدليل على أن أفعال الناس بخلق الله لها، فقوله عز وجل ﴿وَخَلَقَ كُلَّ شَيْءٍ وَهُوَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ﴾ [الأنعام: ٦/ ١٠١] وقوله تعالى ﴿وَخَلَقَ كُلَّ شَيْءٍ فَقَدَّرَهُۥ تَقْدِيرًا﴾ [الفرقان: ٢٥/ ٢] ذلك لأن ما يصدر عن الإنسان داخل في عموم الأشياء. والأشياء كلها بخلق الله كما يقرر بيانه.

ولكن هل الأفعال التي تصدر عن الإنسان هي مناط الجزاء، أي الثواب أو العقاب ؟ لا.. ليست هي المناط كما يظن السطحيون. لو كانت هي المناط لاستوى المختار في عمله والمجبر عليه. ومن الواضح أنهما لا يستويان.. المختار هو الذي يجازى والمجبر ليس مناط أجر ولا جزاء.

إن مناط الجزاء في كيان الإنسان، إنما هو قصده المستكن في أغوار نفسه، وليس العمل المادي إلا شاهداً على القصد المطوي في كيانه. وإليك شرح هذا الكلام بشيء من التفصيل:

إن تلبّس الإنسان بفعل ما يحتاج إلى أمرين اثنين :

الأمر الأول :- وجود المقومات المادية والمعنوية التي لابدّ منها لصدور الفعل، من الأعضاء والقدرة المبثوثة في داخل الجسم والسارية فيها، والوسائل الخارجية التي يتوقف عليها ولادة الفعل وصدوره، كالقلم والورق للكتابة، والطعام للأكل، والهواء للتنفس.

الأمر الثاني : انبعاث القصد إلى استخدام الأعضاء وما فيها من قوة مع الأدوات الخارجية الأخرى لإيجاد الفعل المطلوب.

فالأمر الأول مخلوق كله لله عز وجل، أي إن الله هو الخالق للعناصر التي لابدّ منها لولادة الفعل وظهوره. وهي الأعضاء والقوة السارية فيها والأدوات الخارجية التي لابدّ منها.

ولكن هب أن هذه العناصر كلها موجودة مهيأة لديك، بما فيها القوة السارية في الأعضاء. هل يعني ذلك وحده أنك قد فعلت شيئاً؟ من الواضح أن تكامل هذه العناصر كلها لا يعني ولادة الفعل ووجوده على صعيد الواقع. والسبب في ذلك أن الأمر الثاني لم يتحقق.

والأمر الثاني - كما علمت - انبعاث القصد إلى استخدام هذه العناصر بما فيها القوة، لإيجاد الفعل المراد وتنفيذه، وهذا الانبعاث الداخلي الذي قد نسميه العزم، أو التوجه، أو الاختيار، أو اتخاذ القرار، هبة من الله متّع بها الإنسان، جعله بها مريداً مختاراً، وجعلها مناط وأساس التكليف للإنسان.

فإذا توجه قصد الإنسان إلى القيام بفعل ما، وعزم على تنفيذ ذلك الفعل بدون تأخير، أخضع الله لعزمه تلك العناصر التي ذكرناها، وأجرى ذلك الفعل على يديه.

إذن فمادة الفعل وعناصره بخلق الله، واستيلادُه حصولاً وتنفيذاً ثمرةٌ لقصد الإنسان وعزمه.. ولما كان الشيء الذي ينسب من ذلك كله إلى الشخص الفاعل إنما هو قصده وعزمه، فقد كان ذلك هو مصدر الجزاء في أفعاله.

وإذا عدت إلى كتاب الله تتدبر قراره بهذا الشأن، رأيته يربط الثواب والعقاب بالقصد لا بالفعل وعناصره التي هي من خلق الله. فيقول: ﴿لَا يُكَلِّفُ ٱللَّهُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا لَهَا مَا كَسَبَتْ وَعَلَيْهَا مَا ٱكْتَسَبَتْ﴾ [البقرة: ٢/٢٨٦] ويقول ﴿وَلَٰكِن يُؤَاخِذُكُم بِمَا كَسَبَتْ قُلُوبُكُمْ﴾ [البقرة: ٢/٢٢٥] والكسب هو تحري الشيء بالقصد إليه والعزم على فعله، سواء كان المكتسب خيراً أو شراً.

ولو كان الجزاء الإلهي، على عناصر الأفعال الصادرة من أصحابها بعد الذي علمناه من أن هذه العناصر كلها بخلق الله، لاستدعى ذلك أن نقول بأن الله هو الفاعل لها لا الإنسان، وعندئذ ينسب كل ما يصدر عن الإنسان من المعاصي والطاعات إلى الله فيقال: الله هو الذي صلى أو صام أو سرق أو بغى.. تعالى الله عن ذلك علواً كبيراً.

إن الذي يزيح هذا الوهم عن العقل ما أوضحته لك من أنَّ تكامل عناصر الفعل لا يعني ولادة الفعل، ومن ثم فإن هذه

العناصر ليست بحد ذاتها مناط ثواب ولا عقاب. وإنما الذي يحيل هذه العناصر إلى فعل صادر منفذ، توجه القصد الذي يرقى إلى درجة العزم، إلى استخدام هذه العناصر لاستيلاد الفعل منها. وهذا التوجه إنما هو من الإنسان بموجب الهبة التي منحه الله إياها، ومن ثم فهو مصدر الثواب والعقاب وسبب كل منهما[١].

★ ★ ★

ولكن هذا الذي أوضحته قد ينبه هذا المعترض إلى اعتراض آخر يقف عنده متصوراً أنه قد وقع من ذلك على أمنية غالية لا مفرّ منها !.. قد يقول : إن الدليل الذي اعتمدت عليه في الجزم بأن فعل الإنسان إنما يتم بخلق الله، يقتضي الجزم بأن قصد الإنسان إلى الفعل إنما يتم هو الآخر بخلق الله. إذ إن الدليل الذي اعتمدت عليه في أن الأفعال من خلق الله هو قوله تعالى ﴿وَخَلَقَ كُلَّ شَيْءٍ فَقَدَّرَهُ تَقْدِيرًا﴾ [الفرقان: ٢٥/٢] وقصد الإنسان إلى فعل شيء ما، من الأشياء الداخلة في عموم الآية المذكورة. إذ الشيء في أصح ما ذكره علماء اللغة هو الموجود. والقصد الذي يتمتع به الإنسان في تصرفاته الاختيارية موجود يقيناً.

وإليك الجواب عن هذا الإشكال :

إن قصد شخص ما إلى طاعة أو معصية يفعلها، حالة يتمتع

(١) انظر كتابي: الإنسان مسير أم مخير، من الصفحة ٤٨ فما بعد، لتزداد بهذا الموضوع الهام.

بها الإنسان ولا شك أنها تنسب إليه.. ولكنها متفرعة عن ملكة جهزه الله بها، هي ملكة الاختيار والقدرة على العزم واتخاذِ القرار.

فطاقة الاختيار التي تتمتع بها بشاهد من شعورك وإحساسك، ملكة كلية راسخة في كيانك أورثك الله إياها ومتعك بها. فهي بلا شك من خلق الله، بها غدوت حراً مريداً.

وهذه المَلَكَةُ الكلية موجودة لديك قائمة بكيانك، حتى عندما تكون ذاهلاً عنها، غير مستعمل لها.

فما هو الجديد الذي يمكن أن يضاف إلى هذه الملكة المبثوثة بخلق الله في كيانك، عندما تمارسها بالقصد الذي تتوجه به إلى فعل ما ؟ ليس ثمة جديد يمكن أن يضاف إلى أصل هذه الملكة، سوى شعور صاحبها بأنه قد نقلها من طور القابلية المجردة إلى طور الممارسة، أي إلى طور تعلقها بمراد جزئي معين، كطاعة ما أو معصية ما.

والحصيلة العلمية لهذا الكلام أن ملكة الاختيار بمعناها الكلي المجرد، مخلوقة من الله عز وجل وهديةٌ منه للإنسان.. أما تعلقاتها بجزئيات الأمور والمقاصد فمن ممارسته التي تنسب إليه. وهي مناط الثواب والعقاب.

ومن الخطأ أن تقول : إن هذه الممارسة بحد ذاتها هي الأخرى بخلق الله منفصلاً ومستقلاً عن الملكة الكلية المبثوثة كقابلية في كيانه. لأن هذا لو صح لكان ذلك يعني سلب

الاختيار عن الإنسان وتسييره في مجال التصرفات بإجبار الله له على ذلك. وإذن لتساوى هذا الذي متعه الله بملكة الحرية والقدرة على اتخاذ القرار، مع من لم يمتعه الله بهذه الملكة، إذ هما يصبحان في النتيجة سواء. في حين أن بداهة الحس والشعور تحكم بالفارق الكبير بين هذا وذاك، أي بين الحرّ في تصرفاته والفاقد لها.

* * *

ولكن لابدّ أن نعود فنقول : إن الله عادل في كل أحكامه، وسائر شؤونه، ومعنى الظلم لا يمكن أن يصدق على مالك الكون وخالقه وصاحب التصرف فيه.. والذي عُمِّيَ عن هذه الحقيقة، يقيس الله على عباده، فيجيز لنفسه أن ينسب إليه كل ما ينسبه إليهم. وهذه سفاهةٌ فكرية أخرى أشنع من تلك، ومن كان عبداً لعصبيته استمرأ التيه واستأنس به واتخذه محامياً عنه.

هل الإنسانُ خليفة عن الله ؟

يقول قائلهم :

يقول القرآن ﴿وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَٰٓئِكَةِ إِنِّي جَاعِلٌ فِي ٱلْأَرْضِ خَلِيفَةً﴾ [البقرة: ٢/ ٣٠] وقد علمنا أن المراد بالخليفة الإنسان. فكيف يتأتى أن يكون المخلوق خليفة عن خالقه ؟ وما الموجب لوجود خليفة عنه ؟ وهل يكون خليفته إلا من هو في مكانته ومستواه ؟ وهل يوجد الخليفة إلا عندما يغيب المستخلف ؟ فهل يغيب الله حتى يقيم غيرهُ مكانه ؟

وأقول: لسنا هنا، مع هؤلاء الذين يتصيدون الشبهات يتوهمونها أو يختلقونها في كتاب الله، بصدد ذكر خلاف علماء التفسير في المراد بكلمة «خليفة» هنا، أهو خليفة من الإنس يخلف من كان قبلهم على الأرض من الجن، أم المراد الخلافة عن الله عز وجل، وإذا قلنا : هذا هو المراد بالكلمة فمن هو المقصود بالخلافة عن الله، أهو شخص آدم وحده أم هو ونسله إلى قيام الساعة ؟ أم الذين تصطفيهم الأمة أئمة لها ؟.. وعلى كل الاحتمالات ما المعنى المراد بخلافة الإنسان عن الله وقد علمنا أن الله حاضرٌ لا يغيب ؟

أقول : لسنا هنا بصدد التحقيق في هذه الأقوال واختيار الأصح منها، إذ ليس هذا هو مبتغى هؤلاء المختلقين والمتصيدين، إن هذا التحقيق لا يعنيهم في كثير أو قليل.

إنما الذي يعنيهم أن يلحقوا بكلام الله تعالى ما يتوهمون أنه مشكلة أو شبهة تبعث الريب بكلام الله تعالى في قلوب المسلمين. وسيتجلى لدى الإجابة عن أسئلتهم هذه أن كلام الله تعالى لا يتماسك عليه موجب ريب ولا شبهة، واستثارة المشكلات المختلقة لا يزيد المتبصر إلا يقيناً وثقة بكتاب الله عز وجل.

جمهور المحققين ذهبوا إلى أن المراد بالخليفة في الآية المذكورة آدم وذريته، والمستخلف لهم هو الله عز وجل. أي إن الله عز وجل قضى أن يكون الإنسان خليفة عن الله تعالى في عمارة هذا الكوكب الأرضي على النحو الذي أمر به وارتضاه.

هذا هو باختصار معنى استخلاف الله الإنسان في الأرض.

وإليك التفصيل الذي ينفي ما قد يخطر في ذهن البعض من المعنى الذي يتداوله الناس فيما بينهم لمعنى الخلافة والاستخلاف.

شاء الله تعالى أن تكون الغريزة هي الوازع والضابط لنظام العيش في حياة سائر الحيوانات العجماوات.. إنها البديل عن الفكر والتدبير اللذين متع الله بهما الإنسان. فالغريزة في عالم الحيوانات العجماوات هي القانون الحاكم، يسوقها لتنفيذ أنظمتها المقررة قفزاً فوق الإرادة وفوق حرية الاختيار والتدبير..

ولذا فإنك لا تكاد تجد في نظام عيشها وعلاقة ما بينها شذوذاً يذكر.

أما الإنسان فقد كرمه الله تعالى، وسما به فوق سلطان الغريزة المقيدة، متعه بالوعي والفكر، ومن ثم بالنظر والتدبير، وحرية التصرف، وأهَّله من خلال ذلك لإدارة الأمور وعمارة الأرض وتسخيرها لمتطلباته.

ولكن كيف يعمرها، وعلى أي الأسس يستثمرها، وطبق أي نظام يقيم علاقة ما بينه وبين بني جنسه وبين سائر المكونات الأخرى ؟

جواب ذلك تتضمنه التعاليم الإلهية التي خاطب الله بها هذه الصفوة من خليقته، عن طريق الرسل والأنبياء الذين ابتعثهم على مرّ العصور المتصرّمة إليها.. فقد تضمنت هذه التعاليم التعريف أولاً بحقيقة الكون والإنسان والحياة : مبدئها ومنتهاها، وتضمنت ثانياً الأنظمة والتشريعات التي ينبغي أن تتبعها الأسرة الإنسانية، سبيلاً أمثل إلى عمارة الأرض وإشادة مقومات السلم والأمن عليها ومدّ جسور الألفة والود فيما بين أفرادها.. وأهاب البيان الإلهي بالإنسان عن طريق الرسل والأنبياء، أن يأخذ نفسه بهذه التعليمات وأن يضبط مجتمعه أفراداً وجماعات بما فيها من أنظمة وتشريعات، وأكد البيان الإلهي أن الأسرة الإنسانية إن استجابت لهذه الأوامر وأخذت نفسها بها، فلسوف تتحقق لها سعادة العاجلة والعقبى..

فعن هذه الأنظمة والتشريعات يعبر البيان الإلهي قائلاً : ﴿وَٱلسَّمَآءَ رَفَعَهَا وَوَضَعَ ٱلْمِيزَانَ ﴿٧﴾ أَلَّا تَطْغَوْاْ فِى ٱلْمِيزَانِ ﴿٨﴾ وَأَقِيمُواْ ٱلْوَزْنَ بِٱلْقِسْطِ وَلَا تُخْسِرُواْ ٱلْمِيزَانَ ﴿٩﴾﴾ [الرحمن: ٥٥/٧-٩].

الوزن.. والميزان.. هو التعبير القرآني عن التشريعات التي أنجد الله بها المجتمع الإنساني في الأرض ليبني على أساسها وجوده الحضاري الآمن المسعد، وليستثمر المسخرات الكونية لنفسه على أفضل وجه.

وتأكيداً للسعادة التي تتحقق للإنسان، فرداً ومجتمعاً، إن هو ألزم نفسه بهذه التعاليم المنزلة إليه، يقول البيان الإلهي خطاباً لهذه الخليقة ﴿قَدْ جَآءَكُمْ رَسُولُنَا يُبَيِّنُ لَكُمْ كَثِيرًا مِّمَّا كُنتُمْ تُخْفُونَ مِنَ ٱلْكِتَٰبِ وَيَعْفُواْ عَن كَثِيرٍ قَدْ جَآءَكُم مِّنَ ٱللَّهِ نُورٌ وَكِتَٰبٌ مُّبِينٌ ، يَهْدِى بِهِ ٱللَّهُ مَنِ ٱتَّبَعَ رِضْوَٰنَهُۥ سُبُلَ ٱلسَّلَٰمِ وَيُخْرِجُهُم مِّنَ ٱلظُّلُمَٰتِ إِلَى ٱلنُّورِ بِإِذْنِهِۦ وَيَهْدِيهِمْ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴿١٦﴾﴾ [المائدة: ٥/١٥-١٦].

وتيسيراً لانضباطه بهذه التعليمات على طريق عمارة الأرض، سخر الله له الأرض وما عليها وما فيها من مدخرات، وسخر له الأفلاك الدائرة من حوله..

ولكي يستثمر هذه المسخرات لنفسه على النحو المطلوب متعه الله بقدرات ميزهُ بها عن الحيوانات الأخرى، من أبرزها العقل وما يتفرع عنه من علم وإبداع، والشعور بالأنا وما يتفرع عنه

من امتلاك واحتياز للأشياء، والقوة وما يتفرع عنها من حماية للذات ولتلك الممتلكات.

لقد كان الله، ولا يزال، قادراً على أن يسير الإنسان لتحقيق ما يشاؤه فوق هذه الأرض من عمران وغيره، في الطريق القسري ذاته الذي سير فيه الحيوانات العجماوات، ألا وهو طريق الغريزة الحتمية، وإذا بهذه الأرض عامرة مبنية على النهج الذي شاءه دون أي ثغرات أو عيوب. ويكون دور الإنسان في ذلك، التنفيذ الآليَّ الذي لا يتوقف ولا يشرد عن نهجه المسيَّر فيه يمنة ولا يسرة.

ولكن الله عز وجل شاء أن يكل هذا الأمر إلى الإنسان، يقدره على التنفيذ بفكره وجهوده التي بثها فيه، ويبصره بالمنهج والنظام وأدوات التنفيذ، ويمتعه بالحرية والقدرة الذاتية على اتخاذ القرار الذي يشاء، فهو إذن يملك أن يتخذ لنفسه قرار الاستجابة والنهوض بالعمل الذي وكله الله إليه، فتعمر الأرض بالخير والأمن والسلم. ويملك ألا يستجيب، ويتخذ لنفسه قراراً مخالفاً للتعاليم التي أنزلت إليه ووكل إليه تنفيذها، فتتحول الأرض إلى براكين من وقود الشر، وإلى قوى متصارعة تحصد الشقاء للأسرة الإنسانية جمعاء.

بوسعك الآن أن تعلم فرق ما بين الطريقة التي تسلكها الحيوانات العجماوات في حماية ذاتها وإقامة نظام عيشها، والطريقة التي يسلكها الإنسان إلى ذلك .

الحيوانات تقاد إلى نظام عيشها بزمام الغريزة المثبت بيد الله.

والإنسان وُكِلَ إليه من قبل الله واجب النهوض بعمارة هذا الكوكب الأرضي حسب التعاليم المرسلة إليه، اعتماداً على بصيرة عقله وانطلاقاً من حريته وقرار عزمه..

فهو إذ ينهض بتنفيذ هذه المهام إنما ينهض بها باسم الله، ويحققها بالوكالة عن الله أي لأن الله وكل تنفيذ هذه المهمة إليه، لا لأن الله محتاج إلى عونه (معاذ الله) ولكن لأن الله شرفه بهذا الذي وكله إليه وأنهضه إلى تحقيقه.

فتلك هي حقيقة الخلافة التي قضى الله أن يتشرف بها الإنسان، والتي أعلن عنها لملائكته إذ قال لهم : إني جاعل في الأرض خليفة.

إنها ليست عنوان غياب أو عجز الله تعالى، حاشاه جل جلاله عن ذلك. وإنما هي عنوان تكريم منه للإنسان. ألا ترى كيف سخر له بين يدي نهوضه بهذه الوظيفة ما حوله من المكونات، ومتعه بفيوضات من صفات ذاته العلية كالعلم والقدرة والشعور بالامتلاك ؟ ثم ألا ترى أنه إذ يستجيب لما قد كلف به إنما يفعل ذلك باسم الله، واستجابة لأمر الله ؟

★ ★ ★

ثم إن في الناس من يتساءل : أهي النخبة الصالحة وحدها التي حظيت بشرف هذه الخلافة، أم هو تكريم للأسرة الإنسانية جمعاء ؟

والجواب : بل الراجح أنه تكريم لهذه الخليقة كلها، إذ إن ذلك هو المنسجم مع عموم التكريم المنصوص عليه في قوله تعالى ﴿۞ وَلَقَدْ كَرَّمْنَا بَنِيٓ ءَادَمَ وَحَمَلْنَٰهُمْ فِي ٱلْبَرِّ وَٱلْبَحْرِ وَرَزَقْنَٰهُم مِّنَ ٱلطَّيِّبَٰتِ وَفَضَّلْنَٰهُمْ عَلَىٰ كَثِيرٍ مِّمَّنْ خَلَقْنَا تَفْضِيلًا ﴿٧٠﴾﴾ [الإسراء: ١٧/ ٧٠].

ثم إن الذين قاموا بمهامّ هذه الخلافة واستقاموا على النهج الذي رسمه الله لهم في النهوض ببناء المجتمع الإنساني وعمارة الأرض، ازدادوا علواً وكرامة عند الله، والذين أعرضوا عن مسؤوليات هذه الخلافة واستجابوا لرعونات أنفسهم وما تتشهاه أهواؤهم، أُسقطوا من صعيد ذلك التكريم ورُدُّوا إلى أسفل من الحضيض الذي تتلاقى فيه الأنعام !.. تأمل في هذا الذي يقوله البيان الإلهي عمن وفّى حق تكريم الله له فازداد كرامة وعلواً، وعمن خان حق هذا التكريم فهوى إلى أسفل السافلين : ﴿لَقَدْ خَلَقْنَا ٱلْإِنسَٰنَ فِيٓ أَحْسَنِ تَقْوِيمٍ ﴿٤﴾ ثُمَّ رَدَدْنَٰهُ أَسْفَلَ سَٰفِلِينَ ﴿٥﴾ إِلَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ فَلَهُمْ أَجْرٌ غَيْرُ مَمْنُونٍ ﴿٦﴾﴾ [التين: ٩٥/ ٤-٦].

★ ★ ★

فإذا تبين لك المعنى المراد بالخلافة هنا، وما تتطلبه من صفات ومستلزمات، في هذا الذي استخلفه الله عنه في الأرض، لن تحار في معنى قول الملائكة : أتجعل فيها من يفسد فيها ويسفك الدماء، ولن تذهب في تفسيرها على غير هدى ذات اليمين وذات الشمال.

إن الإنسان لكي ينهض بأعباء المهام التي وكلها الله إليه، وأمره أن يكون أميناً على تنفيذها، لا بد أن يتمتع بصفات خطيرة هي ظلال لصفات الله تعالى، من علم وقدرة وتشبع بشعور الذات «الأنا» ولابدّ أن تسخر المكونات التي من حوله لخدمته.. إن هذه المزايا من أبرز ما تتطلبه خلافة الإنسان عن الله في الأرض.

وهي صفات خطيرة ذات حدين، يمكن أن تستعمل أداةً للعمارة والإصلاح ويمكن أن تستعمل وسائل للتخريب والإفساد. وحسبك من ذلك ما قد جهز الله به هذا المخلوق المكرم من تشبعه بالشعور بالذات «الأنا» وما يستلزمه من سعي إلى التملك وتباهٍ بالذات وما يستخدمه على طريق ذلك من صفات العلم والإبداع والقوة، وحرية الفكر والسلوك.

إنها إن لم تلجم بلجام محكم من اليقين بالعبودية التامة لله، اتخذها أصحابها وسيلة للإفساد في الأرض وسفك الدماء فيها، كما قالت الملائكة..

وهيهات أن يكون واقع عبودية الإنسان لله متغلباً دائماً على شِرّة الصفات التي جهزه الله بها.. إن تغلبها، أعني عبودية الإنسان لله، يستلزم مجاهدة كبيرة وطويلة للنفس كي يروضها ويحميها من خطر السكر والعتوّ بتلك الصفات. ولئن أمكن أن يكون في الناس من يزكيهم هذا الجهاد فيرتفعون إلى ما هو أسمى من رتبة الملائكة في السماء، فلسوف يكون فيهم أيضاً من تسكرهم تلك المزايا التي متعهم الله بها، فتهوي بهم على طريق

الطغيان والإفساد إلى أحط من الدَرَك الذي يعيش فيه الوحوش والسباع.

وها هو ذا مسرح الحياة الإنسانية أصدق ترجمة لواقع كلا هاتين الفئتين.

ولئن كانت هذه الترجمة الواقعية والمرئية شاهداً على صدق ما توقعه الملائكة. فإن الحكمة الإلهية في هذا الخلق، وهذا الاستخلاف، بكل آثاره ونتائجه، هي المتغلبة. وصدق الله القائل جواباً لتخوف الملائكة ﴿إِنِّيٓ أَعْلَمُ مَا لَا تَعْلَمُونَ﴾ [البقرة: ٢/ ٣٠].

وقصة الخلق والاستخلاف لم تنته بعد.. وفي النهاية تتجلى دقائق الحكمة والألطاف الإلهية. والشأن في النعم الباطنة ألا تتجلى ثمراتها وآثارها إلا في عواقب الأمور.

القرآن وأكذوبة الغرانيق

يقول قائلهم :

إذا كان القرآن كلام الله كما تقولون، فما لكم تنكرون ألوهيَّة الأصنام وعبادتها، وقد كان فيما تلاه محمد صلى الله عليه وسلم أثناء تلاوته سورة النجم : ﴿أَفَرَءَيْتُمُ ٱللَّٰتَ وَٱلْعُزَّىٰ ﴿١٩﴾ وَمَنَوٰةَ ٱلثَّالِثَةَ ٱلْأُخْرَىٰٓ ﴿٢٠﴾﴾ [النجم: ٥٣/١٩-٢٠]، تلك الغرانيق العلى وإن شفاعتهن لترتجى. ولقد فرح المشركون بذلك وسجدوا معه لسجوده؟.. وإن قلتم إن ذلك كان نفثة شيطان ألقاها على لسانه، فما الذي يثبت أن بقية ما في القرآن ليس أيضاً من وحي الشيطان ونفثاتِهِ؟

وأقول: لم يصح شيء مما ذكرت، ولم ينقل ذلك عن رسول الله أحد من الصحابة قط. لم يقل منهم أحد إن فم رسول الله تحرك بهذه الدسيسة في سورة النجم قط، لا على أنها سهو جرى على لسانه، ولا على أنها نفثة شيطان ألقاها إليه وأنطقه بها، ولا على أنه ابتغى مجاملة المشركين ليتقرب إلى قلوبهم .

كل الذي نقلته الروايات من هذه الدسيسة أحاديث مرسلة أو منقطعة، منكرة، أي وقفت عند التابعين، ولم يوجد منهم من رواه عن صحابي قط.. رواية واحدة نقلت هذه الدسيسة عن

واحد من الصحابة هو عبد الله ابن عباس، هي رواية محمد بن السائب الكلبي عن أبي صالح عن ابن عباس. أقول وقد اتفق علماء الحديث أنها سلسلة الكذب، لا سيما إنْ أضيف إليها محمد بن مروان السدّي.

إذن لم ترو هذه الدسيسة عن أي واحد من الصحابة، أي فلم يسمعها من فم رسول الله أي واحد منهم. أما الرواية التي نقلتها عن عبد الله بن عباس، فهي كما أخبرتك، سلسلة الكذب بإجماع علماء هذا الشأن.

إذا تبين هذا، فقل لي : كيف يصدّق العقل، أي عقل، أن ينطق رسول الله بهذه الكلمات في سياق تلاوته لسورة النجم : «تلك الغرانيق العلى وإن شفاعتهن لترتجى» ومن حوله جمهرة من أصحابه، وقد طرق هذا الكلام أسماعهم، ثم لا يضجون بالسؤال والاستيضاح، بل لا يوجد فيهم من يعلق عليه متعجباً أو مستنكراً أو راوياً !!..

إن نطق رسول الله وهو بين أصحابه بهذا الكلام، من شأنه أن لا يُروى إلا متواتراً. إذ هو من النوع الذي إذا وقع شاع، وإذا شاع تناقله جميع السامعين، فهو كالخبر الذي رواه جميع الذين كانوا في المسجد عن سماعهم لحنين الجذع.. فأين هم الصحابة الذين رووا هذا الذي قيل إن رسول الله نطق به ؟ بل أين هو صحابي واحد سمع من رسول الله هذا الذي قالوا إنه نطق به ؟ وقد علمت أنه رواية الكلبي عن أبي صالح عن ابن عباس وهي سلسلة الكذب بالاجماع!..

ثم لنتجاهل إنكار العقل لهذا الافتراض، ولنفترض أن رسول الله قد نطق بتلك الكلمات ليجامل بها المشركين كما قيل، إن من الثابت المعلوم للجميع أن النبي صلى الله عليه وسلم لم يستمر في مجاملته لهم، بل عاد عنها فيما قالوا، وأكد أن الشيطان ألقى بتلك الكلمات على لسانه، فأين هي ردة الفعل لديهم ؟ وأين هجومهم عليه باتهامهم له بالمراوغة والتقلب ؟ وهلا راحوا يستدلون على تهافت رأيه بكلامه، بل هلاّ دعموا عقائدهم الشركية وأيدوها بكلامه الذي أثنى فيه على آلهتهم.

إن هذا الافتراض يستلزم هذه النتائج بدون أدنى ريب، بل بحكم البداهة لكل عاقل. فأين هي هذه النتائج ؟

أما الذي حدث فعلاً، فهو ما رواه البخاري في صحيحه، بسنده من حديث عبد الله ابن عباس قال : «سجد النبي صلى الله عليه وسلم بالنجم، أي لما وصل في تلاوته لها إلى آخر آية منها، وسجد معه المسلمون والمشركون والجن والإنس». وروى البخاري أيضاً من حديث عبد الله بن مسعود قال : أول سورة أنزلت فيها سجدة «والنجم» قال : فسجد رسول الله صلى الله عليه وسلم وسجد من خلفه، إلا رجلاً رأيته أخذ كفاً من تراب فسجد عليه، فرأيته بعد ذلك قتل كافراً، وهو أمية بن خلف. وروى بنحوه مسلم في صحيحه وأحمد في مسنده. وليس في هذا الذي رواه من كلام ابن عباس أو كلام ابن مسعود أي ذكر للغرانيق وثناء رسول الله عليها.

ثم إن القرآن يؤكد أن المشركين يحاولون جاهدين أن يستجروا

رسول الله إليهم بأي وسيلة وأن يحملوه على مجاملتهم والركون إليهم ولو شيئاً قليلاً، ولكنهم لن يجدوا سبيلاً إلى ذلك، ولن يجدوا من رسول الله أي التفاتة إليهم أو مجاملة لهم. إنه يقول ﴿وَإِن كَادُواْ لَيَفْتِنُونَكَ عَنِ ٱلَّذِىٓ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ لِتَفْتَرِىَ عَلَيْنَا غَيْرَهُۥ وَإِذًا لَّٱتَّخَذُوكَ خَلِيلًا ﴿٧٣﴾ وَلَوْلَآ أَن ثَبَّتْنَٰكَ لَقَدْ كِدتَّ تَرْكَنُ إِلَيْهِمْ شَيْـًٔا قَلِيلًا ﴿٧٤﴾﴾ [الإسراء: ١٧/ ٧٣-٧٤].

إذن فرسول الله لم يلتفت إلى المشركين بأي مجاملة أو ثناء على آلهتهم، ولم يركن إليهم بأي استجابة لما كانوا يطلبونه منه، وذلك بشهادة القرآن الذي كان يتلى على مسامعهم، فلو حصل شيء مما نفى القرآن حصوله، بأن خالف رسول الله القرآن فركن إلى المشركين وفتنوه عن موقفه الذي ألزمه الله به، لضجّ بذلك المشركون، ولارتفعت صيحاتهم معلنة عن ذلك، ولتحدثت مكة من أقصاها إلى أقصاها عن خروج محمد صلى الله عليه وسلم على القرآن الذي يرويه عن ربه، ولتكاثرت تعليقات المسلمين على ذلك ما بين متعجب وحائر ومستنكر.. غير أن شيئاً من ذلك لم يحصل.. لا رسول الله فتنه المشركون عن الذي أوحى إليه الله به، ولا هو ركن إليهم، ولا الصحابة أو واحد منهم روى أنه صلى الله عليه وسلم جاملهم بشيء من الثناء على آلهتهم، ولا المشركون أعلنوا عن تحول محمد صلى الله عليه وسلم إلى دينهم، ولا هم أعلنوا بعد ذلك عن مزيد من العداوة له لأنه رجع عن تأييده لهم وراغ عما أعلنه من الثناء على آلهتهم.

* * *

من أجل هذا الذي بينتُهُ لك قرر جميع علماء التفسير والحديث أنه لم يصح أي دليل على أن رسول الله نطق بهذه الكلمات المدسوسة أثناء تلاوته لسورة النجم.. وكل ما ورد مما يدل على ذلك أخبار مرسلة ومقطوعة ومنكرة من وضع الزنادقة وتلفيقهم.

عد إلى سائر كتب التفسير، كتفسير ابن كثير والرازي والقرطبي وابن الجوزي وابن عطية والآلوسي والنسفي، تجد فيها الإجماع على هذا الذي أقوله لك.

لعلك تقول: إذن فعمَّ تتحدث الآية التي تقول: ﴿وَمَآ أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ مِن رَّسُولٍ وَلَا نَبِيٍّ إِلَّآ إِذَا تَمَنَّىٰٓ أَلْقَى ٱلشَّيْطَٰنُ فِىٓ أُمْنِيَّتِهِۦ فَيَنسَخُ ٱللَّهُ مَا يُلْقِى ٱلشَّيْطَٰنُ ثُمَّ يُحْكِمُ ٱللَّهُ ءَايَٰتِهِۦ ۗ وَٱللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ﴿٥٢﴾﴾ [الحج: ٢٢/٥٢] والذي نعلمه أنها هي مصدر هذه الأخبار كلها؟..

والجواب أن الآية، فيما تحمله من المعاني، بمعزل عن هذا الأمر. فهي أولاً تتحدث عن الرسل والأنبياء الذين كانوا قد بعثوا قبل محمد صلى الله عليه وسلم. ألا ترى إلى قوله ﴿وَمَآ أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ مِن رَّسُولٍ وَلَا نَبِيٍّ﴾ وهي ثانياً لا تخبر عن قول كان يلقيه الشيطان على ألسنة الرسل والأنبياء أو على ألسنة بعضهم، في بعض الحالات، وإنما تخبر عن تمنيات ربما جالت في خواطرهم، والتمني هو حديث النفس، أي خواطر الشخص مع نفسه.. ومعنى الآية: ما كان شأن الرسل والأنبياء من قبلك إذا حدّث أحدهم نفسه أن لو جارى قومه وجاملهم في بعض ما يحبون أملاً في استجلابهم عن الباطل الذي يتقلبون فيه إلى الحق

الذي يدعوهم إليه، إلا أن ينفخ الشيطان في أمنيتهم النفسية هذه ويجمّلها في خواطرهم، لينقلوها من حديث النفس إلى المواجهة والتنفيذ. ولكن الله عز وجل يقطع وسواس الشيطان إلى نفوسهم، ويلغي الأمنية التي جالت في خواطرهم، ويحميهم من عواقب الخواطر التائهة ودسيسة الشياطين.

فقصارى ما تبينه الآية، هو أن الرسل والأنبياء ليسوا إلا بشراً من الناس يجوز عليهم ما يجوز على غيرهم من أحكام البشرية، حاشا الوقوع في محرم.. ولما كانت خواطر النفس خارجة عن نطاق التكليف، لا توصف بحرمة ولا بحلّ، فقد كانت جائزة عليهم، وكانوا كغيرهم من البشر معرضين لها، وربما جمّلها الشيطان في نفوسهم لينقلوها من حديث الخاطر إلى صعيد التنفيذ، ولكن العناية الإلهية لابدّ أن تدركهم هنا فتحميهم من عواقب تلك الخواطر، وتنسخها من أذهانهم.

فما علاقة المعنى الذي تتضمنه هذه الآية التي تتحدث عن الرسل والأنبياء الذين خلوا قبل رسول الله، بأكذوبة مفادها أن الشيطان ألقى على لسان محمد صلى الله عليه وسلم (وليس في خاطره) ثناء على أصنام المشركين وإقراراً لما يعتقدونه من أنها ستكون شفيعاً لهم عند الله؟!.. وبأي وجه من وجه العربية، حقيقتها أو مجازها، تكون هذه الآية دليلاً على ذلك؟!..

★ ★ ★

عندما يشتهي المبطل رواج باطله وتألّقه في الخواطر

والأبصار، يختلق لشهوته المبررات التي لا وجود لها.. وقد قالوا إن رجلاً عضّ عليه الجوع في الصحراء، فرأى حماراً صغيراً أمامه، فتشهّاه وسال لعابه عليه، فقال لنفسه وهو ينهشه يأكل منه : ما أشبه أذنيه بأذن الأرنب !..

القرآن وقوامة الرجل على المرأة

يقول قائلهم :

ها هي ذي المرأة في ظل الحضارة الحديثة تناكب الرجل وتنافسه في كل المزايا.. في العلم، والوظائف والتجارة وشؤون الاقتصاد والسياسة برتبها المختلفة. ولا نزال نقرأ في القرآن ﴿ٱلرِّجَالُ قَوَّٰمُونَ عَلَى ٱلنِّسَآءِ﴾ [النساء: ٤/ ٣٤] **أليس هذا دليلاً على أن ما في القرآن من شرائع وتعليمات إنما هو لعصور خلت، لا لهذا العصر المتطور الذي نحن فيه ؟..**

وأقول: هما كلمتان ينبغي أن نتبينهما ونعلم الفرق بينهما، وألا تلتبس الواحدة منهما في أفهامنا بالأخرى، ونحن نزعم أننا نتمتع بالعروبة وفهمها وسلامة النطق بها.. هما : القوامة، والولاية.

من الملاحظ أن القرآن أثبت قوامة الرجل على المرأة، فقال : ﴿ٱلرِّجَالُ قَوَّٰمُونَ عَلَى ٱلنِّسَآءِ﴾ ونفى ولاية الرجل عليها، بل أثبت لكل منهما حق الولاية على الآخر، فقال : ﴿وَٱلْمُؤْمِنُونَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتُ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَآءُ بَعْضٍ﴾ [التوبة: ٩/ ٧١] وهي ما يسمى في مصطلح الشريعة الإسلامية بالولاية المتبادلة. ولا أعلم أن لها ما يرادفها أو يقاربها في القوانين الوضعية.

فما الفرق بين الكلمتين ؟

الولاية على الشيء أو الشخص في المصطلح الشرعي، أثر من آثار نقص الأهلية في الشخص الذي تسري الولاية عليه، فلا يتأتى له ممارسة حقوقه أو بعض منها إلا بإذن الولي بل ربما بممارسته هو لها.. ومن المعلوم أن الشريعة الإسلامية ساوت بين الرجل والمرأة في حق الأهلية، عندما يكون كل منهما يتمتع بكامل الرشد. ومن ثم فليس لأحدهما ولاية على الآخر. ولكن الشريعة الإسلامية ذهبت إلى ما هو أبعد من ذلك، فأثبتت بنص صريح من القرآن الولاية المتبادلة بينهما، بأن لا يستقل الواحد منهما في ممارسة حقوقه عن الآخر، في ميزان اللياقة الأخلاقية. وذلك بأن يرجع الرجل «الزوج» في ممارسته لحقوقه إلى المرأة «الزوجة» يستشيرها ويستطلع رأيها ويستهدي برشدها، وبأن ترجع المرأة «الزوجة» إلى الرجل «زوجها» في ممارستها لحقوقها المالية وغيرها، تستشيره وتستطلع رأيه وتستهدي برشده في الأمر. فعن هذا النوع من الولاية السارية بينهما يقول الله تعالى ﴿وَٱلْمُؤْمِنُونَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتُ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَآءُ بَعْضٍۚ﴾.

وأما القوامة فهي مِن قام بالأمر أي قام بشأنه، وهو مصطلح شرعي يعني نظر الزوج بشؤون زوجته من حيث الرعاية والحماية لها ودرء الأخطار عنها وتقديم العون المادي والمعنوي اللازمين لها.

إن الفرق بين القوامة والولاية واضح وجلي. فالقوامة لا تعني التدخل في حقوق الآخر بأي انتقاص لها ولا بأي شركة فيها ولا باستئثار حق التصرف فيها.. في حين أن الولاية تعني نوعاً من النيابة الجبرية في التصرف بحقوق المَوْلي، نظراً لنقص أهليته.

والذي يحصل في الغالب لدى الذين يستشكلون حق القوامة للزوج في الأسرة، أنهم لا يفرقون بينها وبين الولاية، فيحسبون أن قوامة الرجل في المنزل تعني أنه صاحب حق في أن ينتقص من حقوقها ما يشاء، وأنها لا تملك أن تتصرف بشيء منها إلا بموافقته وربما عن طريقه. ومن ثم فإنهم يرون في قوامة الرجل معنى من معاني التسلط على حقوقها والانتقاص من كرامتها وحريتها.

وأحسب أنك قد عرفت الآن الفارق الكبير بين مصطلحي الولاية والقوامة في كتاب الله عز وجل، وأن قوامة الرجل لا تعني شيئاً من هذا الذي يتوهمه الناقدون.

★ ★ ★

فإذا ظهر لك الفرق جلياً بين الولاية والقوامة، فتعال نتجاهل هذا الذي قرره بيان الله في قرآنه المبين، ولنتساءل: أيهما أولى بتحمل مسؤولية القوامة في بيت الزوجية (وقد عرفت معناها الآن) الرجل أو المرأة؟ أيهما الأقدر على النهوض بشؤون الأسرة والسهر على رعايتها وحمايتها من الآفات والأخطار ؟.. لقد أجابت الطبيعة البشرية المبثوثة في العالم كله عن هذا السؤال، قبل أن تجيب النظم المتبعة والقوانين الوضعية فقالت : إنه الرجل. وهذا ما أيدته في كل عصر أنوثة المرأة، ورجولة الرجل.

أرأيت إلى زوجين يرقدان آمنين مطمئنين في جوف الليل، في الدار التي تكنهما، وعلى حين غرة استيقظا على صوت أيدٍ تعبث

برتاج باب الدار.. إنهم لصوص يقصدون إلى اقتحام الدار.. مَن الذي يهبّ في هذه الحالة ليحمي الأسرة وليرد اللصوص على أعقابهم؟.. هل في الدنيا كلها من لا يعرف الجواب ؟.. إنه الرجل الذي أقامته الفطرة الربانية على وظيفة حماية الأسرة ودرء الأخطار عنها، أما المرأة فتحتمي بقوة زوجها وتتضاءل في ظله.. تلك هي القوامة في معناها الفطري، الذي يقرّ به العالم كله، وليس قرار القرآن القائل ﴿ٱلرِّجَالُ قَوَّٰمُونَ عَلَى ٱلنِّسَآءِ﴾ إلا ترجماناً لهذه الفطرة.

ولقد بينتْ تتمة الآية حيثية هذا القرار، الفطري في واقعه، الشرعي في حكمه، وهي قوله تعالى : ﴿بِمَا فَضَّلَ ٱللَّهُ بَعۡضَهُمۡ عَلَىٰ بَعۡضٍ وَبِمَآ أَنفَقُواْ مِنۡ أَمۡوَٰلِهِمۡۚ﴾ الحيثية الأولى : بما فضل الله بعضهم على بعض. وليس معنى الأفضلية هنا أفضلية القرب من الله أو أفضلية المكانة في المجتمع. فرب امرأة تكون أقرب إلى الله من زوجها ومن كثير من الرجال.. ورب امرأة تتبوأ مكانة في مجتمعها لا يتبوأ مثلها ولا أقل منها زوجها ولا كثير من الرجال.. وإنما المراد بالأفضلية هنا الخصائص الجسمية والنفسية التي وزعها الفاطر الحكيم بين الرجل والمرأة، وهي معروفة ومدروسة .

والحيثية الثانية قوله : وبما أنفقوا من أموالهم. إنه تذكير بما قضى الله به من جعل الإنفاق على الأسرة مسؤولية الزوج دون الزوجة. والقانون الدولي يقول : من يُنفق يشرف، والعالم كله يخضع لهذا القانون ويعترف بهذه العلاقة اللزومية بين مسؤوليتي الإنفاق والإشراف.

أما لماذا كان واجب الإنفاق منوطاً بالزوج دون الزوجة، فله جواب طويل يدركه كل من كان مقراً بقدسية الأسرة حريصاً على حمايتها من سائر الآفات. ولولا أن الحديث في ذلك يقصينا كثيراً عما نحن بصدده لفصَّلْنا القول فيه بما يزيدنا إقراراً بل إعجاباً بحكمة المشرع جل جلاله.

* * *

لك أن تقول : رب امرأة تتمتع بما لا يتمتع به الرجل من الشجاعة والإقدام وقوة الشخصية واقتحام الأخطار في سبيل الذود عن الأسرة وحماية أفرادها، في حين ترى الرجل خائر النفس جباناً عاجزاً عن مواجهة الأخطار تتملكه المخاوف والأوهام، وقد يكون إلى جانب ذلك كله فقيراً لا يتأتى منه النهوض بأدنى درجات الإنفاق.

وأقول لك في الجواب : كلما رأيت في الكون سنة ماضية ينبعث منها نظام مطرد، فاعلم أن بوسعك أن تعثر داخل تيار هذه السنة الماضية على شذوذات شاردة عنها بل خارجة عليها.. ترى ذلك بين قوانين الطبيعة وعالم الحيوانات والبحار، وترصد مثل ذلك في قوانين المجتمعات وفيما ينبغي أن تكون عليه طبائع الرجال والنساء بل أجسامهم وأجسامهن أيضاً. ولله عز وجل في ذلك حكمة أفضتُ في الحديث عنها في مناسباتها ولدى معالجة الموضوعات المتعلقة بها.

فاعلم أنه كلما وقع شذوذ داخل نظام ماض مطرد، فإن ذلك

الشذوذ يعطى الحكم المناسب له، دون عدوان على الحكم العام المناسب للنظام الموجود المطرد.

فإذا وجد داخل الأسرة رجل شاذ عن أمثاله من الرجال في كينونته الشخصية والنفسية، وصادف أن كانت الزوجة في تلك الأسرة شاذة هي الأخرى عن مثيلاتها من النساء، وكانت تتمتع بالصفات التي ذكرت، فلا ريب أن القوامة الشرعية تكون لها، ولا شك أن ذلك يكون من حسن حظ الرجل الذي أعوزته كينونته الشاذة إلى امرأة شاذة بين أترابها من النساء، وإنها لفرصة نادرة، حصولُ هذا التلاقي تحت سقف بيت واحد.

ولكن هل من المنطق أن ينسخ القانون المناسب للنظام العام الموجود والمطرد، بسلطان من الحكم الجزئي الشاذ استجابة لحالة شاذة واقعة؟!..

إذا كان القانون المطرد العام لا يتأتى منه تجاهل الأخذ بحكم مخالف له رعاية لحالة شاذة واقعة، فكيف يتأتى لهذا الحكم الجزئي الخاص بتلك الحالة أن يتجاهل سلطان القانون العام المطرد المنسجم مع النظام الكوني المطرد؟!..

كل من القانونينِ المطرد والشاذ يبقى، ما دام كل من الحالتين : المطردة العامة والشاذة النادرة باقيتين مع تقلبات الدهر.. هكذا تقول العدالة.. وهكذا يقضي به شرع الله وحكمه.

القرآن.. وضرب الزوجة الناشزة

يقول قائلهم :

وجدنا القرآن يعطي الزوج الحق بأن يضرب زوجته عند نشوزها. ولم نجده يعطي الزوجة الحق في ضربه عند نشوزه. وإنها لصورة بارزة وباقية للقيمة المتردية للمرأة عند العرب، لا سيما في الجزيرة العربية، وقد جاء القرآن مرآة وانعكاساً لها.

وأقول: العلاقة الزوجية تقوم، كما هو معلوم، على حقوق وواجبات متبادلة بين الزوجين. فلكل منهما حقوق على الآخر، وعلى كل منهما واجبات تجاهه. والنشوز يعني التفريط في واجب من الواجبات الزوجية. وهو كما يتأتى من الزوجة يتأتى من الزوج أيضاً. ذلك لأنه ما من حق لأي منهما إلا وهو متمثل في واجب يتحمله الآخر، إذ لا يتأتى لأي منهما الوصول إلى حقه إلا بالواجب الذي ينهض به صاحبه. فإن أخل بالواجب الذي عليه، حرم صاحبه من الحق الذي ينبغي أن يتمتع به.

وقيام العلاقة الزوجية على هذا التبادل في الحقوق والواجبات، حقيقة ثابتة معترف بها في العالم كله، وجملة الحقوق والواجبات السارية بين الزوجين مرسومة ومأخوذة بعين الاعتبار

في الأنظمة والقوانين كلها، بقطع النظر عن الخلافات القائمة بين المجتمعات قديماً وحديثاً في تحديد تلك الحقوق والواجبات.

ومن ثم فإن إهمال أي من الزوجين لأي من الواجبات المترتبة عليه للآخر، يدخل تحت اسم الجنحة ويعرض صاحبها للعقوبة المناسبة. وذلك نظراً لما أوضحناه من أن إهمال الواجب يعني تضييع حق للآخر، وهو يستلزم العقاب.

هذا الذي قلناه الآن محل اتفاق لدى علماء القانون والاجتماع، دون ريب. لم نسمع إلى الآن من يخالف فيه.

يترتب على هذا القدر المتفق عليه السؤال التالي : أليست المرأة معرضة، كالرجل، لارتكاب جنحة، بل للتورط في ارتكاب جريمة ؟ والجواب أن المرأة معرضة لكل ما قد يتعرض له الرجل، ولا يحتاج هذا الأمر إلى تبيين ولا تأكيد.

والسؤال الذي ينبني عليه هو : فهل الرجل هو وحده الذي يتحمل مسؤولية تفريطه في الواجبات دون المرأة ؟ والجواب الذي لا نعلم خلافاً فيه هو : ما دام كل من الرجل والمرأة معرضاً للتفريط بحقوق الآخر من خلال التفريط بواجباته، فلا شك أن كلاً منهما يتحمل مسؤولية تفريطه وارتكابه. وإنها من أولى ثمرات المساواة بين كل من الرجل والمرأة في الحقوق والواجبات. وسجون العالم من أقصاه إلى أقصاه كانت ولا تزال تفيض بالرجال والنساء.

إذن فعقاب الجنح والجرائم لم يكن في يوم ما وفي مجتمع ما وقفاً على أحد الجنسين دون الآخر.

* * *

وقد آن لنا أن نسأل إذن : فإذا شرع الله في كتابه المنزل ما هو محل اتفاق في المجتمعات الإنسانية وفي ظل القوانين المعاصرة من رسم الزواجر التي لابدّ منها، تدرجاً من الاعتماد على السبل الحوارية، فما يليها، ووصولاً إلى رسم الجزاء المناسب، لكل من الرجل والمرأة عندما يفرط أحدهما في القيام بواجباته ومن ثم يتسبب في إهدار حقٍ لصاحبه - أقول : ما وجه الوقوع في قالة السوء، موجهاً إلى كتاب الله عز وجل، إذ يشرع هذه الزواجر التي يشرع مثلها سائر القوانين لكل من الرجل والمرأة دون تفريق، وذلك بقطع النظر عن وجهات النظر المختلفة في تفاوت الواجبات وفي مقاييس الجنح والجرائم وأنواع العقوبات.

ومع ذلك فإن البيان الإلهي ألزم الزوج تجاه نشوز الزوجة (أي تأبيها على أداء شيء من واجباتها تجاهه) بأن يعرض عن العقاب القانوني المرسوم، وأن يعالج الأمر بالحوار.. بحوار تمازجت فيه العاطفة مع العقلانية.. وأن يصبر على هذه الوسيلة ما وسعه الصبر. فإن هو يئس من جدواها، كان له أن ينتقل إلى طريقة أقسى منها، ولكنها تبقى ضمن حدود استثارة العاطفة والوجدان.. هي الهجران في المضجع، أي لا في المحادثة وأنس المجالسة واللقاء. وهو هجران أشبه بالمداعبة منه بالجفاء.. وعليه أن يصبر على هذه الوسيلة الثانية ما وسعه الصبر.

فإن بقيت المشكلة على حالها، ويئس الزوج من جدوى هذه الوسيلة الثانية أيضاً، فذلك يعني أن الزوجة تعاني من آفة أخلاقية، لا ريب أنها شاذة بذلك عن مثيلاتها ولا تنس أننا نتحدث عن نشوز حقيقي يسيء إلى الزوج وحقوقه، ولا عذر لها فيه..

في هذه الحالة لا تتردد الأنظمة والقوانين كلها عن معالجة هذا النشوز = هذه الإساءة = هذه الجنحة، بواحد من الروادع المشروعة.. على أن القوانين لا تكلف صاحب الحق بمثل الانتظار والمصابرة اللتين أمر بهما كتاب الله.

ومن جملة الروادع التي شرعها الله لمعالجة هذا الأمر (عند تفاقمه) الضرب غير المبرح الذي يبعث على الخوف ولا يسبب الإيذاء. ولو رغب الزوج بالسجن بدلاً عنه عن طريق القضاء جاز ذلك. وهذا هو بيان الله إذ يعالج المشكلة من أولها إلى النهاية : ﴿وَٱلَّٰتِي تَخَافُونَ نُشُوزَهُنَّ فَعِظُوهُنَّ وَٱهْجُرُوهُنَّ فِي ٱلْمَضَاجِعِ وَٱضْرِبُوهُنَّ فَإِنْ أَطَعْنَكُمْ فَلَا تَبْغُواْ عَلَيْهِنَّ سَبِيلًا إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَلِيًّا كَبِيرًا﴾ [النساء: ٤/ ٣٤].

فما هو الموقف المخالف لهذا الحكم الإلهي، فيما تتخذه القوانين والأنظمة اليوم من موقف لمعالجة هذه المشكلة ؟

وافرض أن الزوج أو الزوجين رغبا عن هذا الذي يبصرنا به بيان الله، ورفع الزوج الدعوى على زوجته بارتكابها لهذه الجنحة، وتبين صدق الزوج فيما اشتكى وادعى بالوسائل

القانونية المعتمدة، أليس ما سينزله القضاء من عقاب في حق الزوجة أشدّ نكاية وأسوأ فضيحة وأبلغ إيذاء، من أن تتم المعالجة للمشكلة داخل المنزل، تتدرج من النصيحة العاطفية المحببة المتكررة الدائمة.. إلى ما يليها من الهجران في المضجع وحده.. ثم إلى ضرب غير مبرح يبتغى منه التخويف لا الإيذاء، داخل ستر المنزل.. هذا إن أحوج الأمر إلى هذا العلاج الأخير.. وقلما تتعقَّد المشكلة وتركب الزوجة رأسها في الجنوح عن الحق إلى هذه النهاية، دون أن يكون لها عذر ودون أن يكون الزوج مضاراً لها أو مفتئتاً عليها.

* * *

أما السبب في أن الشارع لم يعط الزوجة مثل هذا الحق عند نشوز الزوج، فإنما هو الحماية للزوجة من أن يتحول الزوج عندما تقبل إليه الزوجة بالضرب، إلى وحش يميتها أو يحطمها.. وليس في عقلاء العالم من لا يتوقع ذلك.

إذا نشز الزوج، وذلك بأن أهمل واجبه في رعاية بعض حقوقها، كأن أعرض عن تقديم النفقة الواجبة لها، لا عن معذرة، ولا عن فقر، فإنَّ للزوجة أن تسلك السبيل ذاته لحمله على القيام بما يجب عليه من ذلك، تنصحه، وتبالغ في النصح العاطفي والعقلاني، حتى إذا استيأست من هذا العلاج كان لها أن تنتقل إلى العلاج الثاني فتمتنع عنه في المضجع، ذلك لأن البضع في مقابل النفقة في حكم الشرع.. فإن هي يئست من هذا العلاج الثاني أيضاً، فالحل الذي يحفظ كرامتها ويعيد إليها

حقها، أن ترفع أمرها إلى القضاء، وأن تشكو استهتار الزوج بها إليه.. وعلى القضاء، لدى ثبوت الدعوى، أن ينزل بالزوج العقاب الرادع وعلى القاضي أن يختار العقاب الأجدى، سواء أكان ضرباً أم سجناً أم تقريعاً وتأنيباً أم نحو ذلك.

أليس هذا هو الأجدى لها، والأكثر ضماناً لحقها ولكرامتها؟..

على أن للزوج، عند نشوز الزوجة، أن يسلك السبيل ذاته لو شاء، يرفع شكواه منها إلى القضاء عند عدم جدوى الوسيلتين الأولبين، وعلى القاضي حينئذ، إذا ثبتت الدعوى، أن ينزل العقاب الرادع بالزوجة، يتخير أجدى أنواعه لرفع الحيف عن الزوج.

وأقضية العالم كلها - من حيث المبدأ - في معالجة هذه المشكلة سواء، وذلك بقطع النظر عن الخلاف الذي يقع بينها في جزئيات الحقوق والواجبات.

وغني عن البيان أننا نتحدث عما شرعه الله في محكم تبيانه، محفوفاً بالضوابط الأخلاقية ومقيداً بالحد الذي ألزم الله به. إذن فلا شأن لنا بالتجاوزات المحرمة والممارسات الشاردة عن ضوابط الدين وأحكامه. إن الدولة أياً كانت هي المسؤولة في هذه الحالة، وهي المكلفة بالضرب على أيدي المسيئين والمتجاوزين.

★ ★ ★

أما الحديث عن الضرب الذي يحيق بنساء الغرب، لا سيما الغرب الأمريكي، إلى درجة القتل والتحطيم من قبل الأزواج والأصدقاء، فشيء يدمي القلب ويرمض النفس

كتب : Richard .F. Jones في مجلة القبالة وأمراض النساء في أمريكة في عدد يناير عام ١٩٩٢، يقول:

«هناك وباء يجتاح بلادنا.. إنه لشنيع.. وإنه غير قابل للتجاوز عنه أو التساهل في أمره.. إنه يجب أن يوقف وإنه لمرض يبعث على الاشمئزاز..».

ثم قال الكاتب : «إنه في كل **١٢** ثانية في الولايات المتحدة الأمريكية تخضع امرأة لهذا الوباء.. في كل **١٢** ثانية امرأة تضرب إلى درجة التحطيم أو القتل من قبل زوج أو صديق !.. وفي كل يوم نرى نتائج هذا الضرب وآثاره في مكاتبنا.. في غرف الطوارئ لدينا.. وفي عياداتنا !..».

وإنه لعجيب جداً أن تنظر فتجد قلوب هؤلاء الناقدين لكتاب الله في بلادنا، تعاني من قسوة بالغة تجاه هذا الذي تعاني منه المرأة الغربية مما يرمض النفس ويدمي الفؤاد، ثم إنها تنقلب فجأة وإذا هي تعاني من رقة بالغة وألم ممضّ مما تعاني منه المرأة المسلمة، لا مما يمارسه السفهاء والمخمورون من رواد الحانات في حقها، بل مما رسمه بيان الله من حقوق وواجبات للزوجين، وما شرعه من مؤيدات لتلك الحقوق والواجبات.

ولكن لا تعجب.. فإنك من هؤلاء النقاد المحترفين في عصر العجب. والعجب في مكانه يعود إلى أمر طبيعي.

القرآن.. وزواج رسول الله من زينب

يقول قائلهم :

لم يكتف محمد بما عنده من النساء، فقد طمع بأن يضيف إليهن ابنة عمته زينب، زوجة متبناه زيد بن حارثة، خطط لذلك.. وجند القرآنَ وسيلةً أولى للوصول إلى ما يريد، ولقد كان له أخيراً ما أراد، بعد أن فرق بين زيد وزوجته.

وأقول: إن هذا الناقد أحد رجلين : إما أنه غير موقن بالله وملائكته ورسله وكتبه، ومحمدٌ واحد من رسله، والقرآن واحد من كتبه. وإما أنه مؤمن بالله وملائكته ورسله وكتبه.

فإن كان هذا الناقد من الفريق الأول، فلن يتأتى لأي منطق ولا لأي وثيقة أن تقنعه بخلاف هذا الذي استقر في فكره.. إنه يبحث عن أي مستند يختلقه من الوهم، ليبرر به إنكاره لنبوة رسول الله وجحوده بالقرآن.. إنه يستخدم أوهام التاريخ، ويختلق ما يشاء من الأحداث، أو يستنطقها بما يريد، ليدعم به موقفه الجحودي.

وإن كان من الفريق الثاني، أو ممن لم يستبن لهم شيء بعدُ، من هوية محمد صلى الله عليه وسلم، وهو متجه إلى معرفته

بموضوعية وفكر حيادي، فالخطب سهل، والمنطق العقلاني يبصره بالحقيقة الراسخة، ويبدد غواشي الأوهام، ويكشف اختلاق الأكاذيب ومنطق الضغائن والأحقاد.

كان التبني عرفاً عاماً دارجاً في الجزيرة العربية، وكانت له فيها جذور تاريخية بعيدة وكانت له من النتائج والثمرات عندهم كل ما تستحقه البنوّة الحقيقية، وقد انسجم رسول الله مع هذا العرف الدارج، فتبنى زيدَ بن حارثة، ذاك الذي أُسِرَ ثم استرق في جمع من الذراري، بسبب غارة كانت لبني القَيْن، وذلك بعد أن أُهدي إليه فأعتقه.. وأحبه رسول الله حب الأب لولده الوحيد وأشد، حتى لُقب بحِبِّ رسول الله. واصطفى له ابنة عمته زينب بنت جحش فزوجه منها.. ومرت على ذلك حقبة وكل من الزوجين سعيد بصاحبه، ورسول الله مغتبط بسعادتهما.

ويشاء الله أن يلغي عادة التبني ويمتلخها من مجتمع الجزيرة العربية وسائر المجتمعات الأخرى. فيتلقى رسول الله من ربه قوله : ﴿وَمَا جَعَلَ أَدْعِيَآءَكُمْ أَبْنَآءَكُمْ ذَٰلِكُمْ قَوْلُكُم بِأَفْوَٰهِكُمْ وَٱللَّهُ يَقُولُ ٱلْحَقَّ وَهُوَ يَهْدِى ٱلسَّبِيلَ ، ٱدْعُوهُمْ لِءَابَآئِهِمْ هُوَ أَقْسَطُ عِندَ ٱللَّهِ فَإِن لَّمْ تَعْلَمُوٓاْ ءَابَآءَهُمْ فَإِخْوَٰنُكُمْ فِى ٱلدِّينِ وَمَوَٰلِيكُمْ وَلَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ فِيمَآ أَخْطَأْتُم بِهِۦ وَلَٰكِن مَّا تَعَمَّدَتْ قُلُوبُكُمْ وَكَانَ ٱللَّهُ غَفُورًا رَّحِيمًا ﴿٥﴾﴾ [الأحزاب: ٣٣/ ٤-٥].

وقد قضت سنة رب العالمين وحكمته أن يجعل لما يشرعه من أحكام أو ينسخه من عادات شواهد من أحداث تجسّد قرار الله تعالى وحكمه، وترسخه في النفوس، وتكسبه في الأذهان صفة

الديمومة، حتى إذا بعد العهد بالقرار اللفظي وكاد أن ينسى، عاد الحدث الذي جسّد القرار إلى الذاكرة، فأيقظها إلى قرار الله وحكمه.. وهي طريقة مألوفة تربوياً ومتبعة في رسم القوانين في المجتمعات.

فما الحدث الذي شاء الله أن يكون تجسيداً لهذا الحكم الإلهي: (إلغاء عادة التبني) وأن تنطلق منه أصداء هذا القانون الإلهي الجديد ؟..

إنه باختصار أن تطلَّق زينب من زوجها زيد بإصرار منه، ثم أن يتزوج رسول الله - خلافاً لما سار عليه عرف الجزيرة العربية ردحاً من الزمن - من مطلقة متبناه. فيشيع ذلك في الناس، فيتبينوا في ذلك تطبيقاً عملياً للعرف الذي ألغي والحكم الجديد الذي شرعه الله عز وجل.

وقد أبلغ الله رسوله وحياً بهذا الذي قضاه، والحدث الذي سيجري على أعقابه، من تطليق زيد لزوجته، ومن الحكم الإلهي القاضي بأن يتزوج رسول الله من مطلقة متبناه.

وجرت الأحداث بعيد ذلك منقادة لقضاء الله وحكمه.. تعكَّر صفو العيش بين زيد وزوجه، وراح يشكو إلى رسول الله منها ما لم يكن يعرفه منها من قبل.. ثم إنه أقبل يستأذنه في أن يطلقها، ولكن رسول الله كان يقول له في كل مرة: أمسك عليك زوجك واتق الله!.. كان يقول ذلك لزيد وهو يخفي في نفسه ما أعلمه الله من أن زيداً سيطلقها وأنه صلى الله عليه وسلم سيؤمر بالزواج منها.

ولقد طلقها زيد بعد أن نفد صبره على احتمال ما كان يلقاه منها.. وأنزل الله عندئذ على رسوله قوله ﴿وَإِذْ تَقُولُ لِلَّذِىٓ أَنْعَمَ ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَأَنْعَمْتَ عَلَيْهِ أَمْسِكْ عَلَيْكَ زَوْجَكَ وَٱتَّقِ ٱللَّهَ وَتُخْفِى فِى نَفْسِكَ مَا ٱللَّهُ مُبْدِيهِ وَتَخْشَى ٱلنَّاسَ وَٱللَّهُ أَحَقُّ أَن تَخْشَىٰهُ فَلَمَّا قَضَىٰ زَيْدٌ مِّنْهَا وَطَرًا زَوَّجْنَٰكَهَا لِكَىْ لَا يَكُونَ عَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ حَرَجٌ فِىٓ أَزْوَٰجِ أَدْعِيَآئِهِمْ إِذَا قَضَوْا۟ مِنْهُنَّ وَطَرًا وَكَانَ أَمْرُ ٱللَّهِ مَفْعُولًا ﴿٣٧﴾﴾ [الأحزاب: ٣٣/ ٣٧].

هذا ما حدث بمقتضى حكمة الله وتدبيره. فما الشيء الذي يغض من مكانة رسول الله وخلقه بسبب هذا الذي شاءه الله وقضاه ؟.. وما التهمة التي تَصِمُ كتاب الله (من جراء هذا الذي شاءه وقضاه) بأنه من صنع محمد صلى الله عليه وسلم وتأليفه ؟

إن كان مزاجك يلحُّ عليك بأن محمداً ليس رسولاً من عند الله، وبأن القرآن ليس كلام الله، فأنت تبحث عما تؤيد به حكمك المزاجيّ هذا، ولذا فإن الحديث مع مزاجك جهد ضائع، ولا يجتمع العلم والمنطق مع المزاج على صعيد واحد قط.. وإن ما تتخيله في هذا الذي شرعه الله وهيأ له أسبابه، من تهمة تصم شخص رسول الله، وتبعث على اتهامه بأنه هو صانع القرآن ومؤلفه، ليس إلا ثمرة لإلحادك وجحودك بالله ورسوله. وليس العكس أي ليس إلحادك وجحودك ثمرة لهذا الذي تتخيله أو تفرضه من تهمة لشخص رسول الله.

وإن كنت مبرأً من الكفر المزاجي، باحثاً عن الحق بدافع موضوعي، فقل لي أين هو مكان التهمة أو الإشكال في هذا الذي شاءه الله ثم هيأ له أسبابه ؟.

إن العقلاء، كل العقلاء الذين يتعاملون مع عقولهم من الناس، رأوا في هذا الذي شاءه الله وقضاه على طريق إلغاء عادة التبني واقتلاع جذورها من أرض الجزيرة العربية، دليلاً ناطقاً بنبوءة محمد صلى الله عليه وسلم، وشاهداً قاطعاً على أن القرآن كلام الله عز وجل وليس لمحمد فيه أي شأن إلا الأمانة في إبلاغه دون أي استخفاء لشيء منه أو إقحام أي تبديل فيه.

تقول عائشة رضي الله عنها، فيما رواه مسلم وغيره «ما نزلت آية أشد على رسول الله من هذه الآية، ولو كان كاتماً لشيء من الوحي لكتم هذه الآية» تعني قول الله تعالى: ﴿وَإِذْ تَقُولُ لِلَّذِىٓ أَنْعَمَ ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَأَنْعَمْتَ عَلَيْهِ أَمْسِكْ عَلَيْكَ زَوْجَكَ وَٱتَّقِ ٱللَّهَ وَتُخْفِى فِى نَفْسِكَ مَا ٱللَّهُ مُبْدِيهِ﴾ الآية.

أجل، أي ضرورة تدعوه إلى أن يدرج هذه الآية في القرآن، لو كان هو صانعه والمؤلف له، وهي من أولها إلى آخرها عتاب شديد له، وكشف عما يخفيه في نفسه من معرفة أنه سيتزوج من زينب بعد تطليق زيد لها، بأمر من الله عز وجل، ثم هي بيان لما يخشاه من كلام قومه إذا أقدم فتزوج من مطلقة متبناه، لأن ذلك في عرفهم كمن يتزوج مطلقة ابنه، وهي عتاب شديد له على ذلك، وتأكيد له بأن خشيته من الله إن هو لم ينفذ أمره أحق من أن يخشى قومه لدى إقدامه على ذلك، فهذا معنى قوله ﴿وَتَخْشَى ٱلنَّاسَ وَٱللَّهُ أَحَقُّ أَن تَخْشَىٰهُ﴾.

قد يقول بعضهم : ولكن ورد في بعض التفاسير رواية تقول: إن محمداً صلى الله عليه وسلم رأى زينب عرضاً فأشاح بوجهه عنها وقال : سبحان الله مقلب القلوب، وهذا القول دليل على أن قلبه تحرك نحوها!.. وكان ذلك قبل تطليق زيد لها.

أقول : اتفق علماء الحديث على أن هذه الرواية لا تصح، وهي ساقطة عن الاعتبار. ورواية الطبري لها لا يرفع من قيمتها. ذلك لأن الطبري كان يجمع في تفسيره كل ما وقع عليه من الروايات في مسألة ما، يسوقها بأسانيدها، ويكل إلى القارئ النظر فيها والتميز ما بين الغث والسمين منها، كما بين ذلك في مقدمة تفسيره، فكان يسير في هذا على القاعدة القائلة : من أسند فقد أسلمك.

ولكني أقول : فهب أن هذا الحديث الضعيف بمقتضى قواعد الحديث وشروط السند، صحيح في واقعه وذاته، ما الذي يغض فيه من كرامة المصطفى أو يسيء إلى خلقه ؟

أي شبهة أو إشكال تراه في أن يريد الله تزويج رسوله من مطلقة متبناه، للحكمة التي ذكرناها، فيهيئ الله لهذا الأمر الذي قضاه أسبابه الإنسانية المعروفة، من تعكير صفو العيش بين زيد وزوجه، ومن توجيه الله قلب المصطفى صلى الله عليه وسلم إلى زينب بعد أن كان غافلاً عنها بالرضا والاستعداد للزواج منها ؟

أي إشكال تراه في أن الله إذا شاء أمراً هيأ أسبابه؟.. هل السبيل المشروع الذي لا بديل عنه لتنفيذ ما قضاه الله من هذا

الأمر، أن يفترق الزوجان مع استمرار المحبة السارية بينهما، وأن يُساق رسول الله إلى الزواج منها وهو لها كاره؟.. هل هذا بنظرك مقتضى حكمة الله في تدبير الأمور ؟

إذن فرسول الله معصوم عن كل ما يتوهمه المبطلون والمبشرون والمستشرقون ومن لف لفهم من الأعداء التقليديين لهذا الدين، من النقائص، حتى على فرض صحة هذه الرواية الضعيفة. إنها لا تزيده، على كل حال، إلا سمواً في الخلق ونزاهة عن كل ما لا يليق.

إننا إذ نعرض عن هذه الرواية لا نعرض عنها لأنها تسيء إلى مكانة المصطفى صلى الله عليه وسلم، فمعاذ الله أن يكون فيها ما يسيء إليه حتى ولو كانت صحيحة، ولكنا أعرضنا عنها، لأنها من حيث القواعد الفنية المتبعة في مصطلح الحديث لا تصلح للاستشهاد بها والتعويل عليها.

ولو كان في قصة زواج رسول الله من مطلقة زيد وما لابسها من أمور، ما يشينه أو يسيء إلى خلقه، لكان المشركون واليهود الذين يعيشون بين ظهراني المسلمين على مقربة من رسول الله، أسبق الناس إلى فضحه وإلحاق النقيصة به. ذلك لأنهم، لم يكونوا - بكل يقين - أقل من هؤلاء الناعقين اليوم عداوة له وحقداً عليه.

ولكن الذي نعلمه أن أياً منهم لم يَدْنُ إلى هذه المخاضة، ولم يحرك لسانه في حق رسول الله بمثل هذا الاتهام. لأنهم جميعاً

كانوا يعلمون سمو خلقه ونزاهة طبعه وعفة نفسه. كانت خصومتهم له محصورة في شركهم الديني وعصبيتهم لآبائهم وأجدادهم، ومن ثم فلم تكن خصومتهم له لتحملهم على أن يفتئتوا عليه في أخلاقه ونزاهته وأمانته في يوم من الأيام.

ألا ليت محترفي الغزو الفكري من المبشرين والمستشرقين والطغاة الذين أعلنوا الحرب على القرآن ورسوله، يتلقون من مشركي الجزيرة العربية درساً يتعلمون من خلاله كيف يكون الخصم شريفاً في خصومته.

الخمرة المحرمة..

يعد بها القرآن المؤمنين في الجنة

يقول قائلهم :

في الوقت الذي يحرم القرآن الخمرة على الناس ويقام الحدّ في الإسلام على شربها، ويصفها القرآن بأنها رجس، إذا به يعد المؤمنين بأن تقدم الخمرة لهم في الجنة في كؤوس مترعة وبأيدي غلمان ﴿ كَأَنَّهُمْ لُؤْلُؤٌ مَّكْنُونٌ ﴾. فما للمحرم هنا يصبح متعة مباحة هناك ؟.

وأقول وبالله التوفيق : ما من شيء مما يمارسه الناس في الدنيا، بقطع النظر عن الشرائع الموجبة والمحرمة، إلا وهو مزيج من فائدة يبتغيها الإنسان وضرر ينأى عنه.

ومهما حاولت أن تستقرأ بفكرك أو بنظرك، لن تعثر فيما يمارسه الناس بسائق طباعهم، على شيء خلُص فيه الخير دون شائبة شر، أو على شيء خلص فيه الشر دون شائبة خير.

تلك سنة من سنن الله التي أقامها للناس في حياتهم الدنيا.

وإن لها لحكمة جليلة، يطول الحديث ببيانها، وينأى بنا عن هذا الذي نحن بصدده.

والشأن في القوانين والشرائع كلها، بقطع النظر عن شريعة دون أخرى، أن تقارن بين فائدة كل شيء وضرره. فما كانت فائدته أجزل وأوفى شُرِعَ. ثم إن كانت فائدته ترقى إلى درجة الضرورة أُمِرَ به، وإن كانت فائدته دون ذلك وقفت شرعته عند حدّ الإباحة أو ما يعبَّر عنه بحرية الممارسة.. وما كان ضرره أغلب وأشد شُرِعَ تجنبه وحُذِرَ من ممارسته.

لا تختلف الشرائع والقوانين في هذا المبدأ قط، وما من مجتمع من المجتمعات الإنسانية إلا ويدين به، لا فرق في ذلك بين قديم وحديث ومذهب وآخر.

ولكن المجتمعات والمذاهب الفكرية والفلسفية تختلف في مقاييس الفائدة والضرر. فرب أمر كان في نظر مجتمع ما ذا فائدة كبرى، وهو في نظر مجتمع آخر لا يحمل كل تلك الفائدة.. ورب أمر نُظر إليه في مجتمع ما على أن ضرره هو الغالب، وينظر إليه في مجتمع آخر على أنه ليس إلا ضرراً بسيطاً يهون في مقابل فائدته. وتختلف التشريعات بناء على ذلك.

ومصدر هذا الاختلاف الساري في المجتمعات الإنسانية من أقدم العصور، خلاف الفلاسفة في مقياس المنفعة. فقد قدّرها بعضهم بمقياس العرف، وهو مختلف، كما هو معلوم ما بين بقعة وأخرى وزمن وآخر.. وقدرها آخرون بقيمة السعادة

الشخصية أي بمدى ما يستفيده صاحب الفعل لنفسه، بقطع النظر عمن تعلق به أثر الفعل. وينتمي هذا الرأي إلى الفيلسوف اليوناني : أبيقور (..-٢٣٠ ق.م) وقدرها آخرون بما سموه «أكبر سعادة للنوع البشري، بل لكلِّ ذي إحساس» وهو المذهب الذي أطلق عليه اسم : مذهب المنفعة العامة[١].

المهم أن سائر المجتمعات الإنسانية، منذ أقدم العصور، تأخذ في شرائعها وقوانينها بالدعوة إلى ما قل ضرره وعظم نفعه، والتحذير مما قل نفعه وعظم ضرره، مع اختلافهم كما قلنا في تحديد معنى المنفعة، ومن ثم في تحديد معنى الضرر الذي يقابله.

والشريعة الإسلامية ليست بدعاً من الشرائع الأخرى في هذا المبدأ. فهي أيضاً تشرع ما تغلبت منفعته على ضرره، فتبيحه إن لم تبلغ المنفعة فيه درجة الضرورة، وتوجبه إن بلغت تلك الدرجة. وتحذر مما تغلب ضرره على منفعته، ثم تقف بالتحذير عند درجة الكراهة - فيما لم يشتد ضرره، وتبلغ به درجة التحريم فيما اشتد ضرره.

إلا أن الشريعة الإسلامية تختلف عن الشرائع الأخرى في تحديد مقياس المصلحة والمفسدة. فللمصلحة ضوابط محددة ثابتة في ميزان الشريعة الإسلامية، ولا تعاني من الاضطراب الذي عانت منه المذاهب الفلسفية والاجتماعية في فهمها. والحديث عن

---

(١) إمام هذا المذهب الفيلسوف اليوناني زينون (٣٤٢-٢٧٠) ق.م وقد كان معاصراً لأبيقور، ومن الذاهبين إلى هذا المذهب في العصر الحديث كانت (١٧٢٤-١٨٠٤).

هذه الضوابط التي تميزت بها الشريعة الإسلامية ينتهي بنا إلى علم مستقل منبثق من أصول الشريعة الإسلامية يسمى بعلم المقاصد. وهو منبثق أولاً وآخراً من كتاب الله الذي يدور حديثنا في هذا الكتاب عنه[١].

فلقد فرض الله جل جلاله على عباده الصلاة والصيام والحج والزكاة، نظراً إلى أن الفائدة الموجودة في كل منها ترق إلى درجة الضرورة. ومن ثم فقد صُرِف النظر عما قد يتحمله الإنسان من ضرر لدى قيامه بها.

وحرم الله على عباده التعامل بالربا والميسر وشرب الخمر وارتكاب الزنا، نظراً إلى أن الضرر الموجود في كل منها بالغ الخطورة سيئ النتائج.. ومن ثم فقد صُرِف النظر عما قد يوجد في كل منها من المنافع الجزئية المحدودة .

إذن الأضرار موجودة فيما قد شرعه الله وأمر به، ولكنها أضرار جزئية متحمّلة بالقياس إلى الفوائد العظمى المنبثقة عن القيام به... والفوائد موجودة فيما قد نهى الله عنه، ولكنها فوائد قليلة بالقياس إلى الأضرار الكبيرة والكثيرة المنبثقة عن ارتكابه.

ولا ريب أن الله (وهو الذي خلق هذه المكونات وأقام نظام المعايش فيها) قادر على أن يميز ما شرعه من الأمور المفيدة النافعة عن الأضرار والمفاسد السارية فيها، وقادر على أن يخلي

---

(١) بوسعك إن أردت الوقوف على هذا الفن الرجوع إلى كتابي «ضوابط المصلحة في الشريعة الإسلامية».

الأعمال والتصرفات الضارة التي نهى عنها عن الفوائد واللذائذ الموجودة فيها، وأن يفصل عالم المنافع عن عالم المفاسد. لكنه الابتلاء أقامه الله أمام الإنسان في عالم التكليف. ليستأهل الأجر مقابل ما يتحمله من شدة وضرر لدى قيامه بالوظائف المفيدة، ومقابل ما يحرم نفسه من لذة ومنفعة لدى تجنبه الأعمال والتصرفات الضارة.

فإذا طويت هذه الحياة الدنيا بنظامها التكويني والمعاشي الذي أقامه الله فيها، وأقبل دور الحياة الآخرة بنظامها التكويني والمعاشي الجديد، وتلاقت الأجيال في ساحة تلك الحياة، فاعلم أن سلطان التكليف لن يكون له وجود آنذاك، وإنما هو ملتقى الأجيال البشرية كلها على الجزاء المجرد.. إن خيراً فخير، أو شراً فشر.

وبناء على ذلك فإن المتع الكثيرة التي لا حصر لها، والتي تزدان بها الجنة آنذاك، تكون متعاً صافية عن شوائب المفاسد التي كانت تشوبها في دار الدنيا، والتي اقتضاها آنذاك عالم الابتلاء والتكليف، ومن ثم فليس ثم موجب لتحريمها والتحذير منها.

إن الخمرة فيها متعة بلا ريب، ولكنها مشوبة اليوم بأضرار ومفاسد، تذهب بجدوى متعتها، فاعلم أن الله يكرم عباده الصالحين، بهذه الخمرة آنذاك مبرّأة من المفاسد التي فيها. جزاء صبرهم عن متعتها في دار الدنيا، ليست فيها الغصة التي يعاني منها الشاربون، وليس فيها مع النشوة ما يزهق العقل، وليست

لها أضرارها المعروفة التي تسري إلى الجسم، إذن ليس فيها ما يستوجب التحذير والتحريم. وانظر في بيان هذا إلى قوله عز وجل ﴿يَطُوفُ عَلَيْهِمْ وِلْدَانٌ مُّخَلَّدُونَ ﴿١٧﴾ بِأَكْوَابٍ وَأَبَارِيقَ وَكَأْسٍ مِّن مَّعِينٍ ﴿١٨﴾ لَّا يُصَدَّعُونَ عَنْهَا وَلَا يُنزِفُونَ ﴿١٩﴾﴾ [الواقعة: ٥٦/١٧-١٩]. وإلى قوله تعالى ﴿فِيهَآ أَنْهَٰرٌ مِّن مَّآءٍ غَيْرِ ءَاسِنٍ وَأَنْهَٰرٌ مِّن لَّبَنٍ لَّمْ يَتَغَيَّرْ طَعْمُهُۥ وَأَنْهَٰرٌ مِّنْ خَمْرٍ لَّذَّةٍ لِّلشَّٰرِبِينَ﴾ [محمد: ٤٧/١٥] وإلى قوله تعالى ﴿يَتَنَٰزَعُونَ فِيهَا كَأْسًا لَّا لَغْوٌ فِيهَا وَلَا تَأْثِيمٌ ﴿٢٣﴾﴾ [الطور: ٥٢/٢٣].

تأمل كيف يجرد البيان الإلهي ما أسماه الخمر في الجنة من شوائبها المرذولة اليوم، من الغصة في الحلق والصداع في الرأس والذهاب بالعقل، والدفع إلى اللغو من الكلام والباطل من السلوك.. إنْ هناك إلا اللذة بشربها، والنشوة بآثارها، فما الموجب لتحريمها، وما المبرر لحرمان أهل الجنة من نعمة التمتع بها.

والحديث ذاته يتكرر بالنسبة لسائر المتع الأخرى، ومنها متعة النظر إلى الجمال، سواء كان جمال الطبيعة أو جمال الأشخاص، وسواء الإناث منهم والذكور، والكبار والصغار.

لقد كان النظر إلى جمال المرأة والغلمان في دار الدنيا يشوبه نوع من الفساد خطير كما هو معلوم.. أما في جنان الخلد فقد صفيت هذه المتعة من سائر الشوائب، فما الموجب لمنعها، بل ما المبرر لأن يحرم أهل الجنة منها ؟ ما الذي يمنع من أن تزدان المجالس بغلمان هم في غاية الحسن والجمال، يديرون كؤوس الراح على الجالسين ؟ عالم من المتعة صُفِيّ نعيمه عن سائر

الشوائب التي تبعث على الشر أو الفساد أو الآلام، ما الموجب لإبعاده عن ذلك العالم وحرمان أهل الجنة منه ؟.

ولا داعي لأن أطيل بذكر الأمثلة والنماذج.. وحسبك أن تعلم أن كل ما هو محرم من اللذائذ والمتع في الشريعة والقوانين اليوم، مشروع ومباح (إن جاز هذا التعبير) وقريب المتناول في جنان الخلد غداً. وإن غداً لناظره قريب. ذلك لأن الأضرار والمفاسد التي كانت ممزوجة بها في دنيا الابتلاء والتكليف للحكمة التي ذكرتها لك، أزيلت وانتهى دورها هناك.

★ ★ ★

أقول بعد هذا : ألا تعجب معي ممن يقرر امتداد أحكام الحرام والحلال والواجبات التي أقامها الله في الدنيا، إلى اليوم الآخر، ويقيم بقرار من عنده، عالماً ثانياً للتكليف هناك، ليتأتى له أن يستنكر ساخراً من قرار الله القائل : «لهم ما يشاؤون فيها ولدينا مزيد» ومن رفعه جل جلاله الحظر لعباده عن سائر المشتهيات، بحجة أن هذا القرار الرباني يتعارض مع قراره هو باستمرار التكليف ودوام الأحكام الدنيوية المنوطة بالأشياء، حرمة ووجوباً هناك. ونصيحتي لهذا الناقد هي قولي له :

استجب لأحكام الله التي ألزمك بها هنا، ولا توجع رأسك بخيالات التكليف وضوابط السلوك هناك!..

هل الحور العين في الجنة
وقف للرجال فقط ؟..

يقول قائلهم :

يطيل القرآن الحديث عما أعده الله في الجنة للرجال من الحور العين، دون أن يعد النساء بمثل ذلك. وهذا في القرآن دليل جديد على تكريس النظرة الدونية للمرأة.. حتى في جنة الخلد، حيث عالم المثوبة والجزاء.

وأقول: من المفروض أن هذا الناقد يتمتع بجامع مشترك من مشاعر الذوق الإنساني ويتمتع بالقدر الذي لابدّ منه من معرفة الفرق بين طبيعتي الرجولة في الرجل والأنوثة في الأنثى، وبناء على ذلك أقوله له : هب أن لك من الأولاد شاباً وفتاة، وكلاهما بارّ بك مطيع لك ساع في خدمتك، أترى ما يمنع من أن تباسط ابنك البارّ بك، فتعده صراحة بفتاة جميلة تزوجه منها يجد فيها أنس نفسه وسعادة قلبه؟.. ليس من شك في أنك لا ترى ما يمنعك من هذه المكاشفة والمصارحة، ولسوف يكون ابنك سعيداً بهذا الذي تعده به.. حسناً، وهل ترى ما يمنعك من

أن تباسط أخته البارّة بك أيضاً فتعدها صراحة بفتى أنيق جميل تزوجها منه، تجد في الزواج منه السعادة والمتعة ؟.. ليس من شك في أن ذوقك المرهف سيمنعك من أن تواجهها بهذه الصراحة، لأنك تدرك فيما تعلمه من طبيعة الأنوثة في الأنثى، أنها تُحرج من هذه المواجهة الصريحة ولا ترحب بها، وأغلب الظن أنك إن خالفت الذوق وأدب التعامل والحديث، فواجهتها بهذا الكلام فإنها ستقوم مدبرة عن المجلس دون أن تجيبك بشيء.

إذن فأنت تعرف فرق ما بين الشاب والفتاة في هذا الأمر، ومن ثم فإنك تواجه ابنك صراحة بهذا الذي عزمت على أن تكرمه به.. في حين أنك تحاذر إحراج ابنتك بمثل هذا الكلام، وتتخذ إلى ما عزمت عليه سبيلاً آخر يليق بمشاعرها الأنثوية.

فلماذا تنتقد مولاك الأجل سبحانه وتعالى في أمر أنت مقتنع به ومتبع له فيه، لماذا تتهمه بالمعاملة الدونية للمرأة احتجاجاً بهذا الأمر ولا تتهم نفسك بالتهمة ذاتها احتجاجاً باتباعك له في الأمر ذاته؟!..

ألا فلتعلم أن البيان الإلهي يُعلِّم المتدبرين له الذوق الرفيع في مخاطبة الآخرين ومعاملتهم.. إن إلهنا الذي خلق الأنثى ومتعها بصفات الأنوثة وخلق الذكر ومتعه بصفات الرجولة، لابدّ أن يخاطب كلاً منهما ويعامله بما يتفق مع الطبيعة التي بثها فيه. وانتظار ما يخالف ذلك انتقاص لحكمة الله عز وجل، وحاشاه عن ذلك.

أما العطاء والتكريم فهما للرجل والمرأة على حد سواء في الدنيا والآخرة.. ولئن لم يصرح الله للمرأة في قرآنه بمثل ما صرح به للرجل، فلكي يعلِّمك بذلك ذوق التعامل وأسلوب الخطاب.

ألم يقل الله عز وجل خطاباً للرجل والمرأة: ﴿وَأُزْلِفَتِ ٱلْجَنَّةُ لِلْمُتَّقِينَ غَيْرَ بَعِيدٍ ﴿٣١﴾ هَٰذَا مَا تُوعَدُونَ لِكُلِّ أَوَّابٍ حَفِيظٍ ﴿٣٢﴾ مَّنْ خَشِىَ ٱلرَّحْمَٰنَ بِٱلْغَيْبِ وَجَآءَ بِقَلْبٍ مُّنِيبٍ ﴿٣٣﴾ ٱدْخُلُوهَا بِسَلَٰمٍ ذَٰلِكَ يَوْمُ ٱلْخُلُودِ ﴿٣٤﴾ لَهُم مَّا يَشَآءُونَ فِيهَا وَلَدَيْنَا مَزِيدٌ ﴿٣٥﴾﴾ [ق: ٥٠/٣١-٣٥]: إذن فللنساء والرجال ما يشاؤون في الجنة، فلا تتشهى المرأة شيئاً إلا ويحققه الله لها كما تحب، ولا يتشهى الرجل شيئاً إلا ويحققه الله له على أحسن وجه. وأصرح من هذا في بيان الأمر ذاته قول الله تعالى: ﴿يُطَافُ عَلَيْهِم بِصِحَافٍ مِّن ذَهَبٍ وَأَكْوَابٍ وَفِيهَا مَا تَشْتَهِيهِ ٱلْأَنفُسُ وَتَلَذُّ ٱلْأَعْيُنُ وَأَنتُمْ فِيهَا خَٰلِدُونَ ﴿٧١﴾﴾ [الزخرف: ٤٣/٧١] فالأنفس جمع نفس، وهي تشمل الذكر والأنثى على حد سواء.

إذن فإن هذا الذي تريد من البيان الإلهي أن يقوله تصريحاً للمرأة كما للرجل، قد أكده البيان الإلهي إجمالاً دون إساءة ولا إحراج لأحد.

★ ★ ★

يخيل إليَّ أنَّ هذا الناقد الساخر من كلام الله تعالى سيقول: ربما تحرجت الفتاة العربية لا سيما المسلمة من أن تواجه صراحة بمثل هذا الكلام، وربما شعرت من ذلك بما يجرحها، ولكن

الفتاة الغربية في أوربة وأمريكة ليست كذلك، إنها لا تشعر بأي حرج في أن يعدها والدها بالزوج الذي يسعدها، بل إنها لا ترى حرجاً في أن تبحث لنفسها عن الشاب الذي يعجبها لتصارحه بالخطبة.

وأقول: هذا صحيح، وهو من سوء حظ الفتاة الغربية، وهو من أهم أسباب شقائها. إن الأنثى أياً كانت وأينما كانت مفطورة على الرغبة في أن تُطلَبَ لا أن تَطْلب. إن الذي يسعدها ويدغدغ أنوثتها أن يسعى الرجل بحثاً عنها وتعلقاً بها وليس العكس..

ولكن الذي يعاني منه الغرب اليوم، أن سبيل الشاب إلى الفتاة والتمتع بها غدا ميسراً لا يكلفه شيئاً. والسبل الخلفية والشاذة الشاردة عن وسيلة الزواج غدت كثيرة ورخيصة لا تكلف جهداً ولا مالاً. فكان أن تراجع الإقبال على الزواج ثم ازداد تراجعاً، ثم إن الإقبال عليه ذبل، فمات.

وقد نشرت مجلة : News week في عدد يناير عام **١٩٩٧** تحقيقاً مطولاً بعنوان «موت الزواج» تضمن بيان المأساة المنبثقة عن هذه الظاهرة، المنعكسة على الأطفال، والمنعكسة بطريقة درامية مؤلمة على النساء. ذلك أن الفتاة تظل في كل الأحوال تواقة إلى أن تشبع رغبة الأمومة في نفسها، وإنما سبيل ذلك الزواج. والزواج أقفرت ساحته من المقبلين إليها والباحثين عن الزوجات فيها. وإنما سبيلها إلى ذلك عندئذ إحدى وسيلتين :

الأولى : أن تطرق باب أحد الشباب تعرض عليه الزواج،

بل تتوسل إليه في أن يستجيب إلى رغبتها.. فإن أسعفها الحظ برضاه، فذاك، وإلا فليس أمامها إلا :

الوسيلة الثانية : وهي أن تسلم نفسها لأي من الراغبين فيها، أملاً في أن تأتي منه بمولود، تمارس لوناً من الأمومة برعايته ريثما تشبع رغبتها في ذلك.

إذن فالفتاة أياً كانت وأينما كانت، مفطورة على الرغبة في أن تكون مطلوبة لا أن تكون طالبة.. ولكن هذا الوضع الشاذ في المجتمع الغربي، صرف رغبة الشباب عن الزواج، لما فيه من قيود ومسؤوليات هم بغنى عنها، وهو الأمر الذي اضطر الفتاة أن تخالف فطرتها وتذل نفسها، فتستجدي الرجال الزواج..

واذكر أن قريباً لي طابت له الإقامة في أمريكة، تزوج من امرأة أمريكية كانت هي المبادرة إلى خطبته لنفسها وهي المقدمة لجل نفقات زواجها منه.. عاد إلى دمشق معها في زيارة لأهله لبضعة أيام، ولما رأت أن العادة الجارية عندنا هي ما يتفق مع فطرة المرأة من خطبة الشاب لها، وتعَزُّزِ الفتاة بحثاً عن الشروط التي تطلبها، أسرّت الزوجة الأمريكية إلى زوجها تتوسل إليه ألا يعلم أهله بأنها هي التي خطبته وعرضت نفسها زوجة له.

★ ★ ★

إذن فالقرآن، لأنه كلام الله فاطر الرجل على صفات الرجولة وفاطر المرأة على صفات الأنوثة، خاطب الرجال والنساء فيما أعده لهم ولهن بالطريقة المتفقة مع فطرتهم وفطرتهن. وطمأن

الكل أن فيها، أي الجنة ما تشتهيه الأنفس وتلذ الأعين، وأن لهم، رجالاً ونساء، ما يشاؤون فيها، ولهم من الله تعالى أن يكرمهم بالمزيد.

ولعلك تقول : فقد علمنا كيف يكرم الله الرجال بالحور العين من النساء.. فكيف يكرم النساءَ بأمثالهن من الرجال ؟

والجواب أن هذا شأن الله واختصاصه، وليس حتماً أن يطلعك الله على كيفية ما قدّره وقضاه، وهل أوتيت علماً بكيفيات ما أعده الله لعباده الصالحين في الجنة، وغابت عن علمك هذه الكيفية وحدها؟!..

حسبك أن تقف عندما يقوله رسول الله عن وصف الجنة وما فيها : «فيها ما لا عين رأت ولا أذن سمعت ولا خطر على قلب بشر» وأن تسلم الأمر لمولاك الذي وعدك بذلك كله، إن أنت رحلت إليه من هذه الدنيا مؤمناً به موقناً بأن القرآن كلامه وأن محمداً رسوله.

الفهم الخاطئ لمعنى الجنة في القرآن

يقول قائلهم :

كانت الجزيرة العربية ولا سيما مكة تعاني من جفاف، كانت أرضها قاحلة وجبالها جرداء، وكان الحُلُم، بل الأمنية الكبرى لأهلها أن يعثروا في أرضهم تلك على عرق أخضر أو جدول ماء.. فأغراهم محمد «صلى الله عليه وسلم» إن هم اتبعوه بجنان خضراء وأشجار كثيرة وكثيفة تتسلسل من بينها الأنهار والجداول.. إذن فالجنة، كما يحب أن يفهمها محترفو الكذب على القرآن مجرد غابات ومياه، ومحمد مجرد خادع لقومه، وحلمه الذي كان يسعى إليه الرئاسة والملك.

وأقول: هل الجنة فيما عرفها القرآن به، مجرد غابات تجري من تحتها الأنهار ؟ الجنة، فيما عرفها القرآن به عالم فيه كل ما تشتهيه الأنفس ممارسةً، وكل ما يلذّ للأعين نظراً، وفيه كل ما يشاؤه المنعمون فيه من المبتغيات التي بقيت في أنفسهم صور لها وذكريات عنها، وفيه الجديد والمزيد الذي لم يخطر منهم على بال، وليس له نموذج سابق في حياتهم الدنيا، ولا في الأحلام التي يبتغونها.

ألم تقرأ قوله تعالى : ﴿وَفِيهَا مَا تَشْتَهِيهِ ٱلْأَنفُسُ وَتَلَذُّ ٱلْأَعْيُنُ وَأَنتُمْ فِيهَا خَٰلِدُونَ﴾ [الزخرف: ٤٣/٧١] أو قوله تعالى ﴿ٱدْخُلُوهَا بِسَلَٰمٍ ذَٰلِكَ يَوْمُ ٱلْخُلُودِ ﴿٣٤﴾ لَهُم مَّا يَشَآءُونَ فِيهَا وَلَدَيْنَا مَزِيدٌ ﴿٣٥﴾﴾ [ق: ٥٠/٣٤-٣٥] أو قول محمد صلى الله عليه وسلم «فيها ما لا عين رأت ولا أذن سمعت ولا خطر على قلب بشر» ؟.. ولكن الذين أقاموا أنفسهم على وظيفة التدجيل والافتئات على القرآن، لا يلتقطون منه إلا ما يحسبون أنهم قادرون على التلاعب به والتلبيس عليه، فإذا رأوا فيه ما يكشف دجلهم، تجاهلوه وأعرضوا عنه.

ولكن قد يقال : فلماذا أطلق على ذلك العالَم الذي فيه كل أنواع اللذائذ والمشتهيات اسم نوع بسيط واحد منها، هو الجنة، أو ما نسميه الحدائق والبساتين؟

والجواب أن هذا من قبيل ما هو معروف في اللغة العربية بتسمية الكل باسم الجزء.. يجمع الشاعر قصائده في ديوان، ويطلق عليه اسم أجمل قصيدة في نظره بينها، وعلم العقيدة الإسلامية يتضمن مسائل شتى يجب علمها والاعتقاد بها، ولكن في العلماء من أطلقوا على هذا العلم اسم علم الكلام، لأنهم رأوا أن مسألة كلام الله والبحث في قدمه وعدم قدمه والخلاف الذي استشرى بين المعتزلة وغيرهم في ذلك، من أبرز مسائل هذا العلم، فأطلقوا اسم هذا الجزء على مسائل العلم كلها. فإطلاق اسم الجنة على ذلك العالَم كله بكل ما فيه من هذا القبيل، أي من قبيل إطلاق اسم الجزء على الكل.

ولك أن تسأل : فلماذا اختير اسم هذا النوع البسيط دون غيره من متع ذلك العالم؟

والجواب: أن سائر المتع الأخرى على اختلافها، خاضعة للتطور والتبدل مع الزمن، لا يبقى شيء منها على حاله قط.. تأمل في مظاهر النعيم التي يبحث عنها الإنسان ويركن إليها، وتتبع تاريخها عائداً بها إلى القرون الخوالي، تجد أنها قد تطورت من حال إلى آخر، بل تجد كثيراً منها قد تطور من نوع إلى نوع، واكتسب خلال حقبة يسيرة من الزمن اسماً جديداً ناسخاً لاسمه القديم.. ولكنك ستجد لدى التأمل والاستقراء نوعاً من أنواع النعيم والمتع الإنسانية لم يتطور مع الزمن، لم يتبدل له شكل ولم يتغير له اسم، منذ أقدم العصور إلى الآن. إنه متعة الحدائق والمروج والخضرة والرياحين، وبريق الماء المتدفق فيما بينها.. أدخل أحد الدور الفخمة لواحد من الأغنياء المترفين في أوربة أوأمريكة، تجد كل شيء مما حشيت به الدار من أنواع المتع ووسائل الراحة، جديداً متطوراً عما كان عليه في مظهره وربما في اسمه، قبل قرن واحد من الزمن، فما بالك ببعد ما بينه وبين ما يمكن أن يقوم مقامه قبل عشرة قرون مثلاً؟.. حتى إذا خرج بك صاحب الدار إلى الحديقة التي تحيط بها، رأيت نفسك أمام اللوحة ذاتها المرئية في الأعين والمحفوظة في الأذهان منذ أقدم العصور، أشجار خضراء، ومروج مزدانة بالورود والرياحين، وجداول من الماء العذب الرقراق ينساب بينها.. متعة لا تشبع منها الأبصار، ولا تمل منها النفوس، لم يتبدل لها شكل ولم يتغير لها اسم منذ أقدم غور وعاه التاريخ الإنساني.

فمن أجل ذلك اقتضت الحكمة الربانية أن يسمّى ذلك العالم باسم أبقى متعة من متعه ونعيم من نعمه، تسامى على سلطان التطور والتغير إن في شكله أو في اسمه، وإنما هو الجنة والأنهار.

★ ★ ★

ثم إنا نعود فنقول مرة ثانية لهذا المستخف بالجنة والمستهزئ بحديث القرآن عنها : إن المشركين الذين لاقى منهم رسول الله ما لاقى، لم يكونوا أقل منك حقداً على رسول الله، واستخفافاً بدعوته والرسالة التي جاء بها إلى العالم من عند الله. فلماذا لم يتهموه بهذا الذي تقول .. لماذا لم يقولوا له : إنك تدغدغ بجنتك التي تغرينا بها، أحلامنا بأرض خضراء ممرعة وينابيع من المياه الثرَّة، لنستجيب في مقابل ذلك لدعوتك التي تريد من ورائها أن تتخذ من أكتافنا عرشاً لك، تمارس فيه الرئاسة فينا والحكم علينا!..

ألم يكن أولئك المشركون أولى منك بهذا الاتهام ؟ أم هل كانوا من السذاجة والغباء بحيث انطلى عليهم مكره وغاب عنهم قصده، في حين أنك أدركت بذكائك الخارق قصده وبُعد مرماه؟

ولكن دعني أسألك : أهو الذكاء وضياء الفراسة ذاك الذي كشف لك عن قصد محمد صلى الله عليه وسلم، في القرآن الذي بلّغه والجنة التي وصفها ووعد بها، أم هو نار الضغينة والحقد التهبت بين جوانحك، فأقحمتك في الكذب والافتراء، وساقتك إلى أن تصف رسول الله بنقيض ما فيه، وإلى أن تتهمه بلحاق التفاهة التي تعلم أنه مستعلٍ عليها وهارب منها ؟..

إذن فمحمد صلى الله عليه وسلم، إنما كان - في زعمك - يحوك من دعوته وقرآنه سلماً إلى الرئاسة والملك. ولكنك تعلم أن أبواب كل منهما تفتحت له فأعرض عنها ولم يبال بها، وآثر أن يظل عبداً منكسراً في قبضة الله؛ يجوع يوماً فيسأل الله؛ ويشبع يوماً فيشكر الله..

أجل إنك تعلم ذلك، وتعلم - وأنت الدارس لحياته المنقب بحثاً عن الثغرات والنقائص في سيرته - أن شيخاً من شيوخ قريش وهو عتبة بن ربيعة أقبل إلى رسول الله رسولاً إليه من قبل مشركي مكة، يعرض عليه الرئاسة والملك والثراء، والتمتع بأجمل النساء، على أن يترك هذه الدعوة التي جاءهم بها ويقلع عن الخوض في آلهتهم وتسخيفهم وتسخيف آبائهم فكان جواب محمد صلى الله عليه وسلم هذه الكلمات التي تعلمها بلا ريب :

«ما جئت بما جئتكم به أبغي مالكم ولا الملك فيكم ولا السؤدد عليكم، ولكن الله جعلني رسولاً وأنزل عليّ كتاباً فبلغتكموه، فإن تؤمنوا به فذلك حظكم مني، وحظي منكم، وإن ترفضوا أصبر لحكم الله تعالى حتى يقضي بيني وبينكم».

لعلك تتابع المكابرة والعناد، فتقول : هذا الذي قاله لعتبة ولقومه إنما قاله تحبباً وتجملاً بالزهد، ليقبلوا إليه فيتعلقوا به، فيحملوه على الرئاسة والملك وهو لذلك، في الظاهر، كاره.

أقول : وها هم أولاء تعلقوا به وعرضوا عليه الرئاسة والملك من منطلق ما أعجبوا به من أمانته ونزاهته وسمو أخلاقه

وعجيب تواضعه، فكان المفروض - لو صدقت فراستك الكاذبة فيه، واتهامك الحاقد له - أن يتبوّأ هذا العرش الذي كان يسعى إليه من الباب الذي ابتغاه، وقد فتح له على النحو الذي ابتغاه - فيما تزعم - وأكثر، فهلا سار إليه، وهلا حقق لنفسه الأمنية التي غبر حياته يسعى إليها - فيما يصرّ عليه كيدك وعنادك -

لعلك ترى من خلال نظارتك السوداء المصبوغة بسواد الضغينة والحقد، أنه قد تبوأ مركز الرئاسة والملك فعلاً، وأنه حقق طموحاته التي رافقت حياته منذ صغره. إذن فأرني مظاهر شيء من ذلك في حياته.. متى تربع على هذا العرش ؟! أفي مكة حيث الإيذاء الذي انهال عليه بكل ألوانِهِ؛ اللهم إلا القتل الذي عصمه الله منه ؟ أم في المدينة حيث كانت معيشته البيتية مضرب المثل للزهد والتقشف والانصراف عن زينة الدنيا ومبهجاتها؟..

أم في الأيام أو الساعات الأخيرة من حياته، وقد علمت الدنيا كلها أنه مات ودرعه مرهونة؟

ولقد طاف بذهن عدّي بن حاتم الطائي، هذا الذي تتهم به محمداً صلى الله عليه وسلم، ثم تُبادِرُ فتحيل اتهامك له إلى حكم عليه، ولكنه كان موضوعياً في هذا الاحتمال الذي خطر في باله وهو بعيد عن الجزيرة العربية مقيم في الشام، فوضع احتماله هذا تحت مجهر النظر والبحث. وتعال فاسمع ما يقوله هذا الرجل عن عمله الذي سلكه في ذلك ليتجاوز مرحلة الافتراض إلى معرفة الحقيقة، يقول :

«لو أتيتُ محمداً، فإن كان ملِكاً أو كاذباً لم يخف علي. وإن كان صادقاً اتبعته. فخرجت حتى أقدم على رسول الله المدينة، فدخلت عليه وهو في مسجده، فسلمت عليه، فقال : من الرجل ؟ فقلت : عديّ بن حاتم. فقام رسول الله فانطلق بي إلى بيته. فوالله إنه لعامد بي إليه، إذ لقيته امرأة ضعيفة كبيرة، فاستوقفته فوقف لها طويلاً، تكلمه في حاجتها. فقلت في نفسي : والله ما هذا بملِك.. ثم مضى بي رسول الله حتى إذا دخل داره، تناول وسادة من أدم (أي جلد) محشوة ليفاً فقذفها إليّ وقال : اجلس على هذه. فقلت : بل أنت فاجلس عليها. فقال : بل أنت. فجلست عليها، وجلس هو على الأرض. فقلت في نفسي: والله ما هذا بملِك.. يقول عدي فعلمت أنه صادق وأنه رسول، فأسلمت».

ولو أنك أبعدت عن عينيك نظارتك الحاقدة السوداء، لرأيت هذا الذي رآه عديّ، ولأدركت أن محمداً صلى الله عليه وسلم كان رسولاً من الله إلى العالم كله، ولم يكن ملِكاً ولا هاوي ملك.

فإن كان عنادك بعد كل هذا لا يزال متحكماً بنفسك، ومشاعر حقدك لا تزال تمدّ غاشية السكر على عقلك. فأصغ إلى هذا الذي يقوله رسول الله، أتشمّ فيه رائحة توجه إلى الدنيا أو ركون إليها ؟

يقول : «مالي وللدنيا، ما أنا في الدنيا إلا كراكب استظل تحت شجرة ثم راح وتركها»[١]. ويقول : «.. والله ما الفقر أخشى عليكم. ولكني أخشى عليكم أن تبسط الدنيا عليكم كما بسطت على من كان قبلكم، فتنافسوها كما تنافسوها فتهلككم كما أهلكتهم»[٢].

ويقول، وقد مر في السوق بجدي ميت، فتناوله فأخذ بأذنه : «أيكم يحب أن يكون له هذا بدرهم. فقالوا : ما نحب أنه لنا بشيء وما نصنع به ؟ فقال : والله لَلدنيا أهون على الله من هذا عليكم»[٣].

أترى أن هذا كلام من يسيل لعابه على الملك والرئاسة والمال، ويدجّل على قومه ابتغاء الوصول إلى هذا الحلم؟!..

فإن كان سواد الحقد لا يزال يغشى على نفسك وعينيك فإليك هذه المعلومات عن حياته البيتية :

روت عائشة رضي الله عنها أنه كان يمرّ على رسول الله ثلاثة أهلّة، لا يوقد في بيته نار لطعام، وقد توفي رسول الله وما شبع من خبز وزيت في يوم واحد مرتين .[٤]

وقد صح أن نساء النبي اجتمعن عليه وسألنه مزيداً من النفقة

---

(١) رواه أحمد والترمذي وابن ماجه والحاكم

(٢) متفق عليه من رواية البخاري ومسلم

(٣) رواه مسلم

(٤) متفق عليه

بحيث تكون حال الواحدة منهن كحال أي امرأة من نساء الصحابة. فلم يجبهن رسول الله إلى ذلك. وأنزل الله عليه في ذلك قوله :

﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ قُل لِّأَزۡوَٰجِكَ إِن كُنتُنَّ تُرِدۡنَ ٱلۡحَيَوٰةَ ٱلدُّنۡيَا وَزِينَتَهَا فَتَعَالَيۡنَ أُمَتِّعۡكُنَّ وَأُسَرِّحۡكُنَّ سَرَاحٗا جَمِيلٗا ﴿٢٨﴾ وَإِن كُنتُنَّ تُرِدۡنَ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ وَٱلدَّارَ ٱلۡأٓخِرَةَ فَإِنَّ ٱللَّهَ أَعَدَّ لِلۡمُحۡسِنَٰتِ مِنكُنَّ أَجۡرًا عَظِيمٗا ﴿٢٩﴾ ﴾ [الأحزاب: ٣٣/٢٨-٢٩].

فجمع رسول الله نساءه وخيرهن بين الصبر على الحالة التي هن فيها من شظف العيش وبين الاستجابة لرغباتهن على أن يسرحهن بعد ذلك سراحاً جميلاً، أي يطلقهن بالمعروف. قالت عائشة : فبدأ رسول الله بي فقال : «إني ذاكر لك أمراً فلا عليك أن لا تستعجلي حتى تستأمري أبويك» وتلا عليّ رسول الله هاتين الآيتين. فقلت : أفي هذا أستأمر أبوي ؟ بل إني أريد الله ورسوله والدار الآخرة [١].

قل لي الآن : ألا يستحي عنادك.. ألا يُحرجَ حقدك من تجاهل كل هذا الذي يمزق خيالك أو افتراضك الذي افترضته في حق الجنة التي تحدث عنها القرآن وفي حق محمد رسول الله، شرّ ممزق ؟ إنك إذن ممن يثور على العقل إذ يفرق بين النقائض ويباعد بين المشرق والمغرب.

---

(١) رواه البخاري.

إنك إذن ذاك الذي يصفق له الشاعر قائلاً :

فضاحكِ الشمس في الدياجي
وداعبِ البدر في المحاق

ولا تحققْ ولا تدققْ
وانسبْ شآماً إلى عراق

وقلْ كلاماً بغير معنى
واحلفْ على الإفك بالطلاق

فأي شخص كأي شخص
بلا اختلاف ولا اتفاق

لماذا يتحدث القرآن عن الجزئيات في الجنة؟

يقول قائلهم :

أن يتحدث القرآن عن الجنة معرفاً بها، مبيناً للإنسان ما قد يغمض من متعها وما يجهله من نظامها وأحوالها وعلاقات الناس بعضهم ببعض فيها، معقول ومنطقي. ولكن ما الفائدة المرجوّة، وما الجديد الذي لم يكن القارئ يعرفه، في أن يسهب القرآن في ذكر جزئيات يستقل العقل بمعرفة وجودها، كالحديث عن الأكواب والكؤوس والأطباق والنمارق والمتكآت، والفرش والسرر المرفوعة، وكذكره السدر المخضود والطلح المنضود[1] والظل الممدود والماء والمسكوب.. ما من إنسان إلا ويعلم أن أيّ حياة مقبولة للإنسان لابدّ من وجود هذه المستلزمات الطبيعية فيها، دون حاجة إلى ذكرها وتعدادها. أليس هذا من اللغو الذي تتنزه عنه بلاغة الكلام ؟.

وأقول: ليس في القرآن لغو قط. وجهل الناقد للحكمة الكامنة وراء هذا التفصيل في القرآن، ليس حجة على القرآن وإنما هو

---

(١)السدر: شجر يكثر فيه الشوك، والمخضود: أي المجرد شوكه عنه، والطلح: الموز.

حجة على صاحبه، وإليك الكشف عن الحكمة التي يجهلها هذا الناقد.

ظهر في القرن الثاني والثالث، على إثر ترجمة كتب الفلسفة اليونانية إلى اللغة العربية، مذهب يرى أن حديث القرآن والكتب السماوية الأخرى عن النشأة الثانية بعد الموت وأحداثِ يوم القيامة، ولاسيما نعيم أهل الجنة في الجنة وعذاب أهل النار في النار، حديث صحيح، ولكن تلك النشأة الثانية إنما تكون للأرواح وحدها. فالأرواح هي التي تبعث، وهي التي تحاسب، ومن ثم فإن الأرواح هي التي تتلقى النعيم إن كانت من أهله، وهي التي تتلقى العذاب إن كانت من أهله. أما الجسد فهيهات أن يعود نسيجه كما كان بعد الفناء.

وهذه الفئة تنهج فيما تزعم منهجاً في الدين تمد منه جسوراً إلى الإلحاد والملحدين، وتسترضي المسلمين التقليديين أو السطحيين.

والقرآن، كما هو شأنه، يتحدث عن الناس الذين كانوا موجودين عند نزوله، ويتحدث في كثير من آياته عن الناس الذين سيأتون من بعد، يناقش أولئك وهؤلاء يوقظهم جميعاً إلى الحق ويحذرهم من التمادي في الباطل.. وهذا من أجلِّ المظاهر الدالة لكل عاقل على أن القرآن ليس كلام بشر من الناس.

فهو مثلاً يتحدث عن الناس الذين يأتون مع الزمن يعيثون في الأرض فساداً، يلوثون البيئة.. وينشرون الأوبئة في الأرض

والزرع وداخل الشطآن، فهو يقول عنهم ﴿ظَهَرَ ٱلْفَسَادُ فِي ٱلْبَرِّ وَٱلْبَحْرِ بِمَا كَسَبَتْ أَيْدِي ٱلنَّاسِ لِيُذِيقَهُم بَعْضَ ٱلَّذِي عَمِلُوا۟ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ ﴿٤١﴾﴾ [الروم: ٣٠/ ٤١].

ويقول ﴿وَإِذَا تَوَلَّىٰ سَعَىٰ فِي ٱلْأَرْضِ لِيُفْسِدَ فِيهَا وَيُهْلِكَ ٱلْحَرْثَ وَٱلنَّسْلَ ۗ وَٱللَّهُ لَا يُحِبُّ ٱلْفَسَادَ ﴿٢٠٥﴾﴾ [البقرة: ٢/ ٢٠٥] ويخاطبهم محذراً ﴿وَلَا تُفْسِدُوا۟ فِي ٱلْأَرْضِ بَعْدَ إِصْلَٰحِهَا وَٱدْعُوهُ خَوْفًا وَطَمَعًا ۚ﴾ [الأعراف: ٧/ ٥٦] ويحذرهم مؤكداً: ﴿وَلَا تُفْسِدُوا۟ فِي ٱلْأَرْضِ بَعْدَ إِصْلَٰحِهَا ۚ ذَٰلِكُمْ خَيْرٌ لَّكُمْ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ﴾ [الأعراف: ٧/ ٨٥].

ويتحدث عن الناس الذين يأتون مع الزمن أيضاً، يُدْلون قراراتهم الغيبية باسم العلم عن خلق السماوات والأرض وكيفية انبثاق الوجود، وعن خلق الإنسان وتطوره من حيوانات أقل شأناً (أصحاب نظريات التطور) موضحاً أنهم يخوضون من ذلك في مجْهلة، فيقول عنهم ﴿۞ مَّآ أَشْهَدتُّهُمْ خَلْقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَلَا خَلْقَ أَنفُسِهِمْ وَمَا كُنتُ مُتَّخِذَ ٱلْمُضِلِّينَ عَضُدًا ﴿٥١﴾﴾ [الكهف: ١٨/ ٥١].

فهو يتحدث أيضاً عن هؤلاء الذين سيأتون مع الزمن، وقد أُشْرِبت عقولهم أوهام الفلسفة الإغريقية، يؤكدون للناس أن النشأة الثانية بعد الموت إنما تكون للأرواح فقط، وأنها هي وحدها التي تتعرض للعذاب أو النعيم، أما الجسد الذي اهترأ وذاب فيستحيل أن يعود نسيجه، يتحدث القرآن عنهم مسفهاً ومبيناً جهلهم المركب، فيقول: ﴿أَيَحْسَبُ ٱلْإِنسَٰنُ أَلَّن نَّجْمَعَ عِظَامَهُۥ ﴿٣﴾ بَلَىٰ قَٰدِرِينَ عَلَىٰٓ أَن نُّسَوِّيَ بَنَانَهُۥ ﴿٤﴾﴾ [القيامة: ٧٥/ ٣-٤].

وأنت تعلم أن تعاريج البنان تحمل هوية صاحبها، فلا يلتبس منها بنان بآخر.. ثم إنه عندما يتحدث عن نعيم الجنة أو عذاب النار يركز على ما يتعامل منه مع الجسم، ليبدد هذا الوهم الذي يدجل به اليوم بعض الناس باسم العلم، وما هم من العلم في شيء.

يحدثك البيان الإلهي عن مظاهر مادية لا شأن للروح في التعامل المباشر معها، ليؤكد لك قراره القاضي بثنائية الروح والجسد عند النشأة الثانية. فيقول مثلاً : ﴿وَأَصْحَٰبُ ٱلْيَمِينِ مَآ أَصْحَٰبُ ٱلْيَمِينِ ﴿٢٧﴾ فِى سِدْرٍ مَّخْضُودٍ ﴿٢٨﴾ وَطَلْحٍ مَّنضُودٍ ﴿٢٩﴾ وَظِلٍّ مَّمْدُودٍ ﴿٣٠﴾ وَمَآءٍ مَّسْكُوبٍ ﴿٣١﴾ وَفَٰكِهَةٍ كَثِيرَةٍ ﴿٣٢﴾ لَّا مَقْطُوعَةٍ وَلَا مَمْنُوعَةٍ ﴿٣٣﴾ وَفُرُشٍ مَّرْفُوعَةٍ ﴿٣٤﴾﴾ [الواقعة: ٥٦/٢٧-٣٤] ويقول واصفاً طرفاً من نعيم الجنة : ﴿مُّتَّكِـِٔينَ فِيهَا عَلَى ٱلْأَرَآئِكِ لَا يَرَوْنَ فِيهَا شَمْسًا وَلَا زَمْهَرِيرًا ﴿١٣﴾ وَدَانِيَةً عَلَيْهِمْ ظِلَٰلُهَا وَذُلِّلَتْ قُطُوفُهَا تَذْلِيلًا ﴿١٤﴾ وَيُطَافُ عَلَيْهِم بِـَٔانِيَةٍ مِّن فِضَّةٍ وَأَكْوَابٍ كَانَتْ قَوَارِيرَا۠ ﴿١٥﴾ قَوَارِيرَا۟ مِن فِضَّةٍ قَدَّرُوهَا تَقْدِيرًا ﴿١٦﴾ وَيُسْقَوْنَ فِيهَا كَأْسًا كَانَ مِزَاجُهَا زَنجَبِيلًا ﴿١٧﴾ عَيْنًا فِيهَا تُسَمَّىٰ سَلْسَبِيلًا ﴿١٨﴾﴾ [الإنسان: ٧٦/ ١٣-١٨].

وغني عن البيان أن هذه الجزئيات من مظاهر النعيم والمتعة إنما يتعامل معها الجسم، ولا معنى لشيء منها لو صح أن الروح هي التي تتنعم.

وبالطريقة ذاتها يحدثك البيان الإلهي عن الجزئيات التي هي بعض أدوات التعذيب في ذلك العالم الآخر الذي سماه الله «جهنم» فيقول :

﴿إِنَّ شَجَرَتَ ٱلزَّقُّومِ ﴿٤٣﴾ طَعَامُ ٱلْأَثِيمِ ﴿٤٤﴾ كَٱلْمُهْلِ يَغْلِى فِى ٱلْبُطُونِ ﴿٤٥﴾ كَغَلْيِ ٱلْحَمِيمِ ﴿٤٦﴾ خُذُوهُ فَٱعْتِلُوهُ إِلَىٰ سَوَآءِ ٱلْجَحِيمِ ﴿٤٧﴾ ثُمَّ صُبُّواْ فَوْقَ رَأْسِهِۦ مِنْ عَذَابِ ٱلْحَمِيمِ ﴿٤٨﴾ ذُقْ إِنَّكَ أَنتَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْكَرِيمُ ﴿٤٩﴾ إِنَّ هَٰذَا مَا كُنتُم بِهِۦ تَمْتَرُونَ ﴿٥٠﴾﴾ [الدخان: ٤٤/ ٤٣-٥٠] ويقول: ﴿وَٱسْتَفْتَحُواْ وَخَابَ كُلُّ جَبَّارٍ عَنِيدٍ ﴿١٥﴾ مِّن وَرَآئِهِۦ جَهَنَّمُ وَيُسْقَىٰ مِن مَّآءٍ صَدِيدٍ ﴿١٦﴾ يَتَجَرَّعُهُۥ وَلَا يَكَادُ يُسِيغُهُۥ وَيَأْتِيهِ ٱلْمَوْتُ مِن كُلِّ مَكَانٍ وَمَا هُوَ بِمَيِّتٍ وَمِن وَرَآئِهِۦ عَذَابٌ غَلِيظٌ ﴿١٧﴾﴾ [إبراهيم: ١٤/ ١٥-١٧].

هل ترى أن هذه الجزئيات التي يتحدث عنها البيان الإلهي في وصف عذاب الجاحدين يوم القيامة، هي مما يتم التعامل فيه مباشرة مع الروح دون الجسد؟.. إن سرد هذه الجزئيات إن في وصف النعيم أو الجحيم تبكيت وإسكات لمن يتفلسف زاعماً أن القرآن إنما يعني بالنشأة الثانية عالم الأرواح منطلقة ومتحررة من ثقل الأجساد.

وهكذا، فإن هذا الذي يراه الناقد نقطة نقد لكتاب الله وسخرية منه، من أبرز البراهين القاطعة على أن القرآن كلام الله عز وجل. إنه يجادل المشركين الذين كانوا أيام نزوله، ويجادل المبطلين والملحدين الذين جاؤوا من بعد، وكم في القرآن من محاكمات فكرية وعلمية موجهة إلى الذين جاؤوا فيما بعد، يتشدقون بألفاظ الفلسفة والعلم، ليضلوا الناس بأوهامهم عن الحق، تقرؤها في حديث القرآن عن بطلان الدور وبطلان رجحان الشيء من دون مرجح، وعن قانون كلٍ من التمانع

والتوارد، وأنت تعلم أن عرب الجاهلية وصدر الإسلام لم يكونوا يتعاملون مع هذه المصطلحات ولم يكن لهم شأن بعلومها، ولكنها محاكمات علمية يلاحق الله بها المبطلين، من خلال قرآنه، في كل زمان ومكان.

مشكلة الخلود يوم القيامة

يقول قائلهم :

القرآن يقول : ﴿كُلُّ مَنْ عَلَيْهَا فَانٍ ﴿٢٦﴾ وَيَبْقَىٰ وَجْهُ رَبِّكَ ذُو الْجَلَالِ وَالْإِكْرَامِ ﴿٢٧﴾﴾ [الرحمن: ٥٥/ ٢٦-٢٧]. ولكنه في الوقت ذاته يؤكد أن الناس يوم القيامة يخلّدون إن في الجنة أو في النار، فيقول عن أهل الجنة ﴿خَالِدِينَ فِيهَا لَا يَبْغُونَ عَنْهَا حِوَلًا ﴿١٠٨﴾﴾ [الكهف: ١٠٨/١٨] ويقول عن أهل النار : ﴿وَالَّذِينَ كَفَرُوا وَكَذَّبُوا بِآيَاتِنَا أُولَٰئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ ۖ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ ﴿٣٩﴾﴾ [البقرة: ٢/ ٣٩].

وهذا التأكيد في القرآن يتنافى أولاً مع ما يقوله القرآن: ﴿كُلُّ مَنْ عَلَيْهَا فَانٍ ﴿٢٦﴾﴾ ويتنافى ثانياً مع ما تقولونه من أن صفة الديمومة والبقاء مطلقاً إنما هي لله وحده. إن الناس كلهم شركاء مع الله في هذه الصفة، وذلك حسب ما يقرره القرآن ذاته.

وأقول:

أولاً : إن الفناء في قوله تعالى كل من عليها فان لا يعني العدم كما يتوهم كثيرون، وإنما معناه في اللغة التلاشي والتمزق

وانقطاع سبيل الاستفادة منه، وعندما يقرر العلماء أن المادة لا تفنى وإنما تتبدد وتتلاشى، فالتفسير القرآني يؤيده.

ثانياً : المراد بالفناء هنا الموت، إذ معنى الآية كل من على الأرض فان. و (من) تستعمل في اللغة العربية للعاقل، وألحق به غير العاقل من سائر الحيوانات تغليباً، فالمعنى : كل من على الأرض من الأحياء آيلون إلى الموت.

ثالثاً : إن الذي قال في قرآنه ﴿كُلُّ مَنْ عَلَيْهَا فَانٍ ﴿٢٦﴾﴾ - وقد علمت معناه - قال أيضاً : ﴿ثُمَّ إِنَّكُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ تُبْعَثُونَ ﴿١٦﴾﴾ [المؤمنون: ٢٣/١٦] أجل، فقد قال ربنا عز وجل : ﴿ثُمَّ إِنَّكُم بَعْدَ ذَٰلِكَ لَمَيِّتُونَ ﴿١٥﴾ ثُمَّ إِنَّكُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ تُبْعَثُونَ ﴿١٦﴾﴾ [المؤمنون: ٢٣/١٥-١٦].

أفإن قال الله تعالى ﴿كُلُّ مَنْ عَلَيْهَا فَانٍ ﴿٢٦﴾﴾ أو قال ﴿كُلُّ شَيْءٍ هَالِكٌ إِلَّا وَجْهَهُ﴾ [القصص: ٢٨/٨٨] فقد سلبت منه عز وجل القدرة على إعادة خلق ما أفنى وأهلك ؟!

لماذا تلتقط من القرآن ما يطيب لمزاجك الموقوف عنده، ثم تتعامى عن السياق والسباق، لتلبس العبارة التي التقطتها الكسوة التي تريد؟!..

إذن فليس ثمة أي تعارض بين قوله تعالى ﴿كُلُّ مَنْ عَلَيْهَا فَانٍ ﴿٢٦﴾﴾ وأنباء النشأة الثانية في كتاب الله تعالى. فالذي قضى بأن يؤول كل حيّ فوق هذه الأرض إلى الموت، هو الذي قضى بأن ينشئهم نشأة ثانية ويعيدهم مرة أخرى إلى الحياة .

رابعاً : وأما ما تقول من استلزام خلود الناس يوم القيامة وثبوت صفة الديمومة المطلقة لهم، لاشتراك المخلوق مع الخالق في صفة من الصفات الخاصة بالخالق، وهي صفة البقاء، فذلك صحيح لو أن خلود الناس يوم القيامة يكون بقوة ذاتية تنبع من أنفسهم، لا بتخليد الله لهم.

فهل بلغك من قرآن أو سنة أو غيرهما، أن الإنسان إذا بعث يوم القيامة إلى الحياة مرة أخرى، يصبح شريكاً مع الله بقوة ذاتية في صفة الديمومة والبقاء، بحيث لا يتأتى لله أن يسلبه هذه الصفة التي أصبح شريكاً معه فيها؟!.. إن كان كذلك فالإشكال واقع والنقد وجيه.

إن مما هو ثابت ومعروف أن الإنسان لا يملك من أمره شيئاً، وجوده لحظة فلحظة بإيجاد الله له، وبقاؤه بإبقائه. ذلك لأن القيومية على كل شيء إنما هي لله، اليوم في دار الدنيا، وغداً في الآخرة. فإذا أوجد الله الإنسان فوجد، لا يكون الإنسان شريكاً لله في صفة الوجود، إذ شتان بين وجود الخالق ووجود المخلوق. وإذا متّع الله الإنسان بشيء من القدرة في كيانه، فذلك لا يعني أن الإنسان غدا شريكاً لله في صفة القدرة، وإذا شاء الله أن يمتع الإنسان يوم القيامة بصفة البقاء والديمومة، فذلك لا يعني أن الإنسان أصبح بذلك شريكاً مع الله في هذه الصفة.

ولقد تم تفصيل القول في هذا، في أثناء التعليق على «دعوى وجود التناقض في القرآن» وأذكرك بما قلته لك آنذاك من أن في

القرآن آية تضمنت الإجابة الكافية والشافية على هذا الاستشكال وهي قوله تعالى ﴿فَأَمَّا ٱلَّذِينَ شَقُوا۟ فَفِى ٱلنَّارِ لَهُمْ فِيهَا زَفِيرٌ وَشَهِيقٌ ﴿١٠٦﴾ خَٰلِدِينَ فِيهَا مَا دَامَتِ ٱلسَّمَٰوَٰتُ وَٱلْأَرْضُ إِلَّا مَا شَآءَ رَبُّكَ ۚ إِنَّ رَبَّكَ فَعَّالٌ لِّمَا يُرِيدُ ﴿١٠٧﴾﴾ [هود: ١١/١٠٦-١٠٧] إلى آخر الآية **١٠٨** من سورة هود.

فارجع إلى ما قلته آنذاك مفصلاً.

هل القرآن من تأليف عمر بن الخطاب؟

يقول قائلهم :

تتحدث الروايات عن كثرة موافقة القرآن لآراء عمر.. يقترح عمر على محمد صلى الله عليه وسلم أمراً، وما هي إلا فترة حتى يتلو محمد على أسماع الناس قرآناً بالذي ارتآه عمر. أليس هذا دليلاً على أن القرآن إنما تم تأليفه بتعاون بين هذين الاثنين: محمد وعمر؟

وأقول: لقد صح مما ذكره علماء السنة والسيرة، ومنهم مسلم في صحيحه من حديث عائشة رضي الله عنها عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه كان يقول : «قد كان في الأمم قبلكم محدَّثون، فإن يكن في أمتي منهم أحد، فإن عمر بن الخطاب منهم» ومحدّثون تعني : مُلهَمون.

وقد روى مسلم أيضاً من حديث ابن عبد الله بن عمر عن أبيه قال : وافقت ربي عز وجل في ثلاث : مقام إبراهيم، وفي الحجاب، وفي أسارى بدر.

يريد عمر بقوله وافقت ربي أنه ارتأى على رسول الله في هذه الأمور الثلاثة رأياً، تبين أنه حكم الله في سابق علمه وتقديره، فكان اقتراح عمر موافقاً لحكم الله السابق في غيبه، وإن تأخر

نزوله إلى ما بعد اقتراحه.. فكان هذا أليق في باب الأدب من أن يقول: وافقني ربي، في هذه الأمور الثلاثة.

فما وجه الإشكال في هذا الأمر ؟ بل أين هو مصدر التهمة في هذين الحديثين بأن عمر ومحمداً كانا متآمرين في تأليف القرآن؟

إذا كانت موافقة كلام الله لرأي ارتآه عمر، دليلاً على أن لعمر يداً في تأليف القرآن، فما أكثر الذين لهم أيد في تأليفه من عامة الصحابة، بل من أهل الجاهلية أيضاً.

لقد جاءت خولة امرأة أوس بن الصامت تشكو إلى رسول الله أن زوجها قال لها : أنت مني كظهر أمي. فقال لها رسول الله مجتهداً : ما أُراك إلا قد حرمت عليه، أي طُلِقت منه، فأخذت تناقشه قائلة : لعله لم يرد بذلك طلاقاً، فيعود يقول لها : ما أراك إلا قد حرمت عليه. فانصرفت تقول : أشكو إلى الله أمري. فما هو إلا أن نزلت آيات تخالف اجتهاد رسول الله وتؤيد ما كانت تتشوق إليه خولة من أن هذا الذي قاله زوجها ليس طلاقاً، وهي تبدأ بقوله تعالى : ﴿قَدْ سَمِعَ ٱللَّهُ قَوْلَ ٱلَّتِي تُجَـٰدِلُكَ فِي زَوْجِهَا وَتَشْتَكِيٓ إِلَى ٱللَّهِ وَٱللَّهُ يَسْمَعُ تَحَاوُرَكُمَآ إِنَّ ٱللَّهَ سَمِيعٌۢ بَصِيرٌ ۝١﴾ [المجادلة: ١/٥٨].

إذن فأنت تقول : إن لخولة يداً في تأليف القرآن.

ولقد أقبل جمع من الصحابة إلى رسول الله يقولون – بعد شدّة قامت بين بعض الصحابة بسبب الخمرة، وكان ذلك قبل تحريمها

- : يا رسول الله سل لنا ربك يبين لنا في الخمر بياناً شافياً، فنزلت آية تحريم الخمر.

إذن فينبغي أن تقول: إن لهذا الجمع الذين قالوا هذا لرسول الله يداً في تأليف القرآن.

ومما هو معروف لكل من درس تاريخ التشريع الإسلامي أن مجتمع الجزيرة العربية كانت فيه، عند بعثة رسول الله صلى الله عليه وسلم بقايا من الحنيفية السمحة التي بعث بها سيدنا إبراهيم عليه الصلاة والسلام، فجاء القرآن مؤيداً لها مقراً مجتمع الجزيرة العربية في الجاهلية على العمل بها.

يقول الشاه ولي الله الدهلوي في كتابه (حجة الله البالغة) : «واعلم أنه صلى الله عليه وسلم بعث بالحنيفية الإسماعيلية، لإقامة عوجها وإزالة تحريفها وإشاعة نورها، وذلك قوله تعالى ﴿مِّلَّةَ أَبِيكُمْ إِبْرَٰهِيمَۚ﴾ [الحج: ٧٨/٢٢] ولما كان الأمر على ذلك وجب أن تكون أصول تلك الملّة مسلمة وسننها مقررة. إذ النبي إذا بعث إلى قوم فيهم بقية سنة راشدة، فلا معنى لتغييرها وتبديلها، بل الواجب تقريرها، لأنه أطوع لنفوسهم وأثبت عند الاحتجاج عليهم. وكان بنو إسماعيل توارثوا منهاج أبيهم إسماعيل، فكانوا على تلك الشريعة إلى أن وجد عمرو بن لحي، فأدخل فيها أشياء برأيه الكاسد، فضل وأضل، وشرع عبادة الأوثان.. فهناك بطل الدين واختلط الصحيح بالفاسد وغلب عليهم الجهل والشرك والكفر، فبعث الله محمداً صلى الله عليه وسلم، مقيماً لعوجهم ومصلحاً لفسادهم، فنظر صلى الله عليه

وسلم في شريعتهم، فما كان منها موافقاً لمنهاج إسماعيل عليه السلام أو من شعائر الله، أبقاه، وما كان منها تحريفاً أو فساداً أو من شعائر الشرك أو الكفر، أبطله وسجل على إبطاله»[(١)].

فها أنت ترى أن القرآن جاء مؤيداً الشرائع والآداب المتبقية في المجتمع العربي الجاهلي، مما هو متفق مع الحنيفية التي بعث بها إبراهيم وتوارثه عنه إسماعيل وذريته. إذن فلابدّ أنك ستقول إن القرآن من تأليف رجالات المجتمع الجاهلي في مكة. فإن المسائل التي وافق القرآن عرب الجاهلية عليها أكثر من المسائل الثلاث التي وافق القرآن رأي عمر عليها.

وسيختلط علينا الأمر عندئذ. فإنا لا ندري أكان تأليفه شركة بين محمد صلى الله عليه وسلم وعمر بن الخطاب، أم شارك في التأليف جمع من الصحابة رجالاً ونساء وافقهم القرآن في بعض ما ذهبوا إليه، أم هو من تأليف جمهرة من رجال المجتمع الجاهلي، ثم جاء محمد صلى الله عليه وسلم، فوضع عليه بصماته الأخيرة!!..

وأياً كان الأمر، فما من عاقل يتأمل هذا القرآن ويتدبره، ثم يقف على هذه الاحتمالات التي يستوجبها أو يستوجب واحداً منها نظر هذا الناقد، إلا وينتابه من التخبط والاشمئزاز ما قد يدفعه إلى التهوع. ورب سخافة بالغة في الفكر، دفعت إلى تخبط وتهوع في النفس.

(١)حجة الله البالغة : ١/ ١٢٢

ترى كيف سرت هذه الخدعة الصلعاء على أولئك الذين آمنوا برسول الله واتبعوه وأخلصوا في اتباع هديه، فلم يكتشفوا هذا الذي اكتشفه صاحب النظارة السوداء، ذاك الذي يبعث بقمامة أفكاره إلى الآذان، قابعاً داخل جدران أربعة من سجن مخاوفه وجبنه ؟

بل كيف لم يكتشف المشركون الذين لم يكونوا أقل ضغينة وحقداً من صاحب هذه النظارة السوداء، هذه الخدعة التي تلاقى عليها تدبير محمد صلى الله عليه وسلم وعمر بن الخطاب، ليفضحوها خلال التاريخ وعلى رؤوس الأشهاد.

أما نحن الذين نضع الأمور كلها في ميزان الرؤية العقلية محررةً من أسبقيات الضغائن والعصبيات، فنجزم بأن هذا الذي يستثير منه الناقد مشكلة وشبهة تَصِمُ أمانة رسول الله وصدقه، دليل من أنصع الأدلة وأقواها على أن القرآن إنما هو كلام من يعرّفه ويقول عنه ﴿نَزَلَ بِهِ ٱلرُّوحُ ٱلْأَمِينُ ﴿١٩٣﴾ عَلَىٰ قَلْبِكَ لِتَكُونَ مِنَ ٱلْمُنذِرِينَ ﴿١٩٤﴾ بِلِسَانٍ عَرَبِيٍّ مُّبِينٍ ﴿١٩٥﴾﴾ [الشعراء: ٢٦/١٩٣-١٩٥] كلام من أنزله قائلاً ﴿وَمَا هُوَ بِقَوْلِ شَاعِرٍ قَلِيلًا مَّا تُؤْمِنُونَ ﴿٤١﴾ وَلَا بِقَوْلِ كَاهِنٍ قَلِيلًا مَّا تَذَكَّرُونَ ﴿٤٢﴾ تَنزِيلٌ مِّن رَّبِّ ٱلْعَالَمِينَ ﴿٤٣﴾ وَلَوْ تَقَوَّلَ عَلَيْنَا بَعْضَ ٱلْأَقَاوِيلِ ﴿٤٤﴾ لَأَخَذْنَا مِنْهُ بِٱلْيَمِينِ ﴿٤٥﴾ ثُمَّ لَقَطَعْنَا مِنْهُ ٱلْوَتِينَ ﴿٤٦﴾ فَمَا مِنكُم مِّنْ أَحَدٍ عَنْهُ حَاجِزِينَ ﴿٤٧﴾﴾ [الحاقة: ٦٩/٤١-٤٧].

ولئن وافق القرآن مواقف لعمر، فما أكثر ما خالفه. هذا حاطب بن أبي بلتعة أرسل سراً إلى مشركي قريش في مكة يحذرهم من غارة قريبة عليهم من المسلمين، ويخبرهم أن رسول

الله قادم لقتالهم في جمع كبير من أصحابه. وأطلع الله رسوله على هذا الذي فعله حاطب، وجيء به إليه وسأله رسول الله عما حمله على ذلك فاعترف واعتذر.. وجاء عمر بن الخطاب يقترح على رسول الله قتله، لأنه بهذه الخيانة، أبرز كفره وخرج عن الملة. ولكن رسول الله لم يأخذ برأيه، ونزل القرآن مخالفاً ما ارتآه عمر بكفره، مثبتاً صفة الإيمان له : ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَتَّخِذُواْ عَدُوِّى وَعَدُوَّكُمْ أَوْلِيَآءَ تُلْقُونَ إِلَيْهِم بِٱلْمَوَدَّةِ﴾ [الممتحنة: ١/٦٠] مؤيداً عدم قتل رسول الله له.

ولما أوحى الله إلى رسوله (وقد كان متجهاً مع جمع كبير من الصحابة إلى مكة لأداء العمرة، وصدّه المشركون عن قصده) أن يتحللوا من العمرة ويذبحوا بدنهم ويعودوا إلى المدينة، بموجب صلح تم بينهم وبين المشركين، اشتد ذلك على عمر، وجاء يقول لرسول الله : ألسنا على حق وعدونا على باطل ؟ قال: بلى. قال : أليس قتلانا في الجنة وقتلاهم في النار ؟ قال: بلى. قال : فلماذا نعطي الدنية في ديننا إذن ؟ قال له : إني رسول الله، لست أعصيه وهو ناصري. ثم نزلت سورة الفتح كاملة على رسول الله تثبيتاً لقلب رسول الله وقلوب أصحابه وتأكيداً بأن الصلح الذي تم هو الخير للمسلمين وهو مفتاح النصر لهم.

أحداث صلح الحديبية كانت فوق مستوى التدبير البشري، كانت القيادة المباشرة فيه للوحي الإلهي، وكان موقف الجميع بما فيهم رسول الله هو الاستسلام لوحي الله وكلمته، ولو عاد الأمر فيه إلى تدبير الرسول وأصحابه وما تقترحه أفكارهم، إذن

لرأوا أن ذلك الصلح بكل بنوده ليس إلا ميسم ذلٍّ للمسلمين، ومنطلق قوة وطغيان للمشركين. ولكن لما وجه الله رسوله إلى تنفيذ ما فيه مشيئته وحكمه، انقطع الحديث والنقاش، وصمتت الأفكار والآراء وعاد الجميع جنوداً ينفذون الخطة الإلهية التي صدر إليهم الأمر بتنفيذها، بمنتهى الطواعية والتسليم.

ثم تبين أن الخير كل الخير كان في هذا الذي أمرهم الله به، لا في التدابير التي خرجوا من المدينة متجهين إلى مكة على أساسها.

وراح يستغفر الله عمرُ من الأفكار التي اعتلجت في نفسه، ومن التساؤلات التي هيمنت آنذاك على فكره. يقول عمر: ما زلت أستغفر الله وأصلي وأصوم وأتصدق وأعتق من الذي صنعت يوم صلح الحديبية. وكان يكثر أن يقول: أيها الناس اتهموا أنفسكم، فلقد رأيتني يوم الحديبية لو استطعت أن أردّ أمر رسول الله لرددته. ثم طابت نفسي لما علمت أنه الفتح، وأنزل الله على رسوله سورة الفتح.

قل لي.. أبحاجة أنت بعد هذا كله إلى برهان يقطع عن نفسك جذور الريب ويؤكد لك أن القرآن كلام الله المنزل على رسوله، ليس لإنس ولا لجن ولا لمَلك أي شركة أو دخل فيه؟

جلّ ربنا القائل: ﴿فَبِأَيِّ حَدِيثٍ بَعْدَ ٱللَّهِ وَءَايَٰتِهِۦ يُؤْمِنُونَ﴾ [الجاثية: ٤٥/٦].

هل يخدع الله عباده أو يمكر بهم ؟..

يقول قائلهم :

إن قرآنكم يصف الله بالماكر والمخادع، فهو يقول: ﴿وَمَكَرُواْ مَكۡرٗا وَمَكَرۡنَا مَكۡرٗا وَهُمۡ لَا يَشۡعُرُونَ ۝٥٠﴾ [النمل: ٢٧/ ٥٠].

ويقول: ﴿وَمَكَرُواْ وَمَكَرَ ٱللَّهُۖ وَٱللَّهُ خَيۡرُ ٱلۡمَٰكِرِينَ ۝٥٤﴾ [آل عمران: ٣/ ٥٤].

ويقول: ﴿إِنَّ ٱلۡمُنَٰفِقِينَ يُخَٰدِعُونَ ٱللَّهَ وَهُوَ خَٰدِعُهُمۡ﴾ [النساء: ٤/ ١٤٢].

فهل يقول الله عن نفسه: إنه ماكر وإنه خادع؟.. هل يعقل أن يكون هذا كلام الله ؟.

وأقول: أحد شيئين؛ إما أن هذا الناقد المتهكم يعاني من عجمة في لسانه، وفهاهة في ذوقه، فهو إذ يجهل البلاغة العربية يجعل من فهاهته وعجمته سبَّة عار عليها !..

وإما أنه يدرك ما يدركه تلامذة المرحلة الثانوية من قواعد اللغة العربية وآدابها، ولكنه يجعل من تجاهله لها ملاذاً له إلى حيث يتاح له - في وهمه - أن يتطاول على كلام الله الذي هو أول مصدر للعربية : آدابها وقواعدها .

وأياً كانت الحقيقة الكامنة وراء هذا المتهكم الناقد، فإن من

الخير أن نذكّر القارئ - ولعل الناقد ليس من مصلحته أن يتذكر أو يعلم - بالنكتة البلاغية التي تسمى في آداب العربية بالمشاكلة.. وهي أن تشاكل كلام المخاطب بمثله في جوابك أو حديثك له، تهديداً أو تبكيتاً له، أو سخرية من جمود ذهنه وسوء فهمه. مثال ذلك قول الشاعر العربي يصف غباء قوم دخل خباءهم في ليلة باردة شاتية، وقد تبللت ثيابه وأخذ منه البرد مأخذه :

قالوا اقترح شيئاً نُجِدْ لك طبخه

قلت اطبخوا لي جبة وقميصا

فمن المعلوم أن الثياب لا تطبخ، ولكنها المشاكلة لحديث المتكلم، اقتضاها وصف الحالة وغباء الذين رأوا وضعه الذي هو فيه فلم يروا ما ينجدونه به إلا الطبخ والطعام.

ومن هذا القبيل قول الله ﴿فَمَنِ ٱعْتَدَىٰ عَلَيْكُمْ فَٱعْتَدُواْ عَلَيْهِ بِمِثْلِ مَا ٱعْتَدَىٰ عَلَيْكُمْ﴾ [البقرة: ٢/ ١٩٤] ومثله قوله تعالى ﴿وَجَزَٰٓؤُاْ سَيِّئَةٍ سَيِّئَةٌ مِّثْلُهَا﴾ [الشورى: ٤٢/ ٤٠].

فمن المعلوم أن جزاء الاعتداء لا يسمى اعتداء في اللغة، ولكنك تطلق على جزائه اسمه على سبيل المشاكلة، تبريراً لسعي صاحب الحق إلى أخذ حقه.. ومن المعلوم أيضاً أن عقاب السيئة لا يسمى سيئة في اللغة، ولكنك تستعير هذا الاسم للعقاب الذي تواجه به السيئة على سبيل المشاكلة، تبريراً لصاحب الحق أن يمارس حقه، بقطع النظر عن حرج الأسماء والتسميات.

إذا تبين هذا المعنى البلاغي الساري في ألسنة العرب في صدر الإسلام، فطرة وطبيعة، والمحفوظ في أذهان من بعدهم قواعد ونكتاً بلاغية مقررة، فلتعلم أن هذا الذي يتوكأ عليه الناقد ليحيل نقده إلى استخفاف وتهكم بالقرآن، من أبرز السمات البلاغية التي يتألق بها كتاب الله عز وجل. وقد ظلت إلى يومنا هذا مصدر دراسة ومَعْلَم بلاغة وإشراقة بيان.

لقد مكر اليهود بنبي الله عيسى بن مريم عليه الصلاة والسلام، وخططوا لقتله وصلبه، فرد الله مكرهم عليهم، وألقى شبه عيسى على زعيم العصابة الماكرة المخططة لقتله عليه السلام. فألقي القبض عليه وسيق إلى حيث قتل ثم صلب، وأنقذ الله منهم نبيه عيسى عليه السلام حياً آمناً.

فما التعبير البلاغي ذو البيان المصور لكيفية ارتداد المكر إلى صدور أصحابه ؟

لن تجد أوفى وأبلغ وأبين من النظم القرآني القائل «ومكروا.. ومكر الله... والله خير الماكرين» أما مكرهم فجارٍ على حقيقته السيئة، وأما مكر الله الذي تمثل في إرجاعه جل جلاله ذلك المكر إلى صدور أصحابه، فهو الجزاء الرباني العدل والأوفى. ولكنه سمي مكراً على سبيل المشاكلة تبكيتاً وتسخيفاً لأصحاب الكيد والمكر.

ولقد مكر صناديد الشرك في مكة برسول الله صلى الله عليه وسلم، فاجتمعوا في دار الندوة، ليتفقوا على الطريقة المثلى

للتخلص منه صلى الله عليه وسلم، فتبادلوا الرأي، ثم اتفقوا على أن يأخذوا من كل قبيلة غلاماً شاباً جلداً، ويعطى كل واحد منهم سيفاً صارماً، فيختبؤون له في الليل عند باب داره، حتى إذا خرج من الصباح ضربوه جميعاً بسيوفهم ضربة رجل واحد، فإذا قتل تفرق دمه في القبائل كلها فلم يستطع بنو هاشم أن يثأروا له.

فأتى جبريل النبي صلى الله عليه وسلم، فأمره أن لا يبيت في مضجعه الذي يبيت فيه، الليلة التي اتفق المشركون على تنفيذ ما اتفقوا عليه فيها، فدعا رسول الله علي بن أبي طالب، فأمره أن يبيت على فراشه تلك الليلة، وأن يتسجى ببرده الذي يتسجى عادة به، ففعل. وخرج رسول الله من الليل، وقد ضرب الله على آذان الشباب الذين كانوا يتربصون به، الرقاد، وكان معه صلى الله عليه وسلم حفنة من تراب فجعل ينثرها على رؤوسهم، وهو يقرأ فاتحة سورة يس إلى قوله : ﴿فَأَغْشَيْنَاهُمْ فَهُمْ لَا يُبْصِرُونَ﴾ [يس: ٩/٣٦]. وأذن الله لنبيه صلى الله عليه وسلم تلك الليلة بالهجرة إلى المدينة.

فذلك هو مكرهم، وهذا ما قابل الله به مكرهم، فما التعبير البليغ المصور لعاقبة مكرهم هذا ؟ إنه التعبير القرآني الذي يصور مكرهم كأنه كرة سددها المشركون إلى رسول الله، وإذا هي ترتدّ لتلتصق بصدورهم.. كانت وهي توجه إلى رسول الله مكراً دنيئاً في الاسم والمعنى، وعادت وهي ترتدّ إلى صدور أصحابها تحمل الاسم ذاته وتستبطن العزة الربانية القاضية بعصمة رسول الله من

كيد الحاقدين.. وإليك التعبير القرآني المص
لك:

﴿وَإِذْ يَمْكُرُ بِكَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لِيُثْبِتُوكَ
وَيَمْكُرُونَ وَيَمْكُرُ ٱللَّهُ وَٱللَّهُ خَيْرُ ٱلْمَٰكِرِينَ ۝٣٠﴾

والمنافقون في صدر الإسلام، وفي كل ز
أنفسهم دلائل الإيمان والإسلام وينخرطون
عباداتهم وقرباتهم، لينالوا معهم المغانم التي ي
الأذية التي قد يتعرض لها المشركون بسبب مواقفهم
المسلمين. ومن المعلوم أن الشريعة الإسلامية ت
الإسلامي وإمام المسلمين بالحكم على الأشخاص حس
من ظواهرهم أقوالاً وسلوكاً. فلا يجوز لأحد أن
ظواهرهم ليستجلي بواطنهم ويحكم عليهم بموجبها.
المنافقون يرون في هذا النظام الذي يُلْزَم المسلمون به، سا
واسعة للمناورة الدائمة التي تحقق لهم المغانم وتجنبهم المغارم.
وكانوا يرون أنهم بهذا يخدعون المسلمين ويخدعون الإسلام نفسه.

ولكن الله بين أن حظهم من هذه المناورة إنما هو محصور في هذه الحياة الدنيا، وأن الله مطلع على ما تخفيه سرائرهم، وأن مقرهم يوم القيامة إنما هو في الدرك الأسفل من النار.

فالساحة التي تمكنهم من التظاهر بالإسلام والحصول مع المسلمين على مغانمه، ساحة مكشوفة وظواهرهم الكاذبة فيها

معروفة، ولكنها شريعة الإمهال أقامها الله في الحياة الدنيا بين عباده، وليست آفة إهمال أو نسيان.

إذن فخداع المنافقين آيل وباله إليهم، ومردّه ليس إلا إليهم.

ولكن كيف ينبغي أن يأتي التعبير البليغ المصور لهذه الحقيقة ؟ إنه التعبير القرآني القائل ﴿إِنَّ ٱلْمُنَٰفِقِينَ يُخَٰدِعُونَ ٱللَّهَ وَهُوَ خَٰدِعُهُمْ وَإِذَا قَامُوٓاْ إِلَى ٱلصَّلَوٰةِ قَامُواْ كُسَالَىٰ يُرَآءُونَ ٱلنَّاسَ وَلَا يَذْكُرُونَ ٱللَّهَ إِلَّا قَلِيلًا ﴿١٤٢﴾﴾ [النساء: ٤/ ١٤٢].

★ ★ ★

ليس في العقلاء فضلاً عمن يتكلمون العربية ولهم انتماء حقيقي إلى آدابها وثقافتها، من يفهم من هذه الآيات التي هي محل استخفاف الناقد أن الله يَصِمُ نفسه فيها بالمكر والخداع.

ولكنها الحقيقة التي لا علاج لها.. إنها تلك التي تحدث عنها ابن الوردي في لاميته قائلاً :

أيها العائب ما يجهله
إن طيب الورد مؤذ بالجُعل

متى كتب القرآن؟ وكيف وصل إلينا؟

ويقول قائلهم :

> لئن كان الإنجيل والتوراة لحقهما تبديل وتحريف، فإن القرآن تعرض لأكثر من ذلك. فكتابة القرآن لم تتكامل - فيما يزعمه القائل - إلا في عهد عثمان، فهو الذي أشرف على كتابته وقسمه إلى سور، واختار لها هذا الترتيب الحالي، وضع السور الطويلة أولاً، ثم تدرج بها إلى الأقصر فالأقصر.. فأين هي الضمانة التي تنزه القرآن من التحريف والتبديل ؟..

وأقول: متى حرر الباحث نفسه من ضوابط المنهج للوصول إلى ما يريد أن ينتهي إليه، وجعل رغبته هي الحاكمة على بحثه، فإن بوسعه عندئذ أن يسكت التاريخ وأن ينطق أحداثه بما شاء. وقد شرع (وليم جيمس) من قبل، المنهج الموصل لذلك أمام هذا النوع من الباحثين، ليصلوا من بحوثهم إلى ما يريدون، لا إلى ما ينطق به التاريخ ويدلّ عليه قرار العلم ووثائقه. برَّر للباحث أن يريد ثم يعتقد.. أي أن يجعل اعتقاده عن الكون والحياة تابعاً لما يحب وليس العكس[١]، وقد انتشر هذا المذهب اليوم في أمريكا

---

(١) ضمَّن وليم جيمس منهجه العجيب هذا في كتاب سماه (إرادة الاعتقاد).

وأوربة، وأصبح جل الباحثين في الأمور الغيبية : التاريخ، الأحداث المستقبلية، الأديان، يخضعون بحوثهم فيها لمذهب (البراجماتزم) الذرائعية، أي لما تقتضيه مصالحهم التي يحرصون عليها، لا لما يقرره التاريخ أو تؤيده الشواهد والوثائق ومنطق الأحداث.

ولا ريب أن مصلحة هذا الناقد المتفرغ للهجوم على كتاب الله (القرآن) وللصق الأباطيل المختلقَة به، تقتضي أن يُسكِتَ التاريخ وأن يطوي وثائقه، ليختلق بدلاً عنهما ما يشاء، بل ما تشاء مصلحته.

ونحن عندما نناقش هذا المفتئت الهارب من قدسية الحوار والنقاش، لا شأن لنا بما يشتهيه من الأحلام والرغبات المستكنة في نفسه، عن الإسلام والقرآن.. وإنما نحاكمه إلى حقائق التاريخ ومنطق الأحداث.

ولنبدأ بالحديث عن ترتيب القرآن وتنسيقه فنقول : إن جميع الأحاديث الواردة في هذا الشأن تتفق على أن ترتيب آيات القرآن، حسبما عليه المصحف الآن، إنما هو ترتيب توقيفي، لم يجتهد فيه رسول الله ولا أحد من الصحابة في عهده أو من بعده. وإنما كان يتلقى ترتيبها بعضها إلى جانب بعض، وحياً من عند الله بواسطة جبريل. روى أحمد بإسناده عن عثمان بن أبي العاص، قال كنت جالساً عند رسول الله صلى الله عليه وسلم، إذ شخص ببصره ثم صوّبه، قال : «أتاني جبريل فأمرني أن أضع هذه الآية هذا الموضع من هذه السورة : ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يَأْمُرُ بِٱلْعَدْلِ

﴿وَٱلۡإِحۡسَٰنِ وَإِيتَآيِٕ ذِي ٱلۡقُرۡبَىٰ﴾ [النحل: ١٦/ ٩٠] وروى البخاري بسنده عن ابن الزبير قال: قلت لعثمان هذه الآية في البقرة ﴿وَٱلَّذِينَ يُتَوَفَّوۡنَ مِنكُمۡ وَيَذَرُونَ أَزۡوَٰجًا﴾ إلى قوله ﴿غَيۡرَ إِخۡرَاجٖ﴾، قد نسختها الآية الأخرى فلم تكتبها؟ قال: يا ابن أخي لا أغير شيئاً من مكانه.

وبناء على هذا فقد تم إجماع العلماء ومختلف المؤرخين والمحدِّثين والباحثين على أن ترتيب آي القرآن عمل توقيفي من الله عز وجل، ليس لأحد من الناس يدٌ فيه.

وما يقال عن ترتيب آي القرآن هو الذي يقوله إجماع المؤرخين والمحدِّثين والباحثين عن ترتيب السور ووضع البسملة في رؤوسها. قال القاضي أبو بكر بن الطيب رواية عن مكي رحمه الله في تفسيره سورة «براءة» إن ترتيب الآيات في السور، ووضع البسملة في الأوائل هو توقيف من الله عز وجل. ولما لم يؤمر بذلك في أول سورة براءة، تركت بلا بسملة.

وروى القرطبي عن ابن وهب قال: سمعت سليمان بن بلال يقول سمعت ربيعة يُسأل: لم قدمت البقرة وآل عمران، وقد نزل قبلهما بضع وثمانون سورة. وإنما نزلتا في المدينة؟ فقال ربيعة: قد قدمتا، وألّف القرآن على علم ممن ألّفه [1].

★ ★ ★

(١) تفسير القرطبي ١/ ٦١ وانظر صحيح البخاري ج٥ كتاب التفسير ص ١٦٥ طبعة الآستانة

هذا عن ترتيب آي القرآن وسوره أما عن كتابته، فمن المعلوم أولاً أن النبي صلى الله عليه وسلم كان أمياً لا يقرأ ولا يكتب، أجمع على ذلك عامة المؤرخين وكل المشركين الذين كانوا على عهد رسول الله. لذا فقد كان يعهد بكتابة ما يتنزل عليه من القرآن إلى أشخاص من الصحابة بأعيانهم، كانوا يُسمَّون كتاب الوحي، وأشهرهم الخلفاء الأربعة، وأبي بن كعب، وزيد بن ثابت، ومعاوية بن أبي سفيان، والمغيرة بن شعبة، والزبير بن العوام، وشرحبيل بن حسنة، وعبد الله بن رواحة.

وقد كانوا يكتبون ما يتنزل من القرآن تباعاً حسب الترتيب الذي يأتي به جبريل فيما تيسر لهم من العظام المرققة والمخصصة لذلك، وألواح الحجارة الرقيقة والجلود. وقد كانوا يضعون ما يكتبونه في بيت رسول الله، ثم يكتبون لأنفسهم إن شاؤوا صوراً عنها يحفظونها لديهم.

ولقد كان في الصحابة من يتتبع ما ينزل من آيات القرآن ويتتبع ترتيبها فيحفظها عن ظهر قلب، حتى كان فيهم من حفظ القرآن كله. فمن مشاهيرهم عبد الله بن مسعود، وسالم بن معقل، ومعاذ بن جبل، وأبي بن كعب وزيد بن ثابت وآخرون[١].

وظل الصحابة يعكفون على حفظ القرآن غيباً، حتى ارتفعت نسبة الحفاظ منهم إلى عدد لا يحصى.

---

(١) انظر البرهان للزركشي : ٢٣٨/١ والإتقان للسيوطي : ٥٨/١ وفتح الباري بشرح البخاري : ١٨/٩.

يتضح لك من هذا الذي ذكرناه أن القرآن وعاه الصدر الأول من الصحابة وبلغوه إلى من بعدهم بطريقتين اثنتين :

إحداهما : الكتابة التي كانت تتم للقرآن بأمر رسول الله لأشخاص بأعيانهم وكل إليهم هذا الأمر، ولم ينتقل رسول الله إلى جوار ربه، إلا والقرآن مكتوب كله في بيته.

الثانية : حفظه في الصدور عن طريق التلقي الشفهي من كبار قراء الصحابة وحفاظهم الذين تلقوه بدورهم عن رسول الله، الذي أقرهم على كيفية النطق والأداء.

على أن القرآن رغم ذلك لم يجمع بين دفتين في مصحف على عهد رسول الله، وذلك لضيق الوقت بين آخر آية نزلت من القرآن وبين وفاته صلى الله عليه وسلم.

فلما توفي رسول الله صلى الله عليه وسلم، وقتل جمع كبير من حفظة القرآن في معركة اليمامة، اتفقت كلمة المسلمين، وفي مقدمتهم أبو بكر وعمر على ضرورة جمع ما تفرق من الرقاع واللخاف وغيرها مما جمع عليه القرآن كتابة، في مصحف بين دفتين، وذلك بإعادة استنساخها على صحف مرتبة مجتمعة، تكون محفوظة في دار الخلافة ومرجعاً للمسلمين في كيفية القراءة والأداء. ووكل كل من أبي بكر وعمر هذا الأمر إلى زيد بن ثابت، واحد من أبرز كتاب الوحي ومن أشهر حفاظ القرآن.. ونفذ زيد بن ثابت الأمر، وجمعت الصحف والرقاع كلها لأول مرة في مصحف بين دفتين، وأودع المصحف عند أبي بكر مدة

خلافته، ثم أودع عند عمر، ثم استقر عند حفصة بنت عمر بعد وفاته [(١)].

إذن فقد كتب القرآن المرة الأولى في حياة رسول الله في صحف ورقاع مفرقة، ثم كتب ثانية في خلافة أبي بكر وجمع في مصحف بين دفتين، وكان الكاتب زيد بن ثابت، والمستند ما هو مكتوب في عهد رسول الله، مع شهادة حافظين من حفاظ القرآن للاستيثاق من صحة الكتابة والنطق.

أما دور سيدنا عثمان في هذا الأمر فهو التالي :

جاء حذيفة بن اليمان، وقد كان غائباً في فتح أرمينية وأذربيجان مع أهل العراق، يقول لعثمان: يا أمير المؤمنين أدرك هذه الأمة قبل أن يختلفوا في القرآن اختلاف اليهود والنصارى، وحدثه عن أثر العجمة السارية في تلك البلاد في اختلافهم في قراءة القرآن.

فأرسل عثمان إلى حفصة أن أرسلي إلينا المصحف الذي لديك، لنستنسخ عليه عدداً من النسخ، ثم نرد المصحف الإمام إليك.. فشكل عثمان لجنة رباعية من : زيد بن ثابت، وعبد الله بن الزبير، وسعيد بن العاص، وعبد الرحمن بن حارث بن هشام، وأمرهم بكتابة سبع نسخ على ضوء المصحف الذي كتب وجمع في عهد أبي بكر.. ولما أنجزوا هذا الذي طلب منهم وزع

---

(١) بوسعك أن تقف على تفصيل هذا المجمل في صحيح البخاري : ٦/ ٩٨ طبعة الآستانة.

النسخ السبعة في أمهات البلاد الإسلامية، وأمر سكان ع
البلاد بالاهتداء بهديها والكتابة على منوالها، وأن تُ
المصاحف الأخرى الشاردة في الكتابة عن نهجها. وأ
المصحف الأم إلى حفصة. وإنما المراد بالكلمة الشائعة ال
المصحف العثماني أو الرسم العثماني، المصحف الذي كتب ع
غرار الكتبة التي كتبت عليها المصاحف السبعة المنسوبة إلى سيدنا
عثمان.

* * *

فإذا تأملت في هذه الخلاصة التي سردتها عليك من تاريخ كتاب الله عز وجل منذ نزوله على محمد صلى الله عليه وسلم إلى انتشاره في العالم الإسلامي على هدي المصاحف السبعة التي أمر عثمان بتوزيعها على أمهات البلاد الإسلامية آنذاك، علمت سخافة الأكذوبة القائلة بأن القرآن لم يكتب إلا في عهد عثمان، والقائلة بأنه هو الذي قسمه إلى سور ورتب السور على النحو الذي هي عليه اليوم.

بوسعك أن تعلم أنك من هذا الكتاب أمام شمس واضحة مشرقة تسير أمام عينيك تحت قبة السماء الصافية، ليس حولها مزقة سحاب تغشي عليها، وليس بينك وبينها أي زوبعة أو ضباب تلبّس أمرها عليك.

سلسلة متصلة من التدوين الكتابي الدقيق، والتلقي الشفهي السليم يسيران جنباً إلى جنب في تطابق وإتقان، منذ بزوغ فجر هذا التنزيل إلى هذه الساعة من يومنا هذا، لا ترى فيها حلقة

مفقودة أو ثغرة ينفذ منها الشك أو اختلافاً يبعث على الريبة.

فأي خبر أو كتاب سار خلال القرون في مثل هذا النفق العجيب من الوقاية والحفظ ؟ بقي أن ألتفت إلى هذا الناقد الحاقد الساخر، أقول له : لك أن تعانق أحلامك التي تشتهيها وتتمناها تجاه القرآن، ولك أن تغمض العين وتتجاوز التاريخ وما سجلته الوقائع والأحداث، لتتخيل القرآن على النحو الذي تشتهيه ويطيب لك. ولكن فلتعلم أنه ليس لك أن تفرض علينا وعلى العالم أمنياتك ومشتهياتك.

ها أنت كذبت وافتريت على التاريخ فيما اختلقته ثم ألصقته بعثمان. ولكن افتراءك لم ينطل على التاريخ وحقائقه.. لذا فإن من الخير لك أن تعلن عما تشتهيه وتتمناه أمنيةً وشهوةً، لا أكذوبة تلصقها بالتاريخ. قل مثلاً أتمنى : أن لو كان القرآن كغيره معرضاً للدّس والتغيير، ليتنفس بذلك حقدك وليشفي غليلك. وقديماً وقف حييّ بن أخطب بين يدي رسول الله، يوم بني قريظة، معلناً عما في نفسه يقول : أما إني ما لمت نفسي يوماً في عداوتك، ولكن من يخذله الله يخذل.

ما ضرّ أن تكون أنت أيضاً جريئاً في حقدك صريحاً في عداوتك دون افتئات على التاريخ ولا على الحقائق التي لا تقبل أي خلط فيها ولا تلبيس عليها ؟!.

ولك في حيّيّ بن أخطب أسوة.

موقفهم من إعجاز القرآن

يقول قائلهم :

تقولون: القرآن معجز، لا يتأتّى لأحد أن يأتي بسورة من مثله أو بآية من مثله، وها أنا في مجلسي هذا أصوغ كلاماً مثله. فلئن كان القرآن معجزاً فإن كلامي هو الآخر معجز. في تاريخ الأدب العربي فصول رائعة من الكلام البليغ، تطرب القارئ والسامع. فرق ما بينه وبين القرآن أن الذين صاغوا تلك الفصول لم يدّعوا ما ادعاه القرآن ولم يصفوا كلامهم بالإعجاز.

هذا ما يقولون. وناقل الكفر ليس بكافر.

وأقول:

أما الله تعالى فيقول ﴿قُل لَّئِنِ ٱجْتَمَعَتِ ٱلْإِنسُ وَٱلْجِنُّ عَلَىٰٓ أَن يَأْتُوا۟ بِمِثْلِ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانِ لَا يَأْتُونَ بِمِثْلِهِۦ وَلَوْ كَانَ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ ظَهِيرًا ﴿٨٨﴾﴾ وأما صاحب هذه الدعوى فيقول : بل بوسعنا أن نأتي بمثله.. ولقد صدق الله وكذب صاحب هذه الدعوى وأمثاله.

في التاريخ الغابر أناس قالوا مثل هذا الذي يقوله صاحب الدعوى العريضة.. وبحثنا وفتشنا في طوايا التاريخ، فلم نجد من

وراء دعاويهم شيئاً فعلوه أو قالوه.. الدعاوي التي من هذا القبيل كثيرة، ونفتش عن شاهد واحد يصدق هذه الدعاوي، فلا نعثر على شيء.

وسبب ذلك، كما يشير أبو العلاء المعري في كتابه (رسالة الغفران)، أن أحدهم يستنجد بما يملك من البيان، ليأتي بشيء من مثل القرآن، فتخونه سليقته العربية، وتغيب عنه ملكته، فلا يأتي إلا بمرذول الكلام وسخيفه.. فيتكتَّم على عمله ويطويه عن فكره، حذراً من التشنيع عليه، وتضاحك الناس منه. أو يلصقه بأديب ذاع صيته، ليجعل من ذلك أحدوثة المجالس ومادة فكاهة لهم فيها، كالكلام السخيف الذي ألصق بابن المقفع وهو منه بريء.

فلئن كان هذا الناقد المستهين بكلام الله أو المباهي بكلامه البليغ المشرق، صادقاً في أنه صاغ كلاماً يعلو إلى درجة القرآن، فلينشره وليأت به على أعين الناس.. ليكون المتحدي الثاني للقرآن على مر التاريخ بعد مسيلمة الكذاب، ولسوف أكون أول مقرظ له.

لقد شاخ التاريخ ولم يتأتّ لأحد من مصاقع البلاغة العربية وأدبائها، (وكان فيه من أمثال هذا الحاقد المغتاظ كثير) أن يودع فوق منبره كلاماً يتحدى به بلاغة القرآن، وكل ما قد جاء به بعض يسير منهم، بتكتم وعلى نجوة من الناس، آل وجوده إلى مزبلة التاريخ وغثاء الكلام، وانبتت صلته عن قائليه، تستراً عن الناس وبعداً عن الفضيحة.

على أن باب التحدي لمن يريد أن ينكر سمة الإعجاز في القرآن لا يزال مفتوحاً، وهل في الناس من يملك أن يغلقه بعد أن فتحه الله على مصراعيه لكل من آنس من نفسه قدرة على كسر طوق هذا المتحدي.

مرة أخرى أقول لهذا الناقد المستخف بكلام الله : دونك فانشر هذا الذي فاضت به عليك عبقريتك أو أوحى به إليك شيطانك. ولكل حادث عندئذ حديث.

★ ★ ★

أما الآن، وريثما تفاجئ تاريخ العالم العربي والإسلامي، بهذا الحدث الذي استيأس العقل الإنساني منه، دعني أضعك أمام وجه واحد فقط من وجوه الإعجاز القرآني، يخترق بسلطانه حواجز اللغة، ويسري تأثيره إلى نفوس العقلاء جميعاً من عرب وأعجام، ولا يتقاصر عن إدراكه وفهمه والتأثر به إلا ذوو العصبية والأهواء والاستسلام لخلفيات الضغائن والبغضاء. إنه ذلك الجانب الذي أسميه «مظهر جلال الربوبية في القرآن ».

ولكي يزداد حديثنا عن هذا الجانب الفريد من جوانب إعجاز القرآن، جلاء في الأفكار، ودخولاً في المشاعر والنفوس، يجب التذكير بحقيقة علمية نفسية لا يتيه عنها أحد.

من المعلوم أن الكلام مرآة دقيقة لطبيعة المتكلم، فما تتجلى الأغوار النفسية لشخص ما على شيء، كما تتجلى على ما يكتبه أو يقوله. وكلما تبسط الإنسان في حديثه ازدادت خصائصه النفسية جلاء ووضوحاً.

لذا لم يكن من اليسير أن يقلد كاتب كاتباً آخر، أو متحدث متحدثاً آخر في أسلوبه إذا كتب أو تحدث. فلا يستطيع الرجل أن يتقمص نفسية المرأة فيما يكتب أو يقول، ولا يستطيع كاتب معاصر - مهما أوتي مهارة بلاغية - أن يقلد كاتباً عاش قبل هذا العصر. ولقد كان في الناس من حاول أن يقلد أسلوب الجاحظ أو غيره، فلم يتأت له ذلك. ومردّ ذلك إلى أن الأسلوب ليس طريقة معينة في صوغ العبارة فقط، بل هو قبل ذلك مرآة لنفسية صاحب الأسلوب، فلئن استطاع أحدهم أن يقلد الآخر في صوغ العبارة فهيهات أن يستطيع تقليده في إبراز نفسيته وصطناعها في حديثه.

فإذا اتضح لنا أن الفوارق النفسية تحول دون إمكان تقليد كل منا للآخر في أسلوب الكتابة والقول، على الرغم من وجود الإنسانية العامة جامعاً مشتركاً بين الجميع، فأحرى في باب البداهة والوضوح أن لا يستطيع إنسان من الناس أياً كان، أن يتجرد عن بشريته وطبيعته الإنسانية، ثم يجعل من نفسه إلهاً يتصف بكل ما يتصف به الإله من الصفات الربانية المضادة للطبيعة البشرية، ينطق بكلام صاف عن شوائب نفسيته البشرية، مليء بدلاً عن ذلك بجلال الربوبية، فياض بكل ما هو لله من خصائص وصفات.

إذا كان من المستحيل أن يتقمص إنسان من الناس نفسية إنسان مثله على الرغم من الجامع المشترك بينهما، فكيف يتأتى لهذا الإنسان أن يتجرد عن إنسانيته وصفاتها كما يتجرد أحدنا

عن ردائه ثم يتقمص بدلاً عن ذلك صفات الربوبية المنزهة عن الصفات البشرية وسمات المخلوقين، بحيث يأتي كلامه مرآة لصفات الألوهية وجلال الربوبية؟!..

لم يتأت هذا لأحد من الناس في التاريخ الغابر، ولن يتأتى ذلك لأحد منهم اليوم.

ذلك لأن الطبيعة البشرية لا يمكن أن تتخلى عن صاحبها لحظة واحدة في حياته. ومن ثم فهي لابدّ أن تعوقه عن القدرة على هذا الأمر. وإن هو حاول عن طريق الصنعة والتمثيل، فإنه لن يأتي إلا بكلام متنافر متهافت في مضمونه ودلالته، لا يوحي إلا بما أقامه في نفسه من ازدواج متكلف كاذب في الطبع والشعور .

فلو كان القرآن كلام بشر من الناس، لكان في الجامع المشترك من صفة البشرية بين مؤلف القرآن ومقلده، ما ييسر للمقلد أن يأتي بحديث مصطبغ مثله بصبغة البشرية، كما هو الشأن في الجامع المشترك بين تآليف الناس وكتاباتهم وأحاديثهم فيما بينهم.

ولكنك تنظر فلا تجد في القرآن هذا الجامع المشترك بين الناس كلهم من مظاهر الطبيعة الإنسانية والضعف البشري، باستثناء ما يرويه البيان الإلهي في القرآن من كلام الناس وأحاديثهم سواء كانوا مؤمنين أو طغاة مارقين. ولئن اختفى في تلك النقول مظهر جلال الربوبية، فإن الجوانب الأخرى من حقيقة الإعجاز تتألق فيها.

وإليك بعض الأمثلة القرآنية.. تأمل كيف يشعّ فيها جلال الربوبية وصفات الألوهية من خلق وإعدام وقدرة وجبروت وإحاطة.. إلخ.

- ﴿إِنَّنِيٓ أَنَا ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّآ أَنَا۠ فَٱعۡبُدۡنِي وَأَقِمِ ٱلصَّلَوٰةَ لِذِكۡرِيٓ ﴿١٤﴾ إِنَّ ٱلسَّاعَةَ ءَاتِيَةٌ أَكَادُ أُخۡفِيهَا لِتُجۡزَىٰ كُلُّ نَفۡسِۢ بِمَا تَسۡعَىٰ ﴿١٥﴾ فَلَا يَصُدَّنَّكَ عَنۡهَا مَن لَّا يُؤۡمِنُ بِهَا وَٱتَّبَعَ هَوَىٰهُ فَتَرۡدَىٰ ﴿١٦﴾﴾ [طـــه: ٢٠/ ١٤-١٦].

- ﴿إِنَّا نَحۡنُ نُحۡيِۦ وَنُمِيتُ وَإِلَيۡنَا ٱلۡمَصِيرُ ﴿٤٣﴾ يَوۡمَ تَشَقَّقُ ٱلۡأَرۡضُ عَنۡهُمۡ سِرَاعٗاۚ ذَٰلِكَ حَشۡرٌ عَلَيۡنَا يَسِيرٞ ﴿٤٤﴾ نَّحۡنُ أَعۡلَمُ بِمَا يَقُولُونَۖ وَمَآ أَنتَ عَلَيۡهِم بِجَبَّارٖۖ فَذَكِّرۡ بِٱلۡقُرۡءَانِ مَن يَخَافُ وَعِيدِ ﴿٤٥﴾﴾ [ق: ٥٠/ ٤٣-٤٥].

- ﴿ذَرۡنِي وَمَنۡ خَلَقۡتُ وَحِيدٗا ﴿١١﴾ وَجَعَلۡتُ لَهُۥ مَالٗا مَّمۡدُودٗا ﴿١٢﴾ وَبَنِينَ شُهُودٗا ﴿١٣﴾ وَمَهَّدتُّ لَهُۥ تَمۡهِيدٗا ﴿١٤﴾ ثُمَّ يَطۡمَعُ أَنۡ أَزِيدَ ﴿١٥﴾ كَلَّآۖ إِنَّهُۥ كَانَ لِأٓيَٰتِنَا عَنِيدٗا ﴿١٦﴾ سَأُرۡهِقُهُۥ صَعُودًا ﴿١٧﴾ إِنَّهُۥ فَكَّرَ وَقَدَّرَ ﴿١٨﴾ فَقُتِلَ كَيۡفَ قَدَّرَ ﴿١٩﴾ ثُمَّ قُتِلَ كَيۡفَ قَدَّرَ ﴿٢٠﴾ ثُمَّ نَظَرَ ﴿٢١﴾ ثُمَّ عَبَسَ وَبَسَرَ ﴿٢٢﴾ ثُمَّ أَدۡبَرَ وَٱسۡتَكۡبَرَ ﴿٢٣﴾ فَقَالَ إِنۡ هَٰذَآ إِلَّا سِحۡرٞ يُؤۡثَرُ ﴿٢٤﴾ إِنۡ هَٰذَآ إِلَّا قَوۡلُ ٱلۡبَشَرِ ﴿٢٥﴾ سَأُصۡلِيهِ سَقَرَ ﴿٢٦﴾ وَمَآ أَدۡرَىٰكَ مَا سَقَرُ ﴿٢٧﴾ لَا تُبۡقِي وَلَا تَذَرُ ﴿٢٨﴾ لَوَّاحَةٞ لِّلۡبَشَرِ ﴿٢٩﴾﴾ [المدثر: ٧٤/ ١١-٢٩].

- ﴿وَلَقَدۡ خَلَقۡنَا ٱلۡإِنسَٰنَ مِن سُلَٰلَةٖ مِّن طِينٖ ﴿١٢﴾ ثُمَّ جَعَلۡنَٰهُ نُطۡفَةٗ فِي قَرَارٖ مَّكِينٖ ﴿١٣﴾ ثُمَّ خَلَقۡنَا ٱلنُّطۡفَةَ عَلَقَةٗ فَخَلَقۡنَا ٱلۡعَلَقَةَ مُضۡغَةٗ فَخَلَقۡنَا ٱلۡمُضۡغَةَ عِظَٰمٗا فَكَسَوۡنَا ٱلۡعِظَٰمَ لَحۡمٗا ثُمَّ أَنشَأۡنَٰهُ خَلۡقًا ءَاخَرَۚ فَتَبَارَكَ ٱللَّهُ أَحۡسَنُ ٱلۡخَٰلِقِينَ ﴿١٤﴾﴾ [المؤمنون: ٢٣/ ١٢-١٤].

- ﴿ ۞ نَبِّئْ عِبَادِيٓ أَنِّيٓ أَنَا ٱلْغَفُورُ ٱلرَّحِيمُ ﴿٤٩﴾ وَأَنَّ عَذَابِي هُوَ ٱلْعَذَابُ ٱلْأَلِيمُ ﴿٥٠﴾ ﴾ [الحجر: ١٥/٤٩-٥٠].

تأمل في هذه النماذج التي سقتها لك، أو فيما تشاء من غيرها في كتاب الله عز وجل وقل لي : أترى فيها أثراً لطبيعة بشرية ؟ ألا ترى أنها مغموسة بجلال الربوبية وأن المعاني التي فيها ليست مما من شأن الإنسان المخلوق أن ينطق به، مهما أراد أن يتنطع أو يتكلف !!..

أبوسعك أن تفترض أن زيداً من الناس ينطق على سجيته فيقول : نبئ عبادي أني أنا الغفور الرحيم.. أو يتكلم على سجيته فيقول : ﴿وَإِذَا سَأَلَكَ عِبَادِي عَنِّي فَإِنِّي قَرِيبٌ ۖ أُجِيبُ دَعْوَةَ ٱلدَّاعِ إِذَا دَعَانِ ۖ فَلْيَسْتَجِيبُوا۟ لِي وَلْيُؤْمِنُوا۟ بِي لَعَلَّهُمْ يَرْشُدُونَ ﴿١٨٦﴾ ﴾ [البقرة: ٢/١٨٦]. أو ينطق بمثل هذا الذي يقوله الله عن الإنسان وتراجعه في القوة عند الكبر ﴿وَمَن نُّعَمِّرْهُ نُنَكِّسْهُ فِي ٱلْخَلْقِ ۖ أَفَلَا يَعْقِلُونَ ﴿٦٨﴾ ﴾ [يس: ٣٦/٦٨].

بل عد معي إلى الآيات التي تبدأ بقوله تعالى ﴿ذَرْنِي وَمَنْ خَلَقْتُ وَحِيدًا ﴿١١﴾ وَجَعَلْتُ لَهُۥ مَالًا مَّمْدُودًا ﴿١٢﴾ ﴾ [المدثر: ٧٤/١١-١٢] وهي في جملتها وصف لواحد من عتاة المشركين اسمه الوليد بن المغيرة، اقرأها ثانية بتدبر، ثم قل لي : أبشر هذا الذي يصفه ويتحدث عنه بهذا الكلام ؟.. أبشرٌ هذا الذي يقول عنه : سأصليه سقر؟!..

وأي بشر من الناس، وليكن محمداً صلى الله عليه وسلم، يعلم فيما يعلمه من الغيب المستقبلي أن الوليد سيبقى العمر كله على شركه وطغيانه ولن يسلم، وقد أسلم من هو أشدّ طغياناً منه؟!.. إن مما لا يشك فيه عاقل أياً كان أن بشراً من الناس لا يتأتى منه هذا الكلام وهذا الوعيد الجازم.. إن الاحتمالات ستطوف بذهنه، ومن ذلك احتمال أن يعلن الوليد الإسلام ليثبت كذب محمد فيما أخبر عنه، إذ إن الإسلام يجبّ ما قبله ويفتح باب المغفرة والسعادة الأبدية للعبد.

فإن بقيت على إصرارك بأن هذا كلام بشر، كلام محمد أو غيره من الناس، فأشهد أنك كاذب في حق نفسك، تخالف بين قناعة فكرك وحديث لسانك.

وانظر فقد صور الله لنا بمحكم بيانه الرباني المعجز، ألوهية فرعون الزائفة، وكلامه الذي حاول أن يبث فيه دعوى ألوهيته، وأوضح لنا البيان الإلهي كيف أن كلامه جاء تكذيباً لطموحه وربوبيته الزائفة، وذلك في قوله عز وجل عنه :

﴿وَقَالَ فِرْعَوْنُ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلْمَلَأُ مَا عَلِمْتُ لَكُم مِّنْ إِلَـٰهٍ غَيْرِى فَأَوْقِدْ لِى يَـٰهَـٰمَـٰنُ عَلَى ٱلطِّينِ فَٱجْعَل لِّى صَرْحًا لَّعَلِّىٓ أَطَّلِعُ إِلَىٰٓ إِلَـٰهِ مُوسَىٰ وَإِنِّى لَأَظُنُّهُۥ مِنَ ٱلْكَـٰذِبِينَ ﴿٣٨﴾﴾ [القصص: ٢٨/٣٨].

ألا ترى ؟.. إنه يدعي الربوبية ويزعم أن لا إله غيره، ثم يطلب من هامان أن يوقد له على الطين فيجعل له منه برجاً عالياً يصعد عليه ليبحث من هناك عن إله موسى!..

فانظر كيف صور القرآن بشرية فرعون التي فرضت نفسها على كلامه، لتكذبه فيما يزعم ولتسخر من عظم دعواه أمام ضآلة ذاته، يصور ذلك بقوله عنه ﴿فَأَوْقِدْ لِي يَـٰهَـٰمَـٰنُ عَلَى ٱلطِّينِ﴾ [القصص: ٣٨/٢٨] يدعي الربوبية ويريد الصعود إلى أجواء السماء ثم لا يرى سبيلاً إلى ذلك إلا أن يستعين بالطين وأسباب الطين.. ثم إنه يقول: ﴿لَّعَلِّيٓ أَطَّلِعُ إِلَىٰٓ إِلَـٰهِ مُوسَىٰ﴾ [القصص: ٣٨/٢٨]. ولعل أداة رجاء، والرجاء من أبرز دلائل الضعف وتقاصر القدرة وهو شأن المخلوق لا الخالق، ويقول ﴿وَإِنِّي لَأَظُنُّهُۥ مِنَ ٱلْكَـٰذِبِينَ﴾ [القصص: ٣٨/٢٨] والظن دون العلم وإنما هو من شأن من أعوزه العلم فالتجأ إلى الظن.

★ ★ ★

مظهر جلال الربوبية سرّ ينبعث في كلام الخالق عز وجل، وإذا هو يشعّ بتأثير يسري إلى النفوس مخترقاً حواجز اللغات وحواجز الجهل والتخلف الثقافي.. إن إدراكه أو الشعور به لا يتوقف على ثقافة ولا على سعة علم أو ذوق عربي، غير أن المتأثر به قد لا يحسن التعبير عما يشعر به ولا يقدر على تحليله وبيان أسبابه. فإذا رأيت من إذا تلا القرآن أو تُلي عليه تأثر به قائلاً: إن هذا الكلام لا يمكن أن يكون مما يصدر عن البشر، فاعلم أنه متفاعل مع هذا الوجه الفريد من وجوه الإعجاز القرآني.

ألا ترى إلى المسلمين الأعاجم كالأتراك مثلاً، يصغون إلى آيات من كتاب الله يتلى، وإذا بالخشوع يهيمن على وجوههم

والدموع تهمي من عيونهم، وهم لا يعرفون من العربية كلمة.. إن السر هو انتشار مظهر جلال الربوبية مما يسمعونه، في نفوسهم.

يقول العالم الرياضي الأمريكي جفري لانغ، الذي أسلم منذ خمسة عشر عاماً أو أكثر، أصبحت بعد دخولي في الإسلام حريصاً على أن أصلي الصلوات الجهرية (المغرب والعشاء والفجر) جماعة في المركز الإسلامي القريب إلى بيتي، فأقبل إلي فضولي يوماً يسألني : لماذا تحرص على حضور صلاة الجماعة في الصلوات الجهرية، وأنت لا تعرف اللغة العربية ؟ فقلت له : لماذا يركن الطفل الصغير إلى صوت أمه وحديثها وهو لا يفقه، بعدُ، من كلامها شيئاً؟.. إنني أشعر أن بيني وبين هذا الكلام نسباً كنسب الطفل إلى أمه.

ألا فلتعلم أن هذا النسب الذي يشعر به جفري لانغ بينه وبين القرآن، فيبعث في نفسه هذا الأنس والتأثر، هو ما قد شرحته لك، وهو ما يسمى بمظهر جلال الربوبية في القرآن.

فإن كنت يا أيها الناقد المتهكم على كتاب الله صادقاً في دعوى أنك في مجلسك الذي أنت فيه تستطيع أن تصوغ كلاماً كالقرآن في مزاياه وفي هذا الذي شرحته لك من مظهر جلال الربوبية فيه، فاكتبه وانشره وأت به على أعين الناس، وسأكون أول مصفق ومقرظ له. ولسوف تنال إعجاب الناس، ولكن لا على نجاحك، بل على جرأتك ومغامرتك.

وبعـد

وبعد، فتلك هي الأباطيل المختلقة التي بلغتني أنباؤها، والتي يتعمد أناس اختلاقها من الوهم وإلصاقها زوراً وزيفاً بكتاب الله عز وجل..

وأحسب أن جلّ الإخوة القراء يعرفون هؤلاء الناس، يعرفونهم من أبرز صفاتهم. إنهم أولئك الذين لا يختلقون أباطيلهم إلا في نجوة من الناس، بعيداً عمن يسائلهم أو يناقشهم.. يقبعون في غرفهم المغلقة، ثم يرسلون منها إلى آذان المسلمين حصيلة أحقادهم على كتاب الله الذي لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه!..

وإذا كانت الأوهام، كما تعرف، لا نهاية لها، وكانت أبواب الاختلاق مفتحة، ودفين الحقد مستمراً، فأغلب الظن أن سلسلة هذه الأباطيل لن تنقطع.

ولكن فليعلم هؤلاء القابعون بين جدرانهم المغلقة، أن أباطيلهم لن تجد سبيلها إلى أسماع الناس، إلا كما يسري إليها كل نعيق أو شهيق..

أما كتاب الله عز وجل، فلن يكون شأنهم معه إلا كشأن من يريدون أن يثيروا من أتربة الأرض غيوماً داكنة لتلتصق بالشمس المتلألئة في كبد السماء..

فما هي إلا أن تثور أمتاراً في جو السماء حتى ترتد ملتصقة برؤوسهم، وتبقى شمس الدنيا صافية متلألئة تتألق.

★ ★ ★

إنني أقول لهؤلاء الذين يرعبهم الحوار والنقاش : اطمئنوا فإن حوارنا لن يكون كما تتوهمون، إن حوارنا لكم وللآخرين أياً كانوا، لا ينبعث من حقد دفين أو غير دفين، وإنما ينبعث من إنسانية تتسامى على كل مشاعر الغيظ والضغائن والأحقاد.

إن حوارنا للآخرين أياً كانوا، يتم تحت شعار قول الله تعالى ﴿وَإِنَّآ أَوْ إِيَّاكُمْ لَعَلَىٰ هُدًى أَوْ فِي ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ﴾ [سبأ: ٣٤/ ٢٤] إنه وصية من الله لنا إذا تلاقينا مع الآخرين في حوار حول شيء من حقائق هذا الدين، أن نحاورهم ونحن نفترض أننا قد نكون الطرف التائه المتطوح في الضلال، وأن الطرف الثاني هو السائر على الهدى والمتبصر للحق، والحَكَمَ العدل بيننا إنما هو العلم ومنطق الأحداث.

ولن يحرفنا عن هذا الشعار القرآني في حوارنا مع الآخرين، عدم التزامهم بالشعار ذاته. إنهم حتى إذا انطلقوا من اتهامهم لنا، من منطلق العصبية والعناد، أو الضغينة والأحقاد، فإنا نظل - استجابة لأمر الله لنا - منضبطين بهذا الشعار ﴿وَإِنَّآ أَوْ إِيَّاكُمْ لَعَلَىٰ هُدًى أَوْ فِي ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ﴾ ولابدّ لدى قيام هذا الاحتمال، والأخذ به منهجاً للبحث والحوار، من أن نسير على هديه، وأن نجعل من ميزان العلم وقواعده الحكَمَ العدل في القرار الذي يجب التلاقي عليه.

إنني - بناء على هذا - على استعداد لأن أجعل من هذا الكتاب الذي انتهيت الساعة من تأليفه، ورقة عمل، نجتمع على الحوار والمناقشة على أساسها، في الهواء وعلى الهواء.. إنني ألحّ على دعوة هذا الذي يناجي (المايكرفون) في نسجه للأباطيل التي يلصقها بالقرآن، إلى لقاء حواري يكون (المايكرفون) شاهد عدلٍ بيني وبينه، بدلاً من أن ينفرد به ويجعل منه صدى لصوته وحده.

⋆ ⋆ ⋆

وآخر ما أقوله في خاتمة هذا الكتاب لكل من يصرّ على اختلاق الأباطيل ولصقها بالقرآن، الكلمات التالية :

لك أن تستجيب اليوم للواعجك النفسية وعنادك الفكري ونداء ضغائنك وأحقادك، فتختلق ما تشاء، وأن تخلط الحق بالباطل كما تهوى، وأن تضع كتاب الله تعالى غرضاً تصوب إليه سهام سخريتك على النحو الذي يشفي غليلك، ولكن عليك أن تتأكد اليوم أنك تتمتع بالقدرة على الثبات على هذا الذي قررته لنفسك وارتضيته مذهباً في حياتك. تأكد أن لواعجك النفسية وعنادك الفكري وضغائنك المتحكمة بك لن ترتدّ عنك إذا فاجأتك ضجعة الموت، ورأيت بعينيك ما كان غائباً عنهما، وعلمت أن المساق إلى الله، وإذا بقرارك الذي تتخذه اليوم قد تحول إلى نار من الندامة كاوية، في ساعة لا يفيدك فيها الندم، ولا سبيل فيها لإصلاح ما أفسدت ولا لبناء ما هدمت!..

إنني إذ أخاطبك بالحقائق التي وضعتها أمامك في الفصول

التي مرت في هذا الكتاب، إنما أدين بها قراراتٍ أرحل من دنياي هذه بها إذا حانت ساعة الموت، وألقى الله بها عندما يقوم الناس لرب العالمين.

فهل أنت في قراراتك التي اتخذتها بحق كتاب الله تعالى، مما قد مرّ ذكره، متشبث بها مدافع عنها عندما تحين ساعة رحيلك عن هذه الدنيا، وعندما تحمل منها أو قاراً على ظهرك إذ يقوم الناس غداً لرب العالمين؟!..

إن كنت قد وطنت نفسك على الثبات على ذلك إلى النهاية، دون رجوع عنه ولا ندم عليه، فأنا أهنئك، أهنئك على الصبر الذي ستتمتع به، وإنه لَلصّبر الذي ينوِّه به بيان رب العالمين في قوله عز وجل:

﴿أُوْلَـٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ ٱشْتَرَوُاْ ٱلضَّلَـٰلَةَ بِٱلْهُدَىٰ وَٱلْعَذَابَ بِٱلْمَغْفِرَةِ ۚ فَمَآ أَصْبَرَهُمْ عَلَى ٱلنَّارِ ﴿١٧٥﴾ ذَٰلِكَ بِأَنَّ ٱللَّهَ نَزَّلَ ٱلْكِتَـٰبَ بِٱلْحَقِّ ۗ وَإِنَّ ٱلَّذِينَ ٱخْتَلَفُواْ فِى ٱلْكِتَـٰبِ لَفِى شِقَاقٍۭ بَعِيدٍ ﴿١٧٦﴾﴾ [البقرة: ٢/ ١٧٥-١٧٦].

صدق الله العظيم، والحمد لله رب العالمين.

دمشق في ١٠ ذي القعدة ١٤٢٧

١ كانون أول ٢٠٠٦

محمد سعيد رمضان البوطي

كتب للمؤلف

الإسلام ملاذ كل المجتمعات الإنسانية

الإسلام والعصر تحديات وآفاق (سلسلة حوارات لقرن جديد)

الله أم الإنسان أيهما أقدر على رعاية حقوق الإنسان؟

الإنسان مسير أم مخير؟

أوربة من التقنية إلى الروحانية

التغيير مفهومه وطرائقه (ندوات الفكر المعاصر)

الجهاد في الإسلام: كيف نفهمه؟ وكيف نمارسه؟

الجهاد في الإسلام: كيف نفهمه؟ وكيف نمارسه؟ (بالإنكليزية)

الجهاد في الإسلام: كيف نفهمه؟ وكيف نمارسه؟ (بالفرنسية)

حرية الإنسان في ظل عبوديته لله (سلسلة هذا هو الإسلام)

حرية الإنسان في ظل عبوديته لله (بالإنكليزية)

الحكم العطائية - شرح وتحليل (١ - ٤)

الحوار سبيل التعايش (ندوات الفكر المعاصر)

دراسات قرآنية (قرص مدمج) CD-Rom

السلفية مرحلة زمنية مباركة لا مذهب إسلامي

شخصيات استوقفتني

ضوابط المصلحة

فقه السيرة النبوية

كبرى اليقينيات الكونية (وجود الخالق ووظيفة المخلوق)